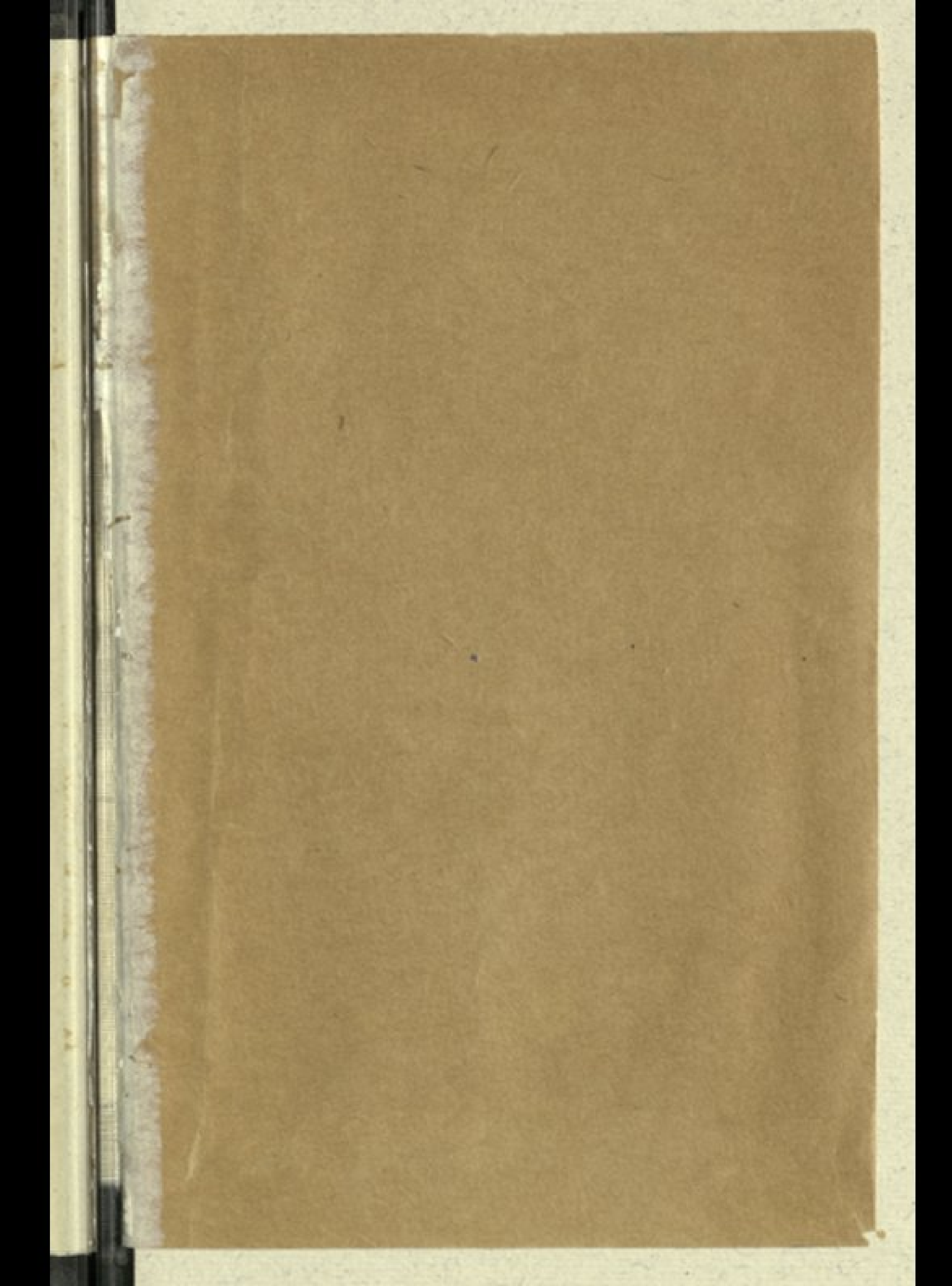
DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number



كتاب
عمود النار
او
اسرائيل في العبودية

للعلامة يوحنا انغرهام

صاحب "كتاب رئيس بيت داود وكتاب كرسي داود"

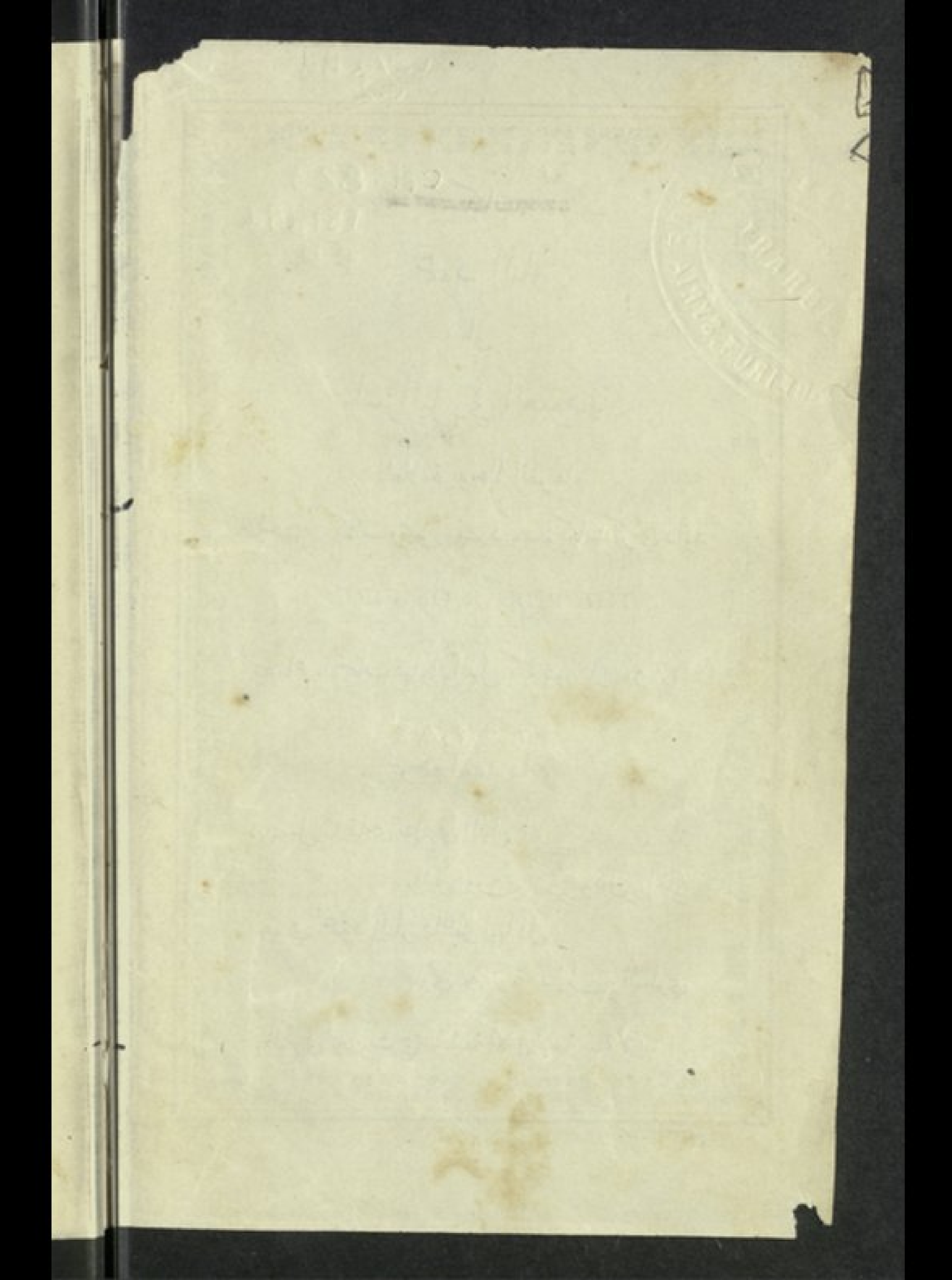
THE PILLAR OF FIRE.

"وهداهم بالسحاب نهارًا والليل كلهُ بنور نار" مز ١٤:٧٨

ترجمة اسعد داغر

تفصيل ما قاسى بوادي النيلِ اِسـ
رائيلُ من رقٍّ وذلِّ إسارِ
هو في "عمود النار" فانظر ايها آلـ
قاري بهِ تَرَهُ دليل الساري

طبع في بيروت في المطبعة الاميركانية سنة ١٩٠٩



مقدمة المترجم

مقدَّمة المترجم

الحمد لله الرفيع الذات البديع الصفات الذي له في خلق الارض والسموات آيات بيّنات تمزّق حُجُب الرِيَب والشكوك وتدلّ على انهُ وحدهُ اله الآلهة وملك الملوك الذي اختار لذاتهِ المقدسة في العهد القديم شعبًا من صلب رئيس الآباء خليلهِ ابرهيم وبعد ما استعبدوا في ارض مصر وكابدوا شرّ الرقّ وامرّ الاسر سمع انينهم ورأى مشقتهم الشديدة واخرجهم على يد كليمهِ موسى بيدٍ قوية وذراع ممدودة اذ "شقَّ البحر الاحمر فعبَّرهم ونصب المياه كندّ" ونجّد بفرعون وكل جيشهِ فبادوا ولم يكونوا بعد وفجّر لشعبهِ في القفار "مجاري من صخرة واجرى مياهًا كالانهار وهداهم بالسحاب نهارًا والليل كلهُ بنور نار"

وبعدُ فهذا كتاب للعلاّمة اللاهوتي الشهير يوحنا انغرهام وضعهُ في تاريخ مصر على عهد عبودية بني اسرائيل فيها على نسق كتابهِ "رئيس بيت داود" اذ اثبت فيهِ ما اراد وصفهُ من الحوادث والمناظر على صورة رسائل نُسبت كتابتها الى مَن افترض انهُ سمع باذنيهِ وشاهد بعينيهِ ما يراهُ القارئ الكريم ممثلاً لديهِ

فالامير سيسوسترس وليّ عهد فينيقيــة المنسوبة اليه هذه الرسائل بعد ما بلغ الثامنة والعشرين من العمر شخص الى بلاد مصر التي كانت اقوى الممالك في ذلك العصر ليتهذّب في شرائعها واحكامهـــا السياسيّة وعلومها الفلسفية واسرارها الدينيّة فبعد ما ودّع والدته ايفيا الملكة الارملة ركب البحر حاملاً رسائل توصية الى امنس ملكة مصر التي بعد وفاة ابيها اميونوفيس الاول الذي ملك اثنتين وعشرين سنة جلست على عرشهِ حين كان موسى ابن اثنتي عشرة سنة — نحو ١٥٦٠ ق.م. وقد قدم سيسوسترس الى بلاطها بعد توليها الملك باحدى وعشرين سنة قضتها في السعي والجد والاخذ باسباب رفع المملكة الى اعلى ذرى القوة والمجد

فعسى ان يصادف كتابة هذا عند القرّاء ابناء لغتنا الاعزّاء ما صادفهُ كتاباهُ الأولانِ "رئيس بيت داود" و"كرسي داود" من القبول والاحتفاء ويكون خير ذريعةٍ لحث كثيرين على مطالعة العهد القديم — من الكتاب المقدس الكريم واكبر وسيلة لاظهار مقاصدهِ تعالى بما صنعهُ في مصر من العجائب والمعجزات والآيات والقوات التي سحق بها آلهة مصر الكاذبة واعلن قوتهُ السرمدية الغالبة مبيّناً في كل ما اجراهُ وصنعتهُ يداهُ انهُ هو الاله الحي الحقيقي وليس اله آخر سواهُ

اسعد

داغر

كتاب

عمود النار

القسم الاول

رسائل سبسوسترس وليّ عهد فينيقية الى والدته الملكة ايفيا

الرسالة الاولى

اي والدتي الملكة العزيزة

ها قد بلغت "ارض السبعة انهر" والآن اكتب اليكِ من عاصمتها البهية اون مدينة الشمس . ولست ادري كيف اصف لكِ عظمة مدينة الهياكل وفخامة قصورها التي يتراءى للناظر اليها انها بُنيت لكي تكون مساكن الآلهة لا منازل الناس

فكيف التفتُّ ارى ما يحقق لي اني في مصر القديرة لاني في كل مكان منها اشاهد عظمة وفخامة وجلالاً واتقاناً ونفاسة وكمالاً وكل شيء فيها ناطق بافصح لسان وشاهد باجلى بيان على القوة والحصافة وسلامة الذوق الممتازة بها تلك الجالسة الآن على عرش الفراعنة التي في عصر ملكها المجيد حلَّق طائر شهرة مصر وارتفع شأنها فوق اقوى ممالك الارض وكل ما اشاهدهُ يذكرني بوالدتي العزيزة بمجد امتنا الغابر وسؤدد فينيقية الدابر التي منها استمدَّت مصر صفوة الابطال المجرَّبين ونخبة الاقيال الفاتحين ورجال السياسة المحنكين والحكام المدرَّبين وذلك في عهد دولة ملوكها الرعاة تلك دولة كانت بالحق سعيدة جليلة ولكن وا اسفاه لم تكن مدتها طويلة

فواهاً لها لو دامت الدهرَ كلهُ

وآهاً عليها كيف مرَّت كاحلامِ

على ان فينيقية المحبوبة وان يكن لون بهائها قد حال وظلّ مجدها قد زال وصارت عزتها الى الفناء والاضمحلال ستبقى حيَّة وارفة الظلال باسقة الاغصان في نهضة ابنتها مصر ذات البهاء والجمال والقوة والسلطان وهذا خير اسوة لي واعظم سلوان

أَجل انَّ فينيقية ليست ميتة ما دامت مصر حيَّة وكل ما اندرس في بلادنا أُعيدت معاهدهُ وتجدَّدت معالمهُ بأَوفر إتقان واكثر احكام على ضفاف النيل الساطع بانوار الخصب والنماء

المتفجّرة ينابيعهُ من تحت عرش ثوث في الجلد الجنوبي

فكيف اصف لكِ ما اشاهدهُ ؟ هوذا هنا كلُّ شيءٍ سالبٌ لبي وآخذ بمجامع قلبي وباعث بي على الفرح والابتهاج فانا نشوان لا من راحٍ بل من بهاء الصناعة وجمال الاعمال التي هي مظهر المجد البشري والاقتدار الانساني . فحقًّا ان كل ما سمعتهُ مرّةً من ابي عن مجد ساليم في عهد دولة ملكيصادق — عن هياكلها الرفيعة وقصورها البديعة وجنانها المعلقة ورياضها الغنّاء وجميع ما فيهـا من مظاهر العظمة ومجالي المجد والبهاء ليس شيئًا خليقًا بالذكر في جنب ما اراهُ في مصر . فما من مشبه لكهانها المقذفين الي البسالة والاقدام او كهنتها المتشحين بالقوة من لدن الآلهة العظام . وامرائها المتحلين بالنبالة وملكتها الساحبة ذيول العظمة والجلالة . فيا لجمال وبهاء عذارى الشمس . ويا لغرابة طريقـة العبادة . وهول المدافن القائمة كجبال مخروطة مثلثات الزوايا في كل بقعة من سهلها الواسع الاطراف . ويا لها من ارض زاهية بالخمائل الزاهرة باهية بالحدائق الباهرة . ارض القصور والمسلاّت والينابيع والمساجد والمذابح وآباء الهول والتماثيل . ارضٌ حوت كل ما تقرّ بهِ النواظر وتنشرح لهُ الخواطر

وقد سأَلت نفسي قائلاً أَحقًّا انا في مصر الارض المظللة بالاجنحة كما دعاها ثوثمس الاول والثاني راسمين ذلك على ترسيها — في مصر مجد الارض وملكة الممالك التي اصبحت ملكتها

قريبة في عقد الملوك فدانوا لسلطانها وعنت صوالجتهم لصوالجانها. والى الان يا والدتي العزيزة لم انظر هذه الملكة القديرة الاّ عن بعدٍ حين كانت نازلة على درج قصرها ولكن بعد ثلاثة ايام انشرف بمشاهدتها في المكان المعدّ لاستقبالها السفراء والامراء الذين يأتون الى مصر لتلقي العلوم والصنائع او لدراسة الفنون الحربية او لمشاهدة عظمة هذه الملكة او للتفقّه بديانة وشرائع واحكام هذه الأمّة التي ملأت شهرتها كل الارض . ولما بلغتُ بسُفُني مصبَّ النيل بعثت اليها مع رسولٍ مخصوصٍ برسائلكِ التي كتبتها اليهـا توصيةً بي

ولقد اسعدني الحظ بروئية وليّ عهدها الامير رعمسيس فرأيتُ أنّ الآلهة لم تخلق افضل منهُ اميرًا في النبل والشرف فكلُّ ملامح هيئتهِ الجميلة وحركات شخصهِ السامي أدلّة صادقة على انهُ مولود للسيادة والسلطان ومخلوق لملكٍ موطّد الاركان. وهو الآن في الرابعة والثلاثين من العمر في ريعان الشباب وكمال الرجولية متخرّجٌ في جميع فنون الحرب مهذّب بكل حكمة المصريين وحين يأخذ باطراف الاحاديث تحدق بهِ ابصار الحكماء وتنفتح لهُ اذان الفلاسفة مستمالين اليهِ لا بقوة الرهبة ورفعة المقام بل بجاذب سموّ الحكمة وبلاغة الكلام

وقد اكرم وفادتي وبالغ في الاحتفاء بي وسألني عن سلامة أمّي الملكة ومع انهُ اكبر مني بست سنين أرى اني سوف أقرّب

اليه بصداقة وثيقة العرى شديدة الالتحام . وأعوّل عليه في توفير اسباب مسرّتي مدّة اقامتي في ارض الاهرام

واذ قد وعدتكِ يا والدتي العزيزة بأن اطلعكِ على كل ما عرض لي في سفري من الحوادث والمناظر رأيت الآن ان أشغل بعلما بقي من هذه الرسالة

فحين ودّعتكِ على درجات الرصيف الرخامية امام قصرنا وصعدت الى ظهر سفينتي شعرت بانفصام عروتين داخل قلبي — احداها تربطني بكِ ايتها العزيزة التي لم افارقها قط قبل الآن والثانية تربطني ببلادي المحبوبة ووطني العزيز

ومع اني ذاهبٌ في مقدمة عمارة كبيرة مؤلفة من ثلاثين سفينة لزيارة اسمى الممالك تحت سماء افريقيا الشمسية أطبقت سحب الغمّ في جوّ قلبي من جرّاء هذا الفراق وبعينين مغرورقتين بالدموع نظرت اليكِ وأنتِ تُشيرين اليّ بعلامة الوداع وتتوسلين الى اله شعبنا ليباركني وبصوتٍ اجشّ أوعزت الى امير البحر ان يبادر الى نشر الشرُع الارجوانية في سفينتي الذهبية لتسير بها الريح الموافقة التي كأني بها قد هبّتْ من مهبّها مُرسَلةً من لدن الهنا إجابةً لصلواتكِ

وبعد سبعة ايام بلغنا شاطئ مصر بسلام وبعد الشمس بساعتين اشرفنا على خطٍ منخفض من البرّ يوضح مدخل " جنة العالم " ومنه تنفتح ابواب النيل السبعة الى البحر الازرق العظيم

ولما صعدت الى قلعة رماة السهام في اعلى صواري السفينة استطعت ان ارى الاعمدة الرفيعة التي بناها منيس عند مدخل النهر والتي يسطع من قمة كلٍّ منها ليلاً لهيبٌ عجيب اختراع مجوسي مصر. واذ اقتربنا قليلاً ادهشني ما طرأ على لون البحر من التغيُّر فانهُ بعد ان كان أخضر زمرديًّا حال بما غشيهُ من ماء ضارب الى السمرة وهو كثيف بما فيهِ من الوحل والطين وقد طفا على وجه البحر كأنهُ أخفُّ منهُ لكنني في الحال علمت أنَّ هذا مندفع النهر الى البحر وأنَّ النيل يحاول الانفراد وحدهُ ويأبى الاختلاط جهدهُ . بعدما أُكره على الغاء سُلطتهِ وأُرغم ان يدين خاضعًا لسلطان البحر واشرقت الشمس على اسوار بلونسيوم المدينة العظيمة — اقدم مدن مصر الحصينة وتدعى "مفتاح مصر" و "قوَّة مصر". وانارت جنانها وهياكلها فاطللنا على القصور والاعمدة والغياض والسهول الخصيبة التي يغمرها النيل كل عام بمياهِ ويفجّر فيها ينابيع الثروة والغنى . ولما دنونا من الميناء وتقدمت بارجتي امام العمارة خرجت الينا سفينةٌ حربيَّة كبيرة ذات ثلاث مئة مقذاف مندفعة من فم النهر كسحابةٍ مظلمةٍ واتجهت نحوي على هيئة عدَّاء فرفعت راية ملكي على الصاري وانتظرت وصول البارجة المصرية اليَّ ولما صارت على بُعد رمية سهم مني سألني كبير من فيها مَن انا ومن اين جئت وما هو مرادي . فاجبت عن كل هذا بواسطة امير البحر واذ ذاك أمر الربَّان المصري ان تُعدَّ لي

بارجة مخصوصة وصعد اليَّ مصحوبًا بحاشيتهِ وسلّموا عليَّ سلامًا لائقًا بوليِّ عهد صور فاستقبلتهم بلباس يليق برتبتي ومقامي وبعد ما أوفوني حقي من الاكرام والتجلة والتأهيل والترحاب أوضحوا لي بأفصح عبارة أن سيدتهم الملكة أمسنس "سند العالم" كما دعوها سوف تُسرُّ غاية السرور بزيارتي لبلاطها قائلين لي انها الآن راجعة من زيارتها هيكل أسبس وتهفيش في فيلي وانها عند بلوغي ممفيس ستكون هناك او في قصرها الخاص في أون

وبمشورة هذا الربان أرسلت كاتم اسراري أخرِيس على اجمل بارجة ليحمل صورة رسالتكِ الى الملكة بعد ما ختمتها بخاتمي وبعد ذلك بالغت في اكرام ضيفي المصري الذي أُعجب جدًّا باتقان بارجتي وإحكام الصناعة في عمارتي وقد قال لي انهُ لم يشاهد قبل الآن عمارة فينيقية لكنهُ سمع كثيرًا عن شهرتنا في البحر

اما سفينتهُ فهي غاية في العلوّ وهائلةٌ في منظرها الحربي ومؤخّرُها غاصٌ بالكماة الذين على رؤُوسهم خوذ من نحاس ولها اربعة صوارٍ قصيرة في رأس كلٍّ منها قلعة كبيرة يقوم فيها عشرون لببيًا كلهم رماة سهام رؤُوسها من فولاذ وعلى مقدّمها حصنٌ فيهِ عساكر بايديهم حراب طويلة ومجانٌّ اهليلجيّة — (او بيضيّة الشكل) عليها اشارات هيروغليفيّة بالوان جميلة . وعلى الجانبين فوق المجذفين صفوفٌ من الحبشان وعليهم دروعٌ فولاذيّة وامامهم سيوف طويلة وكان قواد هذه الفرق قائمين في

مواقف مختلفة بعد دِ ثمينة تختلف في الهيئة حسب اختلاف الصفوف التي تحت قيادتهم . ومُقدَّم هذه البارجة العظيمة التي تقلُّ الف محارب ما عدا الثلاث مئة مجذف مزدانٌ برأس أسدٍ وعلى مؤخَّرها يمتدُّ جناحان عريضان مذهبان منشوران حول كرة الشمس التي هي شعار دولة مصر . وعدا هذه السفينة الكبيرة كانت على مقربةٍ منها سفنٌ اخرى عديدة صغيرة ذات صارٍ واحد وخمسين مجذافًا وهذه العمارة قائمة على الدوام بحراسة مدخل النيل وحماية ابواب مصر من هجمات الاعداء

وبعد ما فرغت من التأمُّل في هذه السفينة والاعجاب بها من على ظهر بارجتي دعاني اميرها باثرومنس اليها واكرم وفادتي بالحان مطربةٍ وقَّعتها فرقة الموسيقى . ثم عُرِضت امامي لاجل التسلية العاب المشعوذين والمازحين ذوي القامات القصيرة الغريبة والمناظر الذميمة وعند المساء أُعدَّت لي مأدبة فاخرة جمعت الذَّ الاطعمة واشهى الالوان ومن جملتها لحم الغزلان . وقبل الوليمة اشار امير البحر الى كاهن اوسيريس فتولَّى مباشرة الطقوس المقدسة مفتتحًا اياها بالصلاة لله لاجل حفظ الملكة ونجاح المملكة . وفي اثناء الوليمة كانت الآلات الموسيقيَّة تشنف الآذان باطيب الالحان . ولما فرغنا من مناولة الطعام وشرعنا في تعاطي المدام دخل حاملٌ مومياً صغيرةَ (او جسدًا محنَّطًا) مزيَّنةَ ومذهبة فرفع هذه الكتابة عن الموت امامنا وقال الامير بوقار :—

" انظر هذه واشرب وسرّ لانك هكذا تكون بعدما يوافيك المنون "

فاندهشتُ اندهاشًا لا مزيد عليه من هذه المفاجأة الغريبة التي ليست في محلها واذ لاحظ باثرومنس أثر الامتعاض على وجهي قال لي باسمًا:

" ان التذكير بالموت على هذا الاسلوب في مثل هذا الوقت في غير محلهِ ولكن يُقصَد بهِ اغراؤُنا على التمتع بالحياة ما دامت لنا اذ بعد انقضائها لا وسيلة لادراك شيءٍ من المسرّات "

ثم ملأ اقداحنا الذهبيّة واقترح ان نشرب على صحتكِ يا والدتي العزيزة فشربتُ على صحتكِ ومجد مملكتكِ ومع اني لا أُسلِّم بما ارتآهُ الامير في شأن هذا التذكير ارى ان الأَولى بهذا ان يكون الإنذار بقصر هذه الحياة والتحذير من قضائها بالملاهي والملذات

وبعد انقضاء هذه الحفلة رجعتُ الى بارجتي وفي صباح اليوم التالي دخلنا بواسطة الريح الخفيفة والمجاذيف النيل العظيم وصعدنا على مهلٍ في مجراهُ القوي الهادئ وظلّ باثرومنس بصحبتي حتى اجتزنا لموزيوم ثم استأذن مني وعانقني كأَخٍ وانطلق فتركت عمارتي هناك على نيّة الرجوع الى صور بعدما تأخذ حاجتها من ماء النيل العذب ولم أُبقِ معي سوى بارجتي وتلك التي ارسلت عليها كاتم اسراري الى العاصمة فارجو ان البقيّة تبلغ شواطئ

فينيقية بسلام

وفي مساء ذلك اليوم شاهدت التمساح المقدس فتأملتُ في هذا الوحش الحرشفي بعين العجب والخوف . وان كان الهاً فلا بدَّ ان عبّادهُ يسجدون له منقادين بقوة الخوف لا بعامل المحبة

وفي اليوم التالي بعد ما مخرنا بضع ساعات بين الجنان والبساتين اقتربنا من مدينة اون على الشاطئ الشرقي وقبل الدنوّ منها عرض لنا منظر ممفيس على الشاطئ الغربي وعلى بُعدٍ منها لاحت لنا قمة احد الاهرام الشامخة

في رسالتي التالية اطلعكِ على تفاصيل دخولي مدينة الشمس واستقبال وليّ العهد رعمسيس لي

ابنكِ المحبّ

سيسوسترس

الرسالة الثانية

مدينة الشمس

والدتي الملكة العزيزة

في ذيل رسالتي السابقة ذكرت لكِ اني كنت كما ظننت على مقربة من مدينة الشمس ولكن ما ظننتهُ عاصمة الآلهة لم يكن سوى الطريق من النهر الى المدينة التي هي على بُعد نحو ميلين من الشاطئ على انهُ من النيل الى المدينة سلسلة متصلة الحلقات من هياكل ليس لها مشبه في كل الارض — لا في نينوى ولا في بابل في عهد مجدها . ومقابل النهر يمتد الى مسافة ميل صفٌ قصور باذخة تحيط بهيكل كبير الحجم واسع المساحة وتلك القصور المحدقة بهِ مزدانة باعمدة تفوق الوصف نحتاً وصقلاً وهي ثلاث مئة عمود مغشاة بما يحيّر الالباب من بديع الوشي وباهر النقش ورؤوس هذه العُمُد مصنوعة على اشكال زهر في الاكمام لم يفتح بعد

او على شكل حندقوقى وجوانبها منقوشة نقشًا يمثل اوراق الازهار المعروفة في مصر

والهيكل الذي في الوسط رفيع الذرى مبنيّ بحجارة رملية جميلة يزين شرفاتهِ ستون عمودًا من رخام وهذه العُمُد مع الثلاث مئة عمود المارّ ذكرها تمثل الثلاث مئة والستين يومًا ايام السنة المصرية القديمة . وفي مقدمة الهيكل ثلاث بوابات كبيرة واسعة كل منها تكفي لمرور اربع مركبات معًا وعليها نقوش وتصاوير بديعة تمثل الكهنة والذبائح وتقادم البخور وكل الطقوس الدينية المتعلقة بعبادة الشمس

وفوق البوابة الوسطى مثال اوسيرس على هيئة ترس الشمس في نصف دائرة من ذهب يمتد منها اجنحة الى مسافة عدة اذرع وريشها مرصع بحجارة كريمة يلتفّ حولها صلّان من نحاس لم اعلم الى الآن عمَّ يُكنى بها

تمثلي لعينيكِ يا والدتي العزيزة هذا الهيكل العظيم الشأن المشيد الاركان واجنحته الواسعة المنعكسة منها الى النهر اشعة النور الساطعة وتصوّري النهر يجري منخرقًا داخل هذه البوابات الى القناة القائمة على جانبيها صفوف الاشجار المدلاة اغصانها بيانع الثمار من ليمون يميل بافنانهِ المتدلية فوق الماء ورمان وتين وزيتون وعنب وغير ذلك من الاشجار والارواح والرياحين والازهار المزدانة بكل ساطع معطار وعابق فيّاح

ز د أ ه بكل ساطع معطار وعابق فياح

وعند دخول بارجتي الى هذه القناة قوبلت بالوف من
الناظرين المعجبين المصطفّين على الرصيف الذي صعدت اليهِ
لتأدية واجب السلام الى القائد العام الواقف من قبَل الملكة
بلباس رسميّ لكي يلاقيني ويذهب بي الى المدينة ثم معي الى بارجتي
وامر ان تسير امامها بارجتان مقدَّم كلّ منهما من فضة ورايانهما من
ذهب والجذَفون فيهما عبيد من نوبية . وهكذا سير بي باحتفال
لائق بمن هو مثلي بين تلك المعاهد الفائقة الباهرة . والمشاهد
البهجة السارّة والمناظر التي هي في الحقيقة نادرة وللعقول ساحرة
الى حيث رأيت تلك القناة قد انفرجت بغتةً واتّسعت على شكل
بحيرة مستديرة محاطة بالاعمدة وعلى جوانبها اروقة انيقة كانت
غاصّة بالجماهير المتسربلين بالملابس النفيسة الفاخرة بعضهم
يتمشون فيها يتحدثون وبعضهم جالسون حول شيوخٍ ذوي هيبة
ووقار يصغون الى كلامهم . فافادني القائد العام ان هذه الاروقة
كانت مجالس فلاسفة وعظماء الارض الذين جاءوا الى هنا
ليتهذَّبوا بحكمة المصريين . ثم دلّني على كثيرين من عظماء الفلاسفة
المعتبرين حكماء في وطنهم ومع ذلك اتوا الى هنا وجلسوا عند اقدام
اساتذة حكمة العالم ليتعلموا منهم . واذ ذاك رأيت شابَّين من اشراف
دمشق قدما الى صور في العام الماضي ليأتيا منها الى ممفيس
وشاهدت ايضًا الامير ملكور من مدينة ساليم سليل ملكي صادق
الملك العظيم الذي لا تزال شهرة حكمتهِ ومجد ملكهِ منذ ثلاث مئة

سنة الى الآن مذكورة بما يسوق له التجلة والتعظيم من كل لسان . واذ عرفني هذا الامير ردّ لي التحيّة واسرع الى ملاقاتي على الرصيف لان هذه البحيرة بها تنتهي القناة المتصلة بالنهر ويتعذّر المسير منها الى اون بالبوارج والسفن ويتعيّن السفر برّاً . ومقابل البحيرة عمودان كبيران علوّ كلٍ منها مئة قدم بُنيا على اسم اوسيرس وايسيس . وهما قائمان على قاعدتين من برفير ومن بينهما يُصعَد على درجٍ من رخام الى الرصيف وعند صعودي الى هناك بادر امير ساليم الى معانقتي واستأذن القائد العام في الانصراف ثم تقدم نحوي على الفور رجل شريف على صدرهِ قلادة من ذهب وهو لابس حلّة من ارجوان مطرّزة وفي يدهِ اليمنى صولجان طويل من فضة وعلى رأسهِ صورة كركي مصنوع من حجر كريم . وقد قال انهُ قادمٌ من قبل الملكة ليذهب بي الى المدينة . ومن كلامهِ لي :—

" ان جلالة الملكة اخذت رسالتك ايها الامير السامي وبعثت بخدامها لاكرام وفادتك والاحتفاء بك "

فاجزلتُ شكري على هذا الاكرام المبذول نحوي من لدن الملكة وسرت اتبعهُ على الرصيف والدكّة المحاطة بتماثيل كل آلهة الارض وقد سرّني أنْ رأيتُ بينها تماثيل آلهة فينيقية موضوعة قرب امون الله ثيبة

وحقّاً ان هذا الاحترام لآلهتنا والاكرام لشخصي دليل واضح

على ان الدولة الحاضرة قد تناست غلبة الفينيقيين قديمًا على مصر ولكن حين نتذكّر ان اموسيس الاول موّسس هذه الدولة اتخذ زوجةً له افنا الجميلة ابنة آخر فرعون فينيقيٍ اذ اسرها حين طرد اباها من الملك لا نعجب من الشمة التي نجدها في عيني الملكة امنس لانها من سلالة تلك الفينيقية الحسناء في الدرجة الرابعة فهي والحالة هذه ابنة عمتنا ولو عن كلالةٍ

ثم جئنا الى بوابةٍ رفيعة ذات مصراعين من نحاس وباشارة من صولجان رفيقي انفتح المصراعان فبدا لعينيَّ منظر لم ترَ عين الانسان ابدع منه في كل الارض

فانه ظهر امامي ممشى طوله نحو ميل يقود الى مدينة الشمس الشاخصة فيها الهياكل هيكلاً بعد هيكل تتألق كالذهب في اشعة الشمس كجبلٍ اصطناعي مصنوع بايدي الآلهة لا بايدي الناس . وفي الوسط قام هيكل اوسيرس مرتفعًا فوق كل الابنية المحيطة يكتنفه اثنا عشر عمودًا كبيرًا على عدد شهور السنة وعلى قمة هرم منها علوهُ مئتا قدمٍ يسطع ترس الشمس الذهبي المقدس — ترس اوسيرس الذي ملأت شهرتهُ العالم . وهو كالشمس نفسها مجدًا وبهاء . وليت شعري كيف اقوى على وصف كل هذا . ان قلمي عاجزٌ عن الايضاح والإفصاح

على اني سآخذ قليلاً بعنان اليراع مخافة ان اثقل كاهلك بوصف ما تبهر زخارفهُ النظر وتحيّر الفكر ولست ابالغ في القول

ان المصريين عازمون على ان يغتصبوا السماوات ما فيها من المجد والبهاء . ويبنوا على الارض ما يطاول بسنائهِ السماء

ومن هذه البوابة النحاسية شاهدت المدينة وهياكلها وعُمُدها واهرامها وقصورها الفائتة الإحصاء كلها محاطة بجنانٍ غنّاء . قائمة حولها سورًا منيعًا في وجه الصحراء . كالماس هنديٍّ . في زمردٍ اشوريٍّ

وكان الزقاق او الشارع مرصوفًا بحجارة اصوانية حمراء من جُزُر الشلالات وعلى كل جانب صفٌ عريض من ابنية ابي الهول مرتكزة على عمودٍ رفيعٍ عريض بعضها تمثّل الاسود والانمار وغيرها من وحوش صحارى افريقية ونوبيا وبعضها لها رأس كبش وجسد أسد وكان عدد هذه التماثيل مئة تمثال كلها متجهة الى الشارع وعيونها الحجرية مصوّبة نحو المارّة بتفرّس مستمرّ دالٍّ على التيقظ والانتباه

ثم صعدنا في ثلاث درجات عريضة على جانب كلٍّ منها مدخلٌ رفيع مزدان باجمل النقوش وابهى الصور الممثلة مناظر مقدسة باهرة ثم صعدنا في درجات أُخر رخاميةٍ محدقة بالعُمُد ومنها جئنا الى تمثالين هائلين من الحجر السماقي يمثلان الالهين كبوبس ونيلوس واتراسها مغشاة برموز هيروغليفية مصنوعة بما لا مزيد عليهِ من المهارة والاتقان

وهنا لقيت جوادًا عربيًا كريمًا مسرجًا ملجمًا يقودهُ خادمان

ورأيتُ شابًا شريفًا حاملاً على صدرهِ وسام امراء قصر الملكة هذا خاطبني داعيًا اياي الى ركوب الجواد المطهَّم

فامتثلت اشارتهُ وعلوت متن الجواد بسرور لا مزيد عليهِ وما شددتُ شكيمتهُ بلجامهِ المذهب حتى رأيت عشرين فارسًا بعدد فاخرة اصطفوا عشرةً على يميني وعشرةً على يساري وساروا بي بين القصور الباذخة والعُمُد الرفيعة والمناظر البديعة

اخيرًا رأيت المدخل العظيم الباهر الذي يُدخَل منهُ الى المدينة وفي مقدمتهِ عمود من حجر واحد فقط يمثّل الاله ثوث على عرش من الحجر القرمزي قائمًا برأس كركي علوّهُ خمسون قدمًا وفي يدهِ اليمنى كفّتا ميزان وفي اليسرى لوح

وعند هذه البوابة استقبلني رجلٌ شريف المقام عليهِ سمة الوقار والاحترام . ممتطيًا جوادًا ابيض ومصحوبًا بفرقة من الفرسان . هذا الرجل ابدى لي احسن مناظر الاحتفاء من قبَل ملكتهِ وسار راكبًا بجانبي فسرنا نخبُّ في شارعٍ مسوَّر على جانبيهِ بالعُمُد والتماثيل حتى اجتزنا المدخل الى شارع المدينة وانا مأخوذٌ بحيرة واندهاش لا مزيد عليهما من مشاهدة ما يحيّر الافكار ويدهش البصائر والابصار . فمن قصور رفيعة الشرفات سامية الاروقة الى ثلاث طبقات وينابيع وحياض وهياكل وعُمُد وغير ذلك من مظاهر الحضارة والعمران ومجالي المدنية التي لا نظير لها في سائر البلدان . وكانت الازقّة والشوارع غاصّة

بالاقدام . مزدحمة بالمارّين اشدّ الازدحام . من خارجين للنزه وذاهبين للسعي والعمل وفرق كهنة قائمين باحتفالات دينيّة ومركبات ذهبية وعجلات مختلفة الانواع . ودام الحال بي على هذا المنوال حتى جئنا الى قصر انيق أُخبرت بأنهُ أُعدّ من قبَل الملكة لنزولي فترجّلت امامهُ وعند رواقهِ صادفت كاتم اسراري اخريس الذي لشدّة فرحهِ بمشاهدتي نسي مقامي وخفّ الى معانقتي وعيناهُ مغرورقتان بدموع الابتهاج وقد مضى عليَّ الآن يومان في هذا القصر اتمتع فيهِ بكل اسباب الراحة والرفاه وجميع معدّات الرغد والصفاء . وكما قلتُ لكِ في رسالتي السابقة لم اشاهد الملكة الاَّ من بعيد وهي نازلة على درج قصرها لكنني سأَمثل غدًا بين يديها لانها في هذا اليوم فقط من الاسبوع تقابل الامراء والسفراء . وفي رجوعها من فيلي عرَّجت على ممفيس وامس جاءت منها عابرةً النهر الى هذه المدينة المقدسة التي تزورها ثلاثة ايام كل شهر لقضاء فرائضها الدينية في الهيكل العظيم ولسوف اكتب اليكِ عما قليل عن هذه العبادة ومن الخطإ ان يظنّ ان هولاء المصريين المتهذبين يعبدون الشمس وغيرها من الموادّ فمدار تعليمهم الجوهري او الاساسي وحدانية اللاهوت الممثلة صفاتهُ بصور مادّيّة وربما لا تتعدّى افكار العامّة حدود هذه الصور ولم تظفر قط بمعرفة كنه هذه الاسرار وحقائقها ولكنّ الكهنة والخاصّة ينظرون الى الشمس والقمر والحيوانات والنيل كمجرّد صفات متعددة لاله

واحدٍ غير محدود . فتعتبر الشمس انها مالكة كثيرًا من التأثير الالهي بما لها من القوّة على الإحياء والإنماء وباقي مؤثراتها المختلفة تُعتبَر من اكبر وكلاء ونوّاب الاله الواحد . والقمر معدودٌ مظهرًا آخر للمكوّن غير المنظور واذ انهُ مقياس الوقت على ما في كتبهم المقدسة يمثّل في التصوير والنقش بتوث في رأس كركي وبالاله الذي يكتب على مرّ الزمان اعمال الناس . واوسيرس كما فهمت من اساطيرهم هو الاله السامي (الممثَّل هنا بالشمس) وهو ايضًا ديّان نفوس الموتى والمثيب او المعاقب في ما بعد للخلائق التي خلقها . وبعدما اطّلع على حقيقة ديانتهم اكتب اليكِ بالتفصيل

والآن اذ قد زارني وليُّ عهد المملكة الامير رعمسيس الذي تقدم ذكرهُ بأنهُ اجمل صورة بشرية قرّت برؤيتها عيناي وان على جبهتهِ سمة السيادة مرسومة بخاتم الالهة اذكر لكِ تفصيل اول اجتماعي بهِ

كنتُ واقفًا في شباكي الذي يشرف على عرصات المدينة وساحاتها ألهو — بمشاهدة مئات من الفعلة القائمين بملابس زريّة دنيئة لا تستر من ابدانهم سوى العورة وهم يبنون سورًا مأخوذًا في اقامتهِ حول بحيرة جديدة امام هيكل ايس ورأيت اولئك الفعلة العاملين في اللبن والمثقلين بحملهِ على اكتافهم الى قمّة السور المباشرين بناءهُ انهم مذَلّون الى الغاية ومضغوط عليهم من رؤسائهم الذين كانوا يستكدّونهم بالعصي . وقد لاحت لي على وجوههم

ملامح الشعب الفينيقي الجميلة على رغم ما يقاسونهُ من الهون والشقاء والعذاب. فعجبت من رؤية شعب جميل كهذا يرسف في اغلال الاستعباد لانهُ في عصر الفراعنة الفينيقيين لم يكن في ارض مصر أُناس مُستعبَدون كهؤلاء. ومن مشابهتهم الشديدة لبعض سكان ما بين النهرين الذين شاهدتهم في صور استنتجت بأنهم لا بدَّ ان يكونوا اسرى من ذلك الشعب الشرقي القديم وقد أُخذوا في حروب اميونوف

وبينما انا متأملٌ فيهم ومتفرّسٌ على الخصوص في شابٍّ جميل الطلعة اسود العينين وقد ناءَ بحملهِ الثقيل حين رفع رأسهُ نحوي كأنهُ يلتمس مني حنوّاً عليهِ وانعطافاً اليهِ دخل اخربس وقال:

"اي مولاي سبسوسترس ان وليّ العهد رعمسيس يترجَّل من مركبتهِ امام قصرك"

فأسرعت الى الرواق مندهشاً من تشرُّفي بسيّد مصر قبل مثولي بين يدي جلالة الملكة والدتهِ وفيما انا خارج لتحقيق الخبر لقيتهُ في الدهليز ولما رآني اشار بيدهِ الى بطانتهِ لكي يرتدُّوا الى الوراء وخاطبني بلهجة أَسرَ سُموّها لبّي واخذت عذوبتها بمجامع قلبي قائلاً:

"اني اتأهل بقدومك اي وليّ عهد صور الى مصر. وقد كنت مشغولاً باستعراض جيش النيل مسافة يوم من هنا وما سمعت بخبر مجيئك الأَ امس. فارحب بك ليس كغريب بل

كابن خال . ايها العزيز سيسوسترس أ ولسنا مرتبطين بعروة القرابة ؟"

فاجبت

"انك يا مولاي الامير سليل الدولتين — الفينيقية والثيبية — اما انا فمن دولة واحدة . لكننا بهذه الدولة الواحدة نحن نسيبان على انه ما هو وليُّ عهد صور في جنب وليِّ عهد وارث عرش مصر" فقال باسماً شاداً بديَّ :

"سوف نكون صديقين مرتبطين برباط الولاء والاخاء . على السواء"

فقبلت منه هذا العهد الصادق بمزيد الحمد والثناء ومن ذلك الحين صرنا اخوين هو الاكبر وانا الاصغر

وقد قضى عندي ثلاث ساعات تحادثنا فيها عن صور ودمشق المدينة الجميلة — لان سيفي الدمشقي استمال نظرهُ وانتقدنا منه الى الكلام عن هذه المدينة . ثم تكلمنا عن مصر ومجدها وقوتها وعن الملكة والدته وشؤون المملكة وديانتها وسياستها . وهنا اختم رسالتي الهكِ ايتها الوالدة العزيزة وفي التالية اقصُّ عليكِ أنباء اجتماعاتنا وشيئاً كثيراً من احاديثهِ الشائقة الملذَّة

ابنكِ المطيع

سيسوسترس

الرسالة الثالثة

مدينة الشمس

والدتي الملكة العزيزة

وعدتكِ في رسالتي السابقة ان اذكر لكِ ما دار بيني وبين الامير رعمسيس من الحديث في اثناء زيارتهِ لي لاوّل مرّة واذ ان النساء مولعات على الدوام بالزيّ اذكر لكِ في بادئ الامر كيفية لبسهِ . فليس يخفى عليكِ ان المصريين يحلقون دائمًا رؤوسهم ولحاهم الاّ في وقت الحزن لكنهم يبقون خصلةً من الشعر في الناصية تتدلّى على الاذن وبهذه الصورة يمثَّل الاله هورس في التصاوير والتماثيل وعلى هذا الاسلوب كان رأس الامير رعمسيس وعليهِ قبعة من حرير اخضر منسوج مقدمها على صورة منقاد نسر ومن ورائهِ تتدلّى الى كتفيهِ على شكل جناحين . وفي عيني النسر الماستان كبيرتان تسطعان بنور باهر وريشة مرصّع

بحجارة كريمة . وهذا النوع من لباس الرأس خاصٌ بالاشراف والاعيان . بعضهم بصورة الكركي والبعض بصورة العقاب والآخر على شكل اسد او صقر

اما رداء الامير فكان من كتان نقيّ وفوقهُ جبّة مطرزة بالذهب مفتوحة من الامام تحيط بها منطقة من فولاذ وذهب وفيها سيفهُ المرصّع . وحول عنقهِ طوق من ذهب أُوفير عليهِ من الامام لؤلؤة غالية الثمن وفي يدهِ اليمنى خاتم فضة كان لاموسيس مؤسّس الدولة الثامنة عشرة وآخر من ذهب نقي كبير الحجم فيهِ حجر من زبرجد عليهِ صورة ترس اوسيرتاسن الاول او سيسوسترس لان لهُ اسمين في التاريخ وقد دُعيتُ انا بثانيهما . ومن كل الوجوه كان لباسهُ غايةً في الحشمة واللياقة ولم يكن نظير باقي الاعيان يحبُّ المباهاة بكثرة الحلى والجواهر بل كان يكره هذا التفاخر ولم يكن عليهِ منها الاّ ما هو ضروري للدلالة على سامي مقامهِ

اما شعرهُ فاسود حالك كخافية الغراب وعيناهُ نجلاوان تنبعث اشعَّة الحصافة والذكاء من اطباق جفونهما وبكلمةٍ اقول ليس فيهِ شيء من الملامح المصرية بل كلها فينيقيَّة ولا يسع الناظر اليهِ والتأمل في انفهِ الاقنى وشفتيهِ المرجانيَّتين الاّ ان يحكم بشدَّة مشابهتهِ لسكان دمشق . أَولا تذكرين حين ذهبنا الى دمشق في العام الماضي وشاهدنا في حجرة ضريح العازر صورة الامير العبراني

ابرهيم ؟ فعند هذا الامير الخطير كان العازر قهرمانًا او ناظرًا لبيتهِ سنين عديدة ولما رجع الى دمشق بغنى جزيل من عند سيدهِ احضر معهُ من مصر (حيث كان مرةً) مصوّرًا ماهرًا فزيّن لهُ المدفن الذي بناهُ لنفسهِ على مثال ادهش عقول الناظرين وتذكرين كم شاقكِ جلال وجمال صورة ذلك الامير التي شاهدناها في تلك الحجرة وكيف أطنبتِ بفائق حسن ملامحها المنطبقة تمام الانطباق على ملامح الامير رعمسيس الشائقة البديعة فحين نظرت الى محيّا هذا الامير العامر بالحسن والجمال تذكرت الصورة في ذاك المدفن الذي كتب بانيهِ :

"ألعازرُ الدمشقيُّ

قهرمان الامير ابرام

حبيب الآلهة"

وبعد ما تمكّن رعمسيس من الجلوس في قصري بجانب الشباك ظلّ برهةً وجيزة يجيل ناظرهُ فيَّ متمعنًا متأملاً ثم اخترق حجاب الصمت قائلاً : —

"ارجو انك تكون آخذًا هنا بجميع اسباب الراحة ايها الشريف سبسوسترس إنَّ هذا الصرح احد قصوري الكثيرة الممنوحة لي من لدن والدتي"

فاجبتهُ :

"اني حاصلٌ على ما يفوق حاجتي من اسباب الرفاه والرغد

ولم يدُر قطُّ في خلدي اني اشاهد في مصر هذه الفخامة والعظمة فهوذا النصف لم يُخبَر به العالم"

فقال باسمًا:

"ومع ذلك لم ترَ بعد الأ شيئًا يسيرًا من هذه المملكة ومع أنَّ اون هي مدينة القصور والهياكل اذ فيها هيكل لكل من آلهتنا الثلاث مئة وستين على عدد ايام السنة فممفيس في الحقيقة عاصمة مملكتنا فنحن نسود مصر من ممفيس الالهة في اون"

فسألتهُ:

"ولكن أ ليس ايس العظيم اله ممفيس الخصوصي ؟ أ وليست عبادتهُ امجد واعظم عبادة في الارض ؟"

"ومع ذلك ترى هنا في مدينة الشمس هيكل منفيس ثور اون المقدس مكرمًا بعبادة عامَّة شاملة نظير عبادة ايس"

فسألتهُ متلجلجًا متحرّزًا لان رعمسيس كاهن المملكة الاول بعد رئيس كهنة اوسيرس:

"ولكن هل يعبد المصريون المتهذبون الثور حقيقةً ؟"

فاجابني:

"لا تخف ان تسألني ما شئت يا عزيزي سيسوسترس فنحن لا نعبد هذه الحيوانات وان هي الأ رموز وكنايات ولهذين الالهين في اون وممفيس يُعنى الاله اوسيرس ديّان الناس العظيم وهذه

الحقيقة مكتومة الاَّ عن الكهنة المعهود اليهم حفظ كل ما يتعلق بالديانة"

فسألته :

"ماذا يُعرَف عن تاريخ اوسيرس ؟ لا اني اروم ادراك العلاقة الحقيقية التي لهذا الاله المعروف في كل العالم بالاسم فقط — مع مصر وبقية الآلهة وحين كنت في وطني فينيقية عجبت من التضارب والتناقض الظاهرَين في الاساطير المصرية — عبادة الهٍ غير منظور من جهةٍ والسجود لجند السماء ووحوش الارض من جهة اخرى . ففي فينيقية نعبد غير المنظور بواسطة الشمس التي تمثّله بها ولا نسجد لشيء ارضيٍّ واما في فلسطين الى الجنوب من بلادنا فيُسجَد لعشتاروث ويلوس وتماثيل من حجر ونحاس"

فقال :

"ان المصريين في كل طرقهم وبواسطة جميع آلهتهم يعبدون الاله السامي غير المحدود وتاريخ ايماننا يمشي هكذا بالاختصار على ما في التقليد العام : كان اوسيرس في البدء سيّد العالم الوحيد شمس الحق ومجد الكون وقد نزل الى الارض لاجل خير الجنس البشري وقبل مجيئهِ كان الثور وبقية الحيوانات وحشية لا ينتفع منها الانسان شيئاً وكان النيل هولاً ورعباً عند المصريين فجاء مظهرًا للخير والحق كما ورد في السفر الذهبي فدخل كل الاشياء ومنحها حياةً وخيرًا وفائدةً وحصر النيل بين

ضحيتهِ واخضعهُ لحكم الفيضان المعروف ودبّت روحهُ الى الثيران وكل المواشي وعدّل حرارة الشمس واستخرج السمّ من القمر فاصبحت الارض عروسًا لهُ باسم اسيس فولدت هورس ونظام الاوقات فانتفع الانسان واصبحت الارض مسكونةً . واذ ذاك حسدهُ اخوهُ ستيس مثال "الشرّ كما كان اوسيرس مثال الخير" وسعى في اهلاكهِ وتبغيضهِ واماتتهِ فدُفن وقام وصار ديّان الموتى. وهذه الحكاية اساس اسطورتنا . وبناء عليهِ تُعتبَر الشمس والقمر والنيل والحيوانات والبقول مقدسةً لان روح او نفس اوسيرس حلّت فيها لاجل تغييرها من الشرّ الى الخير وهكذا يُعبَد هذا الاله الواحد بواسطة الاشياء المنظورة التي قدّسها . اشياء كانت لهُ هياكل ومساكن لانهُ حسب نصّ السفر المقدس دخل في كل شيء وحوّلهُ الى منفعة بني البشر"

فقلت :

"الآن اتضح لي مبدأُ عبادتكم وتخلّصت اساطيركم من شوائب التناقض المزعوم فيها"

"ان اسرار دياناتنا عميقة لا يُسبَرُ غورها واني لمرتابٌ في استطاعة الكهنة على حلّ الغازها وادراك غوامضها وكثيرًا ما تراني هائمًا في مفاوز مواضيع العبادة خابطًا في ديجور تنوّعاتها واشكالها على اني انشط من عقال الحيرة والاشكال واغضُّ نظري عن كل صور اوسيرس المادية وارفع ذهني اليهِ رأسًا"

فاجبته معجباً بسموّ هذا الفكر الذي يكاد يكون الهيّا سماوياً :

" نعم هذا الرأي الصائب والفكر الثاقب " فاستطرد كلامه :

لكن المصريين على وجه العموم ليسوا بقادرين ان يدركوا حقيقة اللاهوت الاّ بواسطة الصور المنظورة ولاجل الدلالة على مجرّد ما يرتئيه الناس من جهة صفات اللاهوت كان من الضروري ان يميّز بتمثيلات راسخة ثابتة ولذا ترى مُثُل اوسيرس او صورهُ مختلفة في الهيئات التي يُعبَد بها كما في بتاه وامون ونيث وغيرها من الآلهة والالاهات وهذا استنباط الكهنة الاقدمين وضعوهُ للدلالة على صفات اللاهوت المختلفة وحبُّ التفنُّن في التصوير وسّع دائرة تلك المبادئ البسيطة فانقسمت طبيعة اللاهوت وتجزّأت حتى تألّه كل ما له نسبة اليها او مشابهة بها وأُعطي صورة الهٍ ووُضع في مجمع آلهة المملكة لينال حظاً من عبادة الشعب له "

" واظنّ ان هذا التصوُّر الفلسفي كان مبعث اختلاف آلهة مصر في الدرجات والرتب "

" نعم فمنها في الرتبة الاولى ومنها في الثانية ومنها في الثالثة . ولكلٍّ صنفٌ خاصٌ وطقوس متميزة "

" وأرى بكل هذه انكم لا تخصُّون الابطال المتوفين بالاكرام الالهي "

" كلاّ فليس بين آلهتنا أناس مؤلّهون كما بين آلهة غيرنا .

فتقليدنا روحي في موضوع اللاهوت المعبود بالكنايات والرموز والاشارات والصور والصفات التمثيلية"

"فاذاً انتم تقولون بالوهية العالم لا بالشرك او تعدد الآلهة"

"بالصواب تقول فصور آلهتنا التي تراها منقوشة في الرخام ومصوّرة في الهياكل وقائمة عُمُداً وتماثيل ليست سوى صور نيابية وغير معدودة البتة آلهة حقيقية وما من ولد في مصر يعتقد بوجود كائن قائم برأس طائرٍ على بدن انسان – كتمثال ثوت الذي له رأس كركي في مقدمة الهيكل او بدون رأس كالاهة العدل او طائرٍ برأس امرأة او اله برأس كبش او رأس عقاب او صقر كالاله هورس او انوبيس برأس كلب. فكل هذه الصور غير الطبيعية اخترعها الكهنة ليمثلوا بها الآلهة وصفاتها"

"ولكن لا مندوحة عن إساءة استعمالها والتفريط في اعتبارها وانسياق الشعب الى تأليهها وعليه يكون السواد الاعظم منكم عابدي اوثان"

"لا ريب في هذا لان التمييز بين الصورة والممثّل بها فوق طور الجهلة واذ يشغلون كل افكارهم بالمثال لا يعودون يقوون على ادراك ما هو وراءه وعلى هذا النمط ترى المصري منقاداً شيئاً فشيئاً الى الارتطام بحمأة عبادة الصور والتماثيل"

"أليس ابيس الثور المقدس في ممفيس ومنفيس في اون معدودين من الهين ؟"

ولذا ترى المصري منقاداً الى الارتطاع بحمأة العبادة

"انها مجرد اوسيرس فالثور اقوى حيوان في كل مصر ولذا هو رمز الى الاله لكنك ستفهم اكثر فاكثر هذه الامور بعدما تطيل الاقامة عندنا وسأوصي بك الكهنة والفلاسفة والحكماء لتنال منهم كل ما ترتاح الى الالمام به ويسرّني الآن اني علمتك المقالة الاولى في هذا الموضوع"

واذ ذاك نهضنا كلانا كأنه بعاطفة واحدة وخرجنا نمشي مستنشقين النسيم البليل الذي يعبث باغصان نخلةٍ امام الباب وعلى رغم شدّة الحرّ الملتظية نارهُ كان اولئك المُستعبدين الذين تكلمت عنهم سابقًا لا يزالون يعملون بمشقّة وكان على مقربة منا عشرون رجلاً منهم يعملون تحت نظارة وكيل بيده عصًا طويلة يضرب بها شيخًا ساقطًا الى الارض من جرّاء اصطكاك الحرّ وشدّة ثقل حمله فاخذتني في الحال الشفقة عليه وبادرة الغيظ من مسخّره وقلت :

"يا لشدّة شقاء هذا الشعب ومن ذا يستطيع ايها الامير ان يصبر على هذا العناء ؟"

"هولاء عبرانيون أوما سمعت بهم ؟ قد مضى عليهم الآن اجيال عديدة وهم يبنون مدننا واسوارنا واقنيتنا ويبلغ عددهم الملايين وهم عبيد الفراعنة بالوراثة"

"وما الباعث على اسرهم واستعبادهم ؟"

"اذا كنت تروم الوقوف على سبب وجودهم في بلادنا

فلسوف اقصُّ عليك ذلك في وقت آخر"

"نعم يهمني جداً الاطّلاع على تاريخهم لاني مندهش بلامحهم الفينيقية"

"نعم فانهم فينيقيو الاصل . ولكن ألا يزالون الى الآن يشابهون اهل وطنهم ؟"

"تمام المشابهة"

ثم شُغلنا عن هذا الحديث بتسريح جواد النظر في ما اشرفنا عليهِ من موقفنا من المناظر البديعة المختلفة التي ذكرتُ لكِ بعضها وسوف اشرح لكِ متى المعروف عندي عن باقيها

ابنكِ المطيع

سيسوستريس

الرسالة الرابعة

مدينة اون

والدتي الملكة العزيزة

لا ازال في مدينة الشمس او را كما يدعوها المصريون غالبًا والآن اكتب لكِ من قصر رعمسيس ليس من مسكني الاول الذي ذكرتهُ لكِ بل من نفس قصرهِ المقيم فيهِ لانهُ أنعمَ عليَّ ان اكون جليسهُ في قيامهِ وقعودهِ وشريكهُ في طعامهِ وشرابهِ ومن هذا القصر المزدان بالرياش والحافل ببواعث المسرَّة والانتعاش من موشياتٍ بالوان بديعة باهرة ومطرزاتٍ نفيسة فاخرة اكتب اليكِ عن هذه الارض التي هي حقًا في كل شيء غريبة نادرة

فبعد ما كتبتُ اليكِ رسالتي السابقة جاءني في اليوم التالي حاجبٌ سامي الرتبة من عند الملكة امنس ودفع اليَّ رسالةً

مختومة بخاتمها الملكيّ تدعوني بها الى المثول بين يديها

فخرجتُ لابسًا ما يليق بوليّ عهد صور ما عدا التاج الذهبي فاني اعتضتُ عنهُ بقبعتي المنسوجة على شكل خوذة من شذور ذهب صور المهداة اليّ منكِ ولبستُ جبتي الارجوانية التي طرّزتها الاميرة ثاموندا الجميلة وعوضًا عن سيفي اخذت بيدي صولجانًا لانهُ لا يُسمَح لاحد ان يقوم في حضرة الملكة مسلحًا وقد أُهدي اليّ هذا الصولجان من رعمسيس وعلى رأسهِ الذهبي مكتوب لقبهُ هكذا: "موسى رعمسيس ابن ابنة فرعون وامير را وممفيس وابن الاله نيلوس وقائد الجنود المقدسة" وعند باب قصري وجدت ثلاث مركبات الاولى والثانية منها تجرّان كلتاهما بجوادين ارقطين والثالثة يجرّها ثلاثة رؤوس بيض من جياد الخيل . اما نفاسة هذه المركبات وخيولها وعُدَدها فمما لا يحيط بهِ وصف ولا يقوى على حصرهِ كلام

وكانت هذه المركبات واحدة جاء بها حاجب الملكة والثانية كان فيها ناظر بيت الملكة والثالثة معدَّة لركوبي . وبجانبها كان لا اقلّ من ستين رجلاً من حرس الملكة المشاة مصطفّين للسلام عليّ عند صعودي الى مركبتي التي كان عند بابها ناظر بيت الملكة واقفًا ليساعدني على الركوب وليس من مقاعد في هذه المركبات لان المصريين يقفون في مركباتهم ولعلّ هذه العادة مأخوذة من الحاجة اليها في المركبات الحربية تأهبًا للقتال

ثم أهاب سائق مركبتي بافراسها فعدت تسابق الرياح وراء مشاةٍ مُحضرين امامها يخلون الطريق ووراءهما فرقة الحرس يجرون مسرعين وعلى جانبيها المركبتان الأخريان وكاتم اسراري سائرٌ بالقرب مني ممتطيًا صهوة جوادٍ عربيّ وباعثًا جميع المصريين على الإعجاب بمهارتهِ في الركوب

وبعد ما جرينا مسافة ميل دخلنا ساحة مربعة مساحتها الف قدم وفي وسطها بحيرة شائقة يحيط بها صفٌ من اشجار النخيل ووراءهُ صفٌ من اشجار الليمون غاصّة اغصانها بالأطيار المغرّدة باعذب الالحان وفي ظلالها مئات من الرجال والنساء والولدان وعلى البحيرة سفنٌ صغيرة معدّة للتنزُّه تمخر في عرضها جيئةً وذهابًا وحول هذه الساحة الانيقة كان ما يأتي — من الشمال رواق جميل ذو اعمدة بديعة النقش تتألّف منهُ مقدمة هيكل منفيس ثور أُون المقدس الذي على مدخلهِ قام عمودان ضخمان من نوع ابي الهول لكلٍ منهما رأس انسان والى الغرب فسحة في وسطها مسلّة توتمس العظيم والى الغرب هرم علوهُ مئتا قدم في مقدمتهِ عمودا ابي الهول لكلٍ منهما رأس امرأة. وعلى الجانب الرابع صرحٌ مشيّد ممتدٌ على عرض الساحة في مقدمتهِ عمودا ابي الهول لكلٍ منهما بدن اسد ورأس امرأة عليهِ تاجان وبين هذين العمودين المدخل الى هذا القصر العظيم. فنزلت عندهما من مركبتي ووقف الحرس مصطفين باسلحتهم وتقدم قائدهم الى

استقبالي فصعدت مصحوبًا بهِ وبناظر بيت الملكة الى المدخل المكتنف بتماثيل ملوك هذه الدولة والفراعنة الثيبيين واما الفراعنة الفينيقيون فغير معدودين الآن مع ملوك مصر ومن هذا المدخل جئنا الى دهليزٍ مزدان بنقوش بديعة ومذهباتٍ باهرة وصور جميلة تمثل مناظر تاريخية ومعارك بريّة ومواقع بحرية من جملتها صورة حادثة طرد ملوك الرعاة من ممفيس على اني لم أرَ في وجهي اموسيس واميونوفيس شيئًا من المشابهة لسليلها الامير رعمسيس فان هيئة وجههِ تختلف كل الاختلاف عن هيئة بطلي هذه الدولة المنسوب اليها . لان ملامحهُ اسمى شأنًا كأني بهِ سليلُ مَن هو ارقى حذقًا وذكاء من كل المصريين . لان اسمهُ على حداثتهِ مشهورٌ عند كل اهل الحكمة والمعرفة والاستقامة

ثم دخلنا دهليزًا ثانيًا رأيتهُ آيةً للناظرين بما فيهِ من ضروب الزخارف وانواع الزيَن التي لا تُبقي روحًا في الناظر اليها وحينئذٍ انقطع لحن السلام العسكري الذي عُزِف بهِ احتفاء بي عند اجتيازي الى الدهليز الاوَّل وعقبهُ توقيع الحان موسيقية مطربة من حيث اسمع ولا ارى وفيما انا عازم على الوقوف لتتبيع مسمعي بهذه الالحان العذبة تقدم نحوي شابٌ جميل الطلعة باهر المحيّا لابس الفخر الحلل حتى ترامى لي انهُ مسربلٌ بالذهب والارجوان وقال :

" ان جلالة الملكة تأمرني بأن اذهب بسموّ وليّ عهد صور

الى حضرتها"

فتبعته واذ قد انفتح امامه بابان مصراعا كلٍّ منهما من عاجٍ مرصَّعٍ بالزمرُّد ومنها اطللت مقبلاً على قاعة العرش المنبسطة في سعة الف قدم فوقفت في عتبة غرفةٍ محدقة بعمدٍ علوها تسعون قدمًا وامامها فرقة من الحرس بدروعٍ ذهبية وخوذٍ مغشاة بانسجة حريرية وفي الوسط صف تماثيل الآلهة ممتدًا الى مساحة ثماني مئة قدم في قاعة العرش وعلى جانبيهِ انتظم عقد القادة والضباط في عددٍ وملابس لا سبيل الى وصف نفاستها وفخامتها وكرامة معادنهـــا وما على الدروع والخوذ من الجواهر الباهرة النظر بتألقها وايماضها

فتقدمت مقودًا بذلك الشاب الجميل الذي سواد شعرهِ الطويل ونجلُ عينيهِ وشمم انفهِ كل هذه ذكَّرتني بملامح وتقاطيع الشعب العبراني . ولم يكن هذا الاستقبال الجليل بالامر السهل عليَّ فانهُ أخذني بحيرة ليست بقليلة لكنني أبديت عنهُ حزمي وتأهبت لاقتبال هذا الاحتفاء في اعظم بلاط على وجه الارض بما يليق بمقامي من الرصانة وثبات الجاش وكلما دنوت من العرش كان المنظر يزداد رهبةً وجلالاً وعظمةً ووقارًا حتى بلغت تمثالَي اوسيرس وايسس المنتهي بهما صف تماثيل الآلهة واذ ذاك رأيت امامي عرش مصر في وسط فسحة مساحتها نحو نصف فرسخ قائمًا على مرتفع من رخام مدبَّج باجمل الالوان علوهُ اثنتا عشرة قدمًا

وهو مربع الشكل وعلى كلٍّ من زواياهُ الاربع اسدٌ رابض وله رأس نسر ورأس تنين ورأس ثور ورأس انسان — امثلة اربع ممالك الهواء والبحر والارض والنفس . وهذه الحيوانات الاربعة موجهة انظارها نحو العرش وعلى رؤوسها تيجان ثيبة وممفيس ورا وبلاد الحبش وللعرش اربع مراقٍ من حجارة نفيسة مرصعة بجواهر كريمة ولكل مرقاة سبع درجاتٍ تمثل شهور النيل السبعة التي يصل بها ارض مصر

على انهُ يكاد يتعذَّر عليَّ وصف بهاء العرش او كرسي الملك المصنوع من انقى عاج على ابدع مثال والسرُّ في صناعتهِ انهُ غاية في البساطة خالٍ من الزخرفة التي ربما كانت تنقص شيئاً كثيراً من بهاء رونقهِ وهو في الهيئة اشبه شيء بركبة وهو مرتكز على اسدين من رخام فاخر يُصعَد من بينهما على ثلاث درجات الى مقعد الكرسي وهو مصنوع من لؤلؤة واحدة اهديها ملكة الهند الى امنوفيس العظيم ابي امنس وموطئ العرش حجر واحد من الجزع مذهب الحاشية وهو قائمٌ على قدميَّ وعلة كلتيهما ياقوتة كبيرة والسجادة التي امام العرش مصنوعة من ريش طائر الفردوس وريش اطيار أُخر هندية وعربية ذات الوان مختلفة جميلة وباقي الارض قدامهُ مفروشة بجلود أُسود وانمارٍ مطرَّزة بشذور الذهب وعلى جانبي العرش قائمٌ وزيرا الحرب الواحد لعساكر البرّ والآخر للبحر وهما في اثمن الحلل المرصعة بالجواهر

ووراء العرش بقرب مثالَي العدل والحق حرس الشرف المدعوّون "خدام العرش" الذين هم بنو الاشراف ومكانهم على الدوام في التشريفات بقرب شخص الملكة ولا يحصى ما في ايديهم من الخواتم المصوغة من اغلى المعادن

ولما دنوت من السبع درجات رأيت الامير رعمسيس نازلاً عليها لاستقبالي فحيَّاني بمزيد الاكرام امام كل مَن في البلاط قائلاً:

"بسرور لا مزيد عليهِ اقدّمك ايها الامير الخطير الى والدتي الملكة التي ترحب بوليّ عهد صور وابن خالتنا"

فانحنيت بمزيد التأدُّب واخذ رعمسيس بيدي وصعد بي حتى صرت على بُعد ثلاث خطواتٍ من موطئ العرش واذ ذاك قال:

"ايتها الوالدة والملكة اني اقدّم اليكِ سيسوستريس وليّ عهد صور"

وبعد ما انحنيت امامها ناولتها رسالتكِ الاصلية التي ارسلت لها صورتها مع كاتم اسراري كما اخبرتكِ سابقًا

وفيما هي تطالعها انتهزت فرصة التأمل فيها فوجدتها امرأة متحلاة بحلى المجد والجلال وهي شمطاء الشعر ومع ان عمرها ثلاث وخمسون سنة لايزال عليها لمحة من الحسن والجمال على ان ما فاتها من الجمال تعوّض بالجلال . وعيناها تشبهان عيون

وعلى رأسها تاج ثمين وممفيس اشارة الى سيادتها على مصر العليا والسفلى وفي عنقها قلادة من حجارة كريمة وعليها حلّة من الحرير الفارسي الابيض النقي ورداء اخضر مطرّز بالذهب تحيط به منطقة مرصّعة بماس

ولم تنهض لاستقبالي ولكن لما جثوت عند موطئ العرش مدّت يدها اليمنى اليّ فقبّلتها ووضعتها على رأسي . ثم اجلستني عن يسارها وجلس رعمسيس عن يمينها واخذت تطارحني الاسئلة معربة عن سرورها من وجودي في بلاطها — آملةً باني اطيب نفسًا في مصر فابقى عندها ضيفًا مدة طويلة — وسألتني عن سلامتكِ وطلبت مني ان أبلغكِ احترامها ومنيتها ان العلاقات الوديّة بين البلاطين تزداد التحامًا بزيارتي لمصر

وعلى كل هذه أجبتها موضحًا لها شكري وثنائي و بعد محادثات متنوعة اشترك فيها رعمسيس انتهت مدّة المقابلة اذ حان وقت استعراضها لجيوشها المركبية في ساحة القصر وهذا سارجئ الكلام عنه الى رسالةٍ تالية اما الآن فاني باقٍ ايها الوالدة والملكة المحبوبة

ابنكِ المطيع

سيموسترس

الرسالة الخامسة

مدينة الشمس

اي والدتي العزيزة وملكتي المحبوبة

في رسالتي السابقة وصفت لكِ بقدر استطاعتي كيفية نوالي شرف المثول في حضرة الملكة وعظمة قصرها ومجد بلاطها والآن اصف لكِ استعراض جيش المركبات الحديدية الذي حدث على اثر خروجي من لدن الملكة. خرجنا من قاعة العرش نازلين الى ساحة متناهية في السعة والفساحة تَسع مئة الف رجل والاروقة حواليها تسع ايضًا مثل هذا العدد من المتفرجين

اما الملكة فلم تنزل الى الساحة بل جلست بقرب تمثال اله الحرب على شيء اشبه بكرسيٍّ تحت مظلةٍ مرفوعة فوقها لتقيها حرَّ الشمس. اما رعمسيس فتركني بجانب والدته المحاطة بالحرس والسفراء والامراء والفلاسفة واخذ من احد الحجاب خوذةً من

ذهب وضعها فوق قبعتهِ الحريرية واستوى على مركبتهِ الحربية المعدَّة له فبدا لعيون الناظرين مظهر كمالهِ في كل شيءٍ سواءٌ كان قائدًا في مقدمة جيوش مصر او مستشارًا بجانب عرش والدهِ او جليسًا مع اشراف المملكة او فيلسوفًا بين حكماء الشعب وكابن كان انموذج الطاعة والاحترام البنويين لكل شبان المملكة وكرجل كان مثال العفة والادب وطهارة الذيل من جميع ادران الرذائل والمعايب وفي غاية الاهلية واللياقة لان يكون وارثًا عرش اعظم ممالك الارض

وكان في كل مركبةٍ جنديان فقط ولم يكن في المركبة التي ركبها رعمسيس سائق بل كان عنان جواديها ممسكين بحربة مرتكزة عموديًا في مقدَّمها . وهذه المركبة كانت مرصَّعة بالذهب والفضة وهي مفتوحة من جانبيها ومؤخَّرها واما اسفلها من ناحية المقدَّم فكان مقوَّسًا على شكل ترس يقي الراكب عند مسيس الحاجة وقد عُلِّقت به جعبة مزار يقهِ وسهامهِ وسائر اسلحتهِ

وما ابطأ بعد ان استوى في مركبتهِ ان ارخى لجواديهِ العنان وانزاح من امامها العبيد الذين كانوا آخذين بزماميها فانطلقا يجاريان البرق الى ان صارا في مقدمة كتيبة المركبات وهناك وقفا باشارة منهُ . واخذ جيش المركبات المؤلف من اربعة آلاف مركبة يتحرَّك متقدمًا ورعمسيس قائمٌ في طليعتهِ ثم اندفع ذلك الفيلق العظيم في عرض السهل الفسيح وانعطف مستديرًا واقبل

داوياً كهزيم الرعد مجتازًا مقابل الملكة فمادت الارض مرتجة من اصوات ثمانية آلاف عجلة (اذ لكل مركبة عجلتان او دولابان) ووقع حوافر ضعفيها من الخيول

اما بهاء هذا المشهد العظيم فما يقصر عنه اللسان ويعجز عن ايفائه حقه من الوصف ابلغ كتبة هذا الزمان . ولما انتهى الجيش من هذه الحركة ورعمسيس قائمٌ في وسطه يرقب اعماله وينتقد حركاته عاد كلٌ الى مركزه بغاية الخفة والانتظام . ثم ابتدأ ما يُعرَف بعرض انتقال الفرَق فانقسمت خمس مئة مركبة الى قسمين متساويين واصطفّا متقابلَين في طرفي الساحة ثم اندفعا هاجمين احدهما على الآخر في سرعة ازدادت شيئًا فشيئًا وشرعا في المجاولة والمجاوزة والانتقال على غاية الرشاقة والإحكام وعلى اثر هذه حدثت استعراضات أُخر متنوعة دامت ثلاث ساعات وانتهت باجتياز جميع الفرَق يتقدمها ضبّاطها وقوّادها من امام الامير رعمسيس سائرة مقابل الملكة لتأدية السلام والاحترام . ولما رجع الجميع الى مواقفهم هتفت الابواق تؤذن بانصرافهم فساروا بنظام عسكريٍ صفوفًا خمسين خمسين الى المعسكر

فرجعنا ادراجًا الى القصر وكان الوقت بعد الظهر يتقدمنا ناظر بيت الملكة ذاهبًا بنا نحو قاعة الطعام الملكية وعند الباب استقبلنا رئيس السقاة مع عددٍ من الحجّاب مصطفين لتحية الملكة وضيوفها عند اجتيازهم وكنا ما عدا جلالتها ووليّ عهدها ووليّ

عهدك : سفير الكلدان وسفير كدر لعومر الثالث وسفير اشور
ووليّ عهد ترشيش وامير سبا واميرَي باوان ونوبال وامير مزّة
وامير مديان وفضلاً عنهم كان ايضًا رجل عظيم وحكيم اعني بهِ
امير بلاد عوص القريبة من موطن الامير ابرام ما بين النهرين
بصحبة صديقان هما من اهل الفلسفة والشهرة وهما صوفر النعماتي
والامير اليفاز الحيماني . اما امير عوص هذا فقد جاء الى مصر
بموكب عظيم محفوفًا بالخدم والحشم لانهُ كثير الثروة جزيل الغنى
ولما سمع بحكمة امنس واقتدارها اتى من بلادهِ ليزور بلاطها وهو
ايضًا على جانب عظيم من الحكمة ومعبودهُ الاله الواحد كما كان
الملك ابرام قديمًا . ومرامهُ ان يضيف الى تهذيبهِ بحكمة الكلدان
والعرب معرفة حكمة المصريين

واذ كانت الملكة قد دخلت الى مخدعها محفوفة بخواتين
القصر واماء البلاط لتستعد للوليمة سرنا نحن الباقين يتقدمنا
رعمسيس وانا وراءهُ الى حيث وجدنا خدّامًا بادين بافخر الملابس
معدّين لنا ماء مطيبًا في اباريق ذهبية لغسل اصابعنا وخلع
نعالنا وغسل ارجلنا في مغاسل ذهبية مبتدئين من رعمسيس
منشفين بمناشف معطّرة من كتان نقيٍ وحواشيها مطرّزة بالذهب
حتى اذا فرغوا من ذلك قدموا لنا نعالاً من قرمز مطرّزة
بالازهار وعلى الاثر تقدّم الينا خدّام نوبيون وخلعوا عنا اردينا
والبسونا عوضًا عنها اردية الوليمة . وحينئذٍ دخلنا قاعة الاستراحة

الزاهية بافخر الرياش واثمن المفروشات وأُهدي لكلٍ منا زهرة حدقوقٍ من رئيس البستانيين ودخل على الاثر عدد ليس بقليل من القادة وضبّاط المركبات وغيرها من جيش مصر السفلى مدعوّين الى الوليمة

ولما انتظم عقد المدعوّين وغصّت تلك القاعة على رحبها بثات من اعيان المصريين وشرفائهم وحان وقت الوليمة . دخلت الملكة وبعدما حياها الجميع بما يليق من الاكرام والاجلال سارت مصحوبة برعمسيس تتقدّم الجميع الى قاعة الطعام وشرع الموسيقيون يشنّفون آذاننا بالحانهم الوطنية المطربة بوقعوها على دفوفٍ وصنوجٍ وقياثير واعواد وغير ذلك من الآلات التي اجهل اسماءها . واستمرّ العزف على هذه الآلات حتى انتظم جلوسنا كلٌ في المكان اللائق بمقامهِ ورتبتهِ فجلس رعمسيس عن يمين الملكة وانا عن يسارها وجلس بقرب الملكة اربعٌ من نساء الاشراف وكانت المائدة من فضّة صقليّة

ولما تمكنّا من الجلوس سكتت الآلات وابتدأ سبعة منشدين قاموا وراء الملكة يضربون على اعوادهم ويغنون نغمات شجيّة رخيمة الى الغاية وفي اثناء انشادهم جيء الينا بآنية خزفية صينية ملأى اطيابًا واخذ الخدّام يطيّبون بها رؤوسنا وعلى اثرهم دخلت من الجنان الملاصقة لقاعة الطعام فتيات حسان حاملات اطواقًا من الازهار التي اقتطفنها اذ ذاك وجعلنها على اكتافنا . ثم جيء

بالخمر في اقداحٍ مختلفة فكان قدح رعمسيس وقدحي من ذهب مرصَّع واقداح الاخرين من فضة او من حجر اليشم وبعدما شُرب نخب الملكة ووليّ العهد وباني الجلوس اقترح رعمسيس رئيس الوليمة ان اشربَ نخبكِ ايتها الوالدة العزيزة فأُجيب عليهِ من جميع الحاضرين وصرّح امير عوص على مسمع الجلوس بأنهُ وهو في بلادهِ سمع بخبر فضائلكِ ومجد ملككِ ولا حاجة الى وصف ما خامرني من الفرح والابتهاج عند سماعي هذه الشهادة السامية بحقكِ من رجل كهذا في حفلةٍ كهذه . وبعد انقضاء الوليمة صحبني رعمسيس الى الغرف التي أُعدَّت لي في القصر وفيها الآن اكتب اليكِ هذه الرسالة فاقبليها مشفوعة بدعاءٍ واحترام ومحبة

ابنكِ المطيع

سيسوسترس



الرسالة السادسة

مدينة اون   قصر الفراعنة

والدتي الملكة العزيزة

في هذا الصباح كنت عازمًا ان ابرح القصر واذهب الى المدينة متجولاً ماشيًا لكي اتفقد سكانها واطلع طلع احوالهم وهم في اعمالهم واشغالهم توصلاً الى الوقوف على جميع مصطلحاتهم وعوائدهم واذا برعمسيس جاء اليّ وبعد السلام والتحية قال :

"قد جئت اليك لآخذك معي الى مدينة رعمسيس التي بناها جدي امينوفيس مدينة مخازن لاني اروم ان ابني فيها قصرًا لخازن الملكة وفي عزمي اليوم ان اوافي رئيس البنائين الى هناك فهل تذهب معي ؟"

"بكل سرور"

"أتريد الوقوف معي في مركبتي أم تريد ان يُعدّ لك مركبة خاصة؟"

فاجبتهُ منفضلاً بالاحرى ان اركب معهُ لاتمكّن من ان اسألهُ عما يعرض لي على الطريق وفي الحال صعدنا الى المركبة وسارت بنا على جناح السرعة حتى بلغنا بوابة المدينة الجنوبية فرأيت على جانبيها حصونًا رفيعة علو كلٍ منها تسع وتسعون قدمًا تخفرها فرقة من جنود الحبشان المعهود اليهم خفارة جميع بوابات المدينة وذاك لشدّة امانتهم وكبر اجسامهم. ولما اجتزنا البوابة اوقف الامير رعمسيس المركبة قليلاً ليُريح الرجال الساعين معنا مشاة وكانوا اربعة عشر منهم ستة امام المركبة وستة وراءها واثنان على جانبي الجوادين ولما صرنا خارج المدينة سرنا في طريق تحدق بهِ الحدائق والرياض والقصور والحياض مسافة نصف ميل فقال لي رعمسيس:

"هنا يقيم الاشراف عند اشتداد حرّ الصيف. اما قصر والدي الصيفي فهو في جزيرة الروضة بين أون وممفيس ولسوف اذهب بك الى هنالك والى الاهرام"

ثم جئنا طريقًا رحبًا واجتزنا اطلال قصر اوسيرتاسن الاول معرّجين على حقول حنطة ممتدة على جانب النيل

وبعد ما سرنا مسافة نحو اربعة اميال اقبلنا على ارضٍ واسعة فيها الوف من الرجال ظهر لي انهم مشغولون بعمل اللبن

واذ كان طريقنا في وسطهم رأيت من النظر الى وجوه اولئك الفعلة انهم من ذلك الشعب الغريب – عبرانيون . وتذكرين يا والدتي العزيزة اني مرّةً سألت رعمسيس عن اصلهم وسبب اذلالهم واستعبادهم فقال انهُ سوف يجيبني على سؤالي هذا في فرصة اخرى ومن ذلك الوقت لم تسنح لي فرصة اعادة هذا السؤال عليهِ اذ كانت تعرض لي مسائل أُخر تحول دون تفرُّغي لهُ . على اني كنت بالرغم عني انساق الى ملاحظة هذا الشعب والتأمل في اعمالهِ الشاقة لانهُ وان لم يُرَ قط مختلطاً في الازقة والشوارع مع السكان (في ما عدا القصور حيث يقوم في الغالب كثيرون من شبان العبرانيين الحسان الصورة حشماً وخدماً) فحيث تُبنى الهياكل والاهرام والاسوار والمخازن ترين اقواماً كثيرين منهم شيوخاً وشباناً نساءً واولاداً كما رأيتهم الآن في طريقي فقلت للامير

"عفواً يا سموّ الامير إيذن لي في التأخر هنا قليلاً ريثما اتأمل قليلاً في هذا المشهد الغريب"

فأخذ بعنان الجوادين وانا شاخص في اولئك الفعلة المنتشرين في عرض مستوًى من الارض تبلغ مساحتهُ نصف فرسخ مربع وقال :

"هنا يُصنَع اللبن الذي تُبنى منهُ اسوار مدينة المخازن التي تشاهد احد ابراجها على بُعد ميلين. اما بناءُ المدينة ذاتها فسوف يستغرق زمان جيل واحد من هذا الشعب وعلى يسار البرج ترى

القصر العتيق لاننا لا نبني مدينة جديدة بل نرمّم القديمة ونزيد في اتقانها وتحصينها"

ومما شاهدتهُ من المركبة كان اني رأيت البعض من اولئك المنكودي الحظ منحنين الى الارض وبايديهم معاول خشبيّة يحفرون بها الطين والبعض يجمعونهُ كوماً والبعض قشّاً ليخلطوهُ بالطين والبعض يدوسونهُ بارجلهم لكي ينعم ويلين والبعض يسبكونهُ في قوالب والبعض يطبعونهُ بسمة الملكة والبعض يحملون الاقوياء بينهم احمالاً ثقيلة منهُ لكي ينشَر في الشمس وييبس وبعض العبيد حاملون في اعناقهم انياراً في اطرافها حبال يُشَدُّ بها اللبن ويحزَم وكثيرون من الفتيان يحملون على رؤُوسهم طيناً ويقدمونهُ الى العاملين بهِ وكان اللبن المقصود نشرهُ في الشمس لييبس يسلمونهُ الى نساء يُحصِينَ بالمئات وهؤُلاء يضعنهُ على الارض صفوفاً صفوفاً الواحدة بجانب الاخرى . وكانت اطراف هذه الارض مغشاة بالنساء والاولاد الجامعين قشّاً لجابلي الطين . ومع كل هذا لم يكن يُسمع صوتٌ لواحدٍ من اولئك الالوف العاملين بل كان يخترق حجاب ذلك السكوت السائد عليهم اصوات مسخّريهم والمقامين عليهم رؤَساء ونظّاراً يراقبونهم بعين ساهرة ويضطرّونهم على مداومة العمل حفاةً عراةً الاَّ ما يستر عورتهم وكل ذلك لشدَّة خوفهم من الضرب والجلد المعدّين لهم من اولئك القساة العادمي الشفقة والرحمة الذين متى ابصروا واحداً من

اولئك العاملين المساكين خارًّا تحت ثقل حملهِ يغادرونهُ في مكانهِ ليموت اعياء — وينقلون حملهُ الى كتف رجل آخر من مشاركيهِ في تحمُّل هذا العناء والشقاء . ولكثرة عددهم كان موت العشرين منهم يوميًّا امرًا لا يُعبأُ بهِ ولا يُكترَث لهُ لان كثرة عددهم راعت المصريين وحملتهم على السعي في كل ما من شأنهِ اضعافهم وتقليلهم على ان شقاءهم الحاضر ليس شيئًا مذكورًا في جنب ما عانوهُ سابقًا مدَّة سبعين سنة قبل جلوس هذه الملكة على العرش لانها خفَّفت كثيرًا من انتقامهم واصدرت اوامر عامَّة مشدَّدة تحظر على الوكلاء الاسراف في الضغط عليهم وابطلت معاقبة النساء العاملات بالضرب

على انهُ بالرغم عن كل هذا التساهل الذي حصل لهم لم يزل شقاؤُهم شقاء واذلالهم اذلالاً حتى انهُ لم يسعني الاَّ التأثر من جرَّاء تعاستهم والاسف على سوء حالهم حين رأيت على كثيرين منهم آثار الضرب والجلاد ظاهرة للعيان يرقُّ لهم فؤاد الصوان . وقد ساءني على الخصوص منظر النساء والفتيات اللواتي على رغم لفح الشمس لاجسادهنَّ وعبث التعب والشقاء باجسامهنَّ كانت بقية الحسن والجمال بادية الأثر ولا سيما في عيونهنَّ النجل وشعورهنَّ الحريرية الحالكة السواد . ورأيت في ايدي البعض منهنَّ خواتم واساور فضية او من معادن أُخر دلالةً على انهُ حتى العبودية لا تقدر ان تسلب النساء محبة الحلى والجواهر

وبعد ما اجتزنا مسافة ميل ونصف ميل في تلك البقعة اقبلنا عند منتهاها على بلدة حقيرة كبيرة ذات اكواخ من القصب مسقوفة بالقش فقال لي رعمسيس :

"هذه مساكن الفعلة الذين شاهدتهم". وكانت الشوارع والابواب غاصة بالاولاد والعجائز الموكّلات بهم في غياب والديهم وكان في كل كوخ نحو اثني عشر ولداً بعضهم في السادسة او الخامسة من العمر يلعبون بعمل اللبن وبينهم من يمثلون النظّار والوكلاء حاملين بايديهم السياط دلالةً على المصريين الذين علموا القساوة والإذلال لاولاد مسخّريهم . وفي هذه الاكواخ يسكن اربعون الف عبراني يعملون اللبن او ينقلونه الى رعمسيس او يبنونه بالسياع او الطين على الاسوار

وطعام هؤلاء التعاسى الثوم والكرّاث او السمك وشرابهم ماء النيل الكدر غير مرشّح ولا مصفّى من اكداره بواسطة معجون اللوز وحجرٍ ذي مسامٍ — حسب الطريقة المشهورة في مصر . وعلى تخوم هذه المساكن مدافن بدون اضرحة او حجارة . ومن هناك اشرفنا على سهل ريّان اخضر ممتدّ الى مدينة مخازن الملك وكان هذا المرج قبلاً جنة هرمس او يوسف ذلك الامير الشهير الذي منذ نحو مئة وثلاثين سنة أنقذ سكان مصر من الموت جوعاً مدّةً سبع سنين . هذا الامير يوسف دُعي ايضاً هرمس مع انهُ لم يكتب كل الكتب المنسوبة الى هرمس الذي نعرفهُ في فينيقية .

فسألت رعمسيس ونحن نجتاز اطلال قصر في وسط البستان :

" أكان يوسف هذا مصريًّا ؟ "

" لا بل كان عبرانيًّا مقرّبًا جدًّا عند فرعون الفينيقي الذي شرع في بناء قصور مدينة المخازن هذه "

" عبرانيًّا . من هذا الشعب الذي شاهدته يذوق صاب الشقاء في عمل اللبن الشاق في حمارّة القيظ ؟ "

" منهُ ذاتهُ "

" ان جوابك ذكّرني يا ذا السموّ بوعدك لي بأن تقصّ عليّ تاريخ هذا الشعب الشهير الذي ملامحهُ السامية تنبئ بشرف اصلهِ ورفعة شأن جنسهِ "

" سأنجز وعدي يا عزيزي سيسوستريس حالما نبلغ اطلال تلك البئر وأرى رئيس البنائين ورجالهُ الذين هم في انتظاري "

وبعد ما اجتزنا عددًا كثيرًا من الاعمدة الساقطة التي كانت سابقًا في حمامات قصر هذا الامير العبراني العظيم الذي مُجِد في عهد هذه الدولة المصرية فضلهُ وبرّهُ ونُسي اسمهُ وذكرهُ بلغنا المكان المعيَّن فقال لي رعمسيس :

" هذه البئر الخربة كانت مبنية على شكل مربع الزوايا والاضلاع من حجر وكانت تدعى ' عين الغرباء ' " . ومع كونها الآن خربة لا تزال تنبع بماءٍ صافٍ زلال كما في الايام القدم وكان البنّاؤون جالسين عندها ينتظرون الامير في ظلال ثلاث

نخلات

وفيما كان الامير مشغولاً بالمحادثة معهم في شأن الامور المختصة بالبناء نزلت الى العين لانقع ظمإِي بمائها الزلال البارد فرأيت شيخًا وقور المنظر جليل الهيئة عاطفًا على شابٍّ مجروح في صدغهِ يغسل جرحهُ ومن هيئتهما تبيّن لي انهما عبرانيان وبينما انا واقفٌ اتأمل في هذا المنظر المؤثّر جاء احد نظّار العمل اي المسخّرين المصريين وابتدر ذلك الشيخ بضربات متعددة من عصاهُ التي بيدهِ آمرًا اياهُ ان ينهض ويذهب الى عملهِ . اما الشيخ فلم يبالِ بتلك الضربات بل ظلّ عاطفًا والدموع تنهلّ من اجفانهِ على ذلك الشاب المخيّم الموت عليهِ بظلالهِ يغسل جراحهُ وينظفها من الدماء السائلة منها . فقلت مسرعًا للمصري :

" كُفَّ عن ضربهِ انظر انهُ شيخٌ بالٍ . وهو يعتني بهذا الجريح المسكين "

فنظر اليّ المصري شذرًا كأني بهِ يروم تأديبي على فضولي وتحرُّشي لكنهُ اذ رأى من منظري اني ذو مقام ومكانة ونظر الامير من خلال الحائط انحنى امامي وقال :

" لم انظرك يا مولاي والاّ كنت اخرجت هذا الشيخ الشائب اللحية خارجًا وضربتهُ "

" ولكن لماذا تضربهُ ؟ "

" لان حملهُ ينتظرهُ على الطريق حيث القاهُ حينما صرع

رفيقي في الوكالة هذا الشاب الى الارض لانهٔ وقف ينظر الى المركبة"

"ايَّة علاقة بينهما ؟"

"ان هذا الشاب اصغر بني هذا الشيخ الاحمق الذي مع شدَّة ضعفهِ وعدم اقتدارهِ على حمل المعيَّن لهُ من اللبن يحاول ان يضيف اليهِ قسمًا من حمل هذا الغلام . تعال ايها الشيخ . دع الغلام وشأْنهُ وهلمَّ الى شغلك"

فرفع اليَّ ذلك الشيخ العبراني وجهًا مغشيًّا بسُحب القنوط واليأْس مستغيثًا على حين لم يرجُ من الاستغاثة فائدة لكنهُ انقاد الى ذلك بذاهب الأمل وانقطاع الرجاء

فقلت للمصري :

"اتركهما وانا المسؤول عنهما"

"لكني تحت سلطة كبير الوكلاء الذي يحاسبني على كل ما ينقص من عمل اللبن ويُعدمني اجرتي"

"ما هي اجرتك في اليوم ؟"

"ربع سكارابيوس"

وهي ادنى النقود الدارجة وقد تكون من حجر او من نحاس او رصاص او خشب أما ما كان ارفع قيمةً منها فهو من خواتم الفضة والشبهان والذهب . وكثيرًا ما تجزأُ السكارابيوس الى ارباع في كل منهـا غير وغيف بقيمة التِفيز الفينيقي . فاعطيتهُ

سكاريوساً من نحاس وقلت له :

"خذ هذا واذهب فان هذين العبرانيين لم يعودا قادرين على الشغل في هذا اليوم"

وعلى الفور أخذها ومضى باسماً فنظر الي الشيخ العبراني منذهلاً ثم عطف على يدي وشرع يقبّلها اما انا فبعد ما تبسّمت في وجههِ انحنيت واسندت رأس الشاب على ركبتي مساعداً اياهُ في معالجة إفاقتهِ من غشيانهِ حتى استعاد رشدهُ واسترجع وعيهُ .

وفي رسالتي التالية أُكمل ما بقي من الكلام في هذا الموضوع

ابنكِ المحب

سيموسترس

الرسالة السابعة

مدينة اون

والدتي الملكة العزيزة

اتماماً لما وعدت به من تتمة حديثي مع ذلك الشيخ العبراني الذي لقيته عند "عين الغرباء" بقرب مدينة المخازن رعمسيس اقول

بعد ما افاق الشاب ظلّ برهةً شاخصاً فيَّ بعين الخوف والحيرة فقال له الشيخ :

"لا تخف يا اسرائيل ان مولاي هذا صالحٌ ومحسنٌ"

على ان الشابّ ظلّ مضطرباً ولو ساعدته قوته على الهرب لفرّ في الحال فقلت له :

"اني لست وكيلك فلا تخف مني"

فسكن روعهُ واطمأنت نفسهُ واشرق محياهُ بنور الابتسام فسألت الشيخ: "ما اسمك ؟"

"ابن اسحق يا مولاي"

"أمستعبدٌ انت ؟"

"نعم انا واولادي كما كان آبائي"

"ماذا ساقك انت وشعبك الى هذه العبودية ؟"

"ان هذا له تاريخٌ محزنٌ يا مولاي . أوغريبٌ انت عن مصر حتى تجهل قصة العبرانيين ؟"

"اني فينيقيٌ وقد جئت الى هنا منذ بضعة اسابيع"

"فينيقيٌ . من عبر ادوم بل من عبر فلسطين . ان آباءنا جاءوا من فلسطين"

"مَن كان آباؤك ؟"

"ابرهيم واسحق ويعقوب"

"سمعت عن اولئك الامراء الثلاثة"

"نعم ايها المولى الفينيقيُّ . كانوا أُمراء وحكاماً في بلادهم ولكن انظر اولادهم اليوم في العبودية . وأيَّة عبودية . ان الموت يا مولاي خيرٌ منها . فالى متى نبقى رازحين تحت اثقالها . وحتى متى يحمل صغارنا نير مصر"

واذ ذاك جاءني احد خدَّام الامير يدعوني اليهِ فاعطيت ذلك الشيخ وابنهُ قليلاً من الدراهم وسرت عنهما وهما يزودانني

الثناء والدعاء ولما علوت المركبة الى جانب وليّ العهد قال لي انهُ سوف يدور بي حول اسوار المدينة الجديدة ويريني مكان القصر الجديد الشارع في بنائهِ

واذ لاح لي عن بُعد بناء ضخمٌ كبير الحجم سألت عنهُ رعمسيس فقال انهُ احد الاثني عشر مخزنًا التي بناها الامير يوسف منذ مئة وثمانين سنة في مقاطعات مصر الاثنتي عشرة ولا يزال الى الآن مُستخدَمًا في ما بُنيَ لهُ . ولما دخلنا بوابة المدينة رأيتها عطلاً من الزخرفة والزينة وعلمت من رعمسيس انها أُعدمت كل زخارفها تعمدًا بايعاز الملك اميونوفيس الذي بذل غاية جهدهِ حين استوى على عرش مصر في إزالة كل آثار دولة الرعاة من الارض

وفيما نحن خارجون من هيكل صغير لايس محكم الهندسة متقن البناء باهر الزخرفة والزينة رأيت فتاةً عبرانية هاربةً من وجه احد وكلاء العمل وكنت قد شاهدتها عند دخولنا الى الهيكل مع كثيرات من اترابها بعضهنَّ حاملات قثّا والبعض كرّاثًا وثومًا آخذاتٍ اياها طعامًا للعملة الذين لم يكن مأذونًا لهم ان يذهبوا الى اكواخهم الا بعد غروب الشمس واولئك النساء اللواتي لم يعملنَ باللبن كنَّ يُعدِدنَ الطعام للباقين وكنتُ ساعة دخولي الى الهيكل قد لاحظت ان هذه الفتاة كانت حاملةً حملاً ثقيلاً من الثوم والكرّاث على رأسها ومع ذلك باذلة ما هو فوق طورها

من المساعدة لامرأة سائرة بجانبها منحنية تحت ثقل حملها والآن رأيتها هاربةً وحين أبصرَت الامير رعمسيس تقدمت وانطرحت عند قدميهِ صارخةً :

" رحماك يا مولاي — رحماك ايها الاله القدير العظيم — خلّصني "

فسألها :

" ماذا تريدين ولماذا هربتِ من عند ناظركِ ؟ "

" لانهُ عندما رآني ألقيتُ حملي لأُعين والدتي المشرفة على الموت اوسعني ضربًا لاني لم اقوَ على المسير بكلا الحملين وكنت امتثل امرهُ يا مولاي لو استطعت "

" ارجعي الى عملكِ ايتهـا الفتاة فلن تُعاقبي على معروفٍ اصطنعتهِ مع والدتكِ والآلهة تنهانا عن قطع العلاقات البنوية حتى فيما بين عبيدنا "

وقد نطق بهذه الجملة الاخيرة كأنهُ يخاطب بها نفسهُ لا شخصًا آخر ثم استأنف الكلام مخاطبًا الوكيل الذي حين شاهد الفتاة لائذةً بوليّ العهد وقف متوقعًا ارجاعها اليهِ :

" ما هذا الذي اسمعهُ عنك ؟ هل ضربت هذه الفتاة العبرانية ؟ "

فاجابهُ ذاك عابسًا ذليلاً :

" انها فتاة عنيدة متمرّدة و— "

"أو تجهل القانون الذي ينهى عن ضرب نساء الشعب ؟ بادر اليّ بعصا وكالتك وسلمها الكبير خدمي ولا تَعُد بعد الآن وكيلاً فيُعرَف لدى الجميع ان مشيئة الملكة تخفيف اثقال النساء ومعاملتهنّ بالرفق والتساهل وعدم معاقبتهنّ بالجلد والضرب"

فتقدم ذاك الرجل مطرقًا صاغرًا وامتثل إشارة رعمسيس بتسليم عصاهُ الى كبير الخدم وهو قائد الاثني عشر رجلاً الساعين مع مركبة وليّ العهد واذ ذاك امرهُ رعمسيس قائلاً :

"اذهب الآن وأتني بحملها الى هنا لأرى ما تسوم الضعاف حملهُ من الاثقال حتى تكون احمالهنّ من الآن وصاعدًا بالنسبة الى مقدرتهنّ"

فانصاع راجعًا مسافة مئات من الاذرع حتى بلغ حيث كان حمل الفتاة ساقطًا وبعد جهدٍ بليغ تمكّن من رفعهِ وحملهِ الى امام رعمسيس الذي تقدّم الى تلك السلّة الكبيرة الملآنة كرّاثًا وجرّب ان يرفعها ومع كونهِ شديد القوة وجد شيئًا من الصعوبة في محاولة ذلك . فوضع السلّة على الارض وشرر الغيظ يتطاير من عينيهِ وقال يخاطب ذلك الوكيل الغشوم :

"أرأيت الآن اي حمل ثقيل تكلّف هذه الفتاة حملهُ على رأسها ؟ تبًّا لك من بربريٍّ قاسٍ . اربطوهُ وخذوهُ الى السجن"



"اني لست وحدي يا مولاي –"

"وهو شرٌّ وأردأُ . وان كان هذا الظلم متسع النطاق فقد حان وقت ملافاتهِ وتنفيذ قانون المملكة . خذوهُ من هنا"

وانقضَّ عليهِ اثنان من الخدَّام وشدَّا وثاقهُ واخذاهُ الى قلعة المدينة . ثم التفت الامير الى تلك الفتاة التي كانت لاتزال خارَّة عند قدميهِ وخاطبها بلسان الرفق والحنان قائلاً :

"اذهبي الآن بسلام راجعةً الى والدتكِ ولا تخشي بعد الآن عصا المسخّرين . واوّل يدٍ تُلقى على فتاة او امرأة عبرانية قطعًا تُقطَع بالسيف"

فقبّلت الفتـاة نعليهِ واسرعت راجعةً الى حيث غادرت والدتها وعينا رعمسيس تشيعانها مغرورقتين بالدموع . فلا بدَّ من انهُ حين يخلف والدهُ في الجلوس على العرش يرفق بحال اولئك التعاسى ويخفف نير عبوديتهم ان لم يمنحهم عتقًا واطلاقًا

ثم طلب مني الامير ان امشي معهُ قليلاً ريثما يأتي ناظر مخازن المملكة الذي يرغب في مقابلتهِ فلبيت طلبهُ وسرنا حتى جئنا دكّةً اشرفنا منها على الحقول والجنان وحدائق النخيل والليمون ممتدَّة في ارض هي اخصب ارض رأيتها في مصر وبعد سكوتٍ استحوذ علينا برهةً اخترق الامير حجابهُ والتفت

نحوي قائلاً :

" هذه مسئلة مصر العويصة التي يتطلب حلّها حكمةً اسمى من حكمة الانسان "

فسألتهُ على الفور مُدركاً معنى كلامهِ :

" تعني بهذا عبودية الشعب العبراني ؟ "

فاجابني متنهداً مقطباً :

" نعم وقد وعدتك بأن اطلعك على تاريخهم فارعني سمعك فأُحدثك بما اعرفهُ عنهم نقلاً عن المأثور في التقارير المحفوظة عند الكهنة في مكتبة هيكل الشمس " :

" منذ نحو اربع مئة سنة جاء فلسطين أميرٌ من بين النهرين بمواشٍ وقطعان كثيرة واذ تحالف مع ملكيصادق ملك ساليم عاشا كلاهما احدهما قريباً من الآخر بمحبة وسلام — لان هذا الامير الاشوري او الكلداني لم يكن فقط حكيماً ومستقيماً بل كانت الآلهة معهُ وقد باركتهُ وانجحت كل اعمالهِ "

فقلت :

" ان ملكيصادق هذا كان ايضاً واجداً نعمة في عيني الهِهِ ولا تزال فضائلهُ الى الآن مأثورة . وبلسان الحمد مذكورة "

فاجابني رعمسيس :

" نعم ولم يخسهُ التقليد حقهُ اذ لا يزال معتبراً كالهٍ نزل الى الارض ليعلّم الملوك كيف يحكمون ويفيدون الجنس البشري .

وكان الامير الاشوري معهُ على جانبٍ عظيم من الصداقة . واذ حدث جوع في الارض حيث كان يسكن نزل الى مصر بعد تغلب جيوش فينيقية وفلسطين على مملكتنا وفتحهم اون ومنفيس واخضاعهم مصر السفلى وتأسيسهم دولة غريبة تُعرَف باسم الهيكسوس او الرعاة . اما ملوك مصر الاصليون فاخلوا مصر السفلى للغزاة الفاتحين وانكفأوا بعساكرهم الى ثيبة مكتفين بالحكم على نصف المملكة واقام الفاتحون عرشهم في ممفيس

" وفي ايام مُلك بنون اوَّل فرعون فينيقيّ بعد موت الفاتح نزل ابرام الى مصر واذ كان هذا الملك يعرفهُ وهو بعد فتىً في فلسطين اكرم وفادة هذا الامير المقتدر والشجاع الذي اشتهر ببسالتهِ في غلبتهِ على كدرلعومر ملك عيلام العظيم . فاقام ابرام مدة طويلة في مصر كان فيها مظهر انعامات الملك واحساناتهِ لكنهُ اذ رأى ان الملك هائم بزوجتهِ الاميرة سارة برح مصر ورجع الى بلادهِ

" اخيرًا مات الامير ابرام عن ابنٍ خلفهُ ليس في الغنى فقط بل في الحكمة ايضًا . ثم مات هذا ايضًا عن ابنٍ هو الامير يعقوب الذي كان لهُ اثنا عشر ابنًا — كلهم امراء ذوو بأس واقتدار — لكنهم كانوا عائشين عيشة بداوة كالقبائل الرُّحل . واذ كان احد بنيهِ أحبَّ اليهِ اكثر من باقي اخوتهِ حسدوهُ وامسكوهُ وباعوهُ الى قافلة اسمعيليين كانوا نازلين الى مصر وهؤلاء باعوهُ

الى فوطيفار رئيس حرس الملك الذي من نسلهِ فوطيفار مسبس قائد فرساننا الذي رأيتهُ في وليمة المملكة . واذ وجد الامير نعمةً في عيني سيدهِ فوطيفار اقامهُ على كل بيتهِ . وفي ذلك الوقت حلم فرعون ابوفيس حلمًا ازعجهُ كثيرًا ولم يقدر حكماء مصر وعرّافوها وكهنتها على تفسيرهِ واذ كان يوسف الذي اشتهر بتقواهُ واستقامتهِ وتعبدهِ لالهِ قد سُجن بداعي تهمةٍ كاذبةٍ وُجّهت اليهِ من قبل امرأة سيدهِ مدّعيةً انهُ حاوَل ان يحبها وفسّر وهو في السجن حلمي مسجونَين أُطلق احدهما واذ سمع بخبر حلم فرعون ارسل اليهِ ينبئهُ بصحة تفسير يوسف لحلمهِ وحلم رفيقهِ وعلى الفور استدعى فرعون يوسف الذي فسّر لهُ حلمهُ الذي انبأ بسبع سني شبع يعقبها سبع سني جوع شديد لم يكن مثلهُ في كل الارض . واذ ذاك رقّاهُ فرعون وجعلهُ ثانيةً في المملكة وسلّطهُ على كل ارض مصر . وفي مدة سبع سني الجوع التي عقبت سبع سني الشبع نزل ابوهُ واخوتهُ الى مصر فعالهم ولم يذكر قط إساءة اخوتهِ اليهِ والتمس من فرعون الذي لم يخيّب لهُ مطلبًا ان يسكن ابوهُ واخوتهُ في الارض . وفي هذه الجهة من الارض سكن ذلك الامير . وهذا الهيكل مبنيٌّ على آثار مسكنهِ ومن هنا الى حيث يمكنك النظر تمتد الحقول الخصيبة والسهول الريّانة التي كانت لهُ ولبنيهِ ولنسلهم . هنا بنوا مدنًا هدمت اكثرها الدولة التالية دولةَ الرعاة ومحت كل آثار قوّة يوسف وسلطانهِ الذي

دام اكثر من ستين سنة وهنا سكنوا نحو سبعين سنة في راحةٍ وسلام يزدادون عددًا وغنًى ونفوذًا وأزمّة الاحكام بايديهم وهم ناعمو البال بظلال الاحترام والاكرام وليس من الملك فقط بل من كل المصريين"

وهنا اراني يا والدتي مضطرًا ان اختم هذه الرسالة وموعدنا في التتمة الرسالة الآتية ولا ازال لكِ ابنًا محبًا ومطيعًا

سيموستريس

الرسالة الثامنة

قصر امنس

والدتي العزيزة

في هذه الرسالة آتي على نهاية الموضوع الذي شغل كل رسالتي السابقة آملاً ان تكوني مرتاحة الى الامام به نظيري لحين وصول ناظر مخازن المملكة ممتطيًا جوادًا كريمًا ومصحوبًا بالسعاة بلغة الامير على الفور الاوامر التي جاء لاجلها وصرفة باشارة من يدي والتفت اليّ اذ كنتُ منصرف الانتباه الى مراقبة سرب نسور محلّقة في الجوّ فوق رأسي على شكل دائرة وهي تخطر خطرانًا بطيئًا ثم انقضّت على شيء غير بعيدٍ عني في الطريق المؤدي الى مدينة مخازن أخرى تدعى فيثوم بناها العبرانيون لامينوفيس الاول منذ اكثر من ستين سنة وقال :

"سأعود الآن يا عزيزي سبسوسترس الى تتمة حديثي عن

العبرانيين بالايجاز لانهُ قد حان وقت رجوعنا الى اون .
فالامير يوسف كما قلت الك أسكن اباهُ واخوتهُ في كل هذا
السهل الجميل الذي هو غرَّةٌ في جبين ارض مصر وبعد سبعين
سنة مات الشيخ يعقوب فعمل لهُ ابنهُ يوسف كبير وزراء المملكة
مناحة عظيمة كمناحة الملوك ويقال انها كانت اعظم من مناحة
اوسرتاسن الأوَّل . وبايعاز فرعون اتماماً لمشيئة وزيره يوسف
في دفن ابيهِ في فلسطين صعد معهُ جيش عظيم — مركباتٍ وفرساناً
ومشاةً . ثم رجع يوسف الى مصر وحكم احدى وستين سنة حتى
اصبح هو وابوفيس متقدمَين في الايام . اخيراً مات يوسف وحُنِّط
ووُضع جسدهُ في الهرم الثاني الذي تراهُ على يمين ممفيس على انهُ
غير باقٍ هناك الى الآن لان العبرانيين بعد طرد دولة الفينيقيين
نقلوهُ سراً ووضعوهُ في مكانٍ غير معروف الاَّ عندهم . ويقال
فيما بينهم ان عظام يوسف سوف تحيا فيخرج بهم من مصر الى
بلاد جديدة بعيدة

وعند موت الامير يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين بات
الملك ابوفيس الذي كان ايضاً طاعناً في السن غير قادرٍ على
إدارة شؤون الاحكام والأخذ بازمَّة سياسة المملكة التي عهد بها
مدَّة ستين سنة الكبير وزرائهِ يوسف . اذ كان يجهل حقيقة احوالها
ولا يدرك كيفية الذود عن ذمارها . ولما كان ملك ثيبة في مصر
العليا منتهزاً فرصة مثل هذه وقد سنحت لهُ الآن لم يبطئ في اغتنامها

واسترجاع عرش الفراعنة الوطنيين وطرد الدولة المغتصبة اي دولة الرعاة ولا اخالك يا عزيزي سيسوسترس تجهل ما في من هذه الحوادث — كيف زحف فرعون اموسيس بخيله ورجله على الهيكسوس وطاردهم من مدينة الى اخرى حتى تبعهم الى العربية واضطرهم على الاقامة في فلسطين وجعل سالم عاصمةً لهم — هذا ما جاء في احد تقاليدهم"

فقلت له:

"لم يبقوا فيها الا وقتًا قصيرًا لان ملك عيلام اغتصبهم اياها فتحصّنوا في عسقلان ولا يزالون الى الآن شعبًا قويًا يُعرَف باسم الفلسطينيين"

وبعد طرد أُولئك الغزاة من مصر السفلى اصبح تاجا ثيبة وممفيس واحدًا لبسهُ اميونوفيس بن اموسيس وهذه الدولة الثيبية هي المالكة الآن على كل مصر تمثلها والدتي ابنة اميونوفيس الذي مات وهي بعد فتاة صغيرة وقد ملكت باسم "ابنة فرعون" لان الشعب دعاها هكذا حين تبوأت العرش وقبضت على صولجانَي ممفيس وثيبة"

ثم قال لي باسمًا:

"ولكن أراني في هذا اقصُّ عليك تاريخ دولتي لا تاريخ العبرانيين"

فاجبته:

لكنني ارتاح يا عزيزي رعمسيس الى الوقوف على هذا كما على ذاك لانهما متعلقان احدهما بالآخر تعلقاً طبيعياً

فاستطرد كلامهُ :

" وبعد ما هزم اموسيس المدعو 'المعيد الغزاة' وأبقى ابنتنا الجميلة ابنة آخر ملوك الرعاة زوجة له وجَّه التفاتهُ نحو صفٍ آخر من الغرباء الذين امتلكوا اخصب بقعةٍ في ارض مصر فشخص بموكبهِ الى مدينة سكُوت في مقاطعة جاسان التي بنوها منذ السبعين سنة في عهد سيادة يوسف وكانت بدون اسوار وغير محصنة وليس من هيكل فيها — لان السواد الاعظم من العبرانيين ولا سيما الخاصة يعبدون الهاً واحداً روحياً "

فقلت له :

" وعندي ان هذه العبادة افضل واسمى كل انواع العبادات "

فسألني شاخصاً نحوي بوجهٍ مشرقٍ بنور مسرةٍ واندهاش :

" ماذا تقول ؟ حقاً انك في مقدمة اسمى بني البشر وهذا نفس ما يخطر في ذهني ويتردد في فكري وكنت اظن اني منفردٌ في هذا الرأي . ولسوف نتحدث ملياً في هذا الموضوع الخطير واري ان صوتاً لم أقوَ على إسكاتهِ يصرخ فيَّ منذ كنتُ بعدُ طفلاً ويشتدُّ كلما مارست الطقوس المقدسة على مذابح آلهتنا قائلاً :—

" 'يا ابنَ الارض ليس الاَّ الهٌ واحدٌ غير منظور ازليٌّ غير مخلوقٍ لا يعطي مجدهُ لآخر فاعبدهُ بالروح والفهم' "

فقلتُ :

" وهذا هو السرُّ الذي يعلّمهُ كهنة الكلدان الذين كان ملكيصادق اول رئيس كهنة بينهم وقد قرأت اسفارهم المقدسة في دمشق "

" لم أرَ قط هذه الاسفار ومع ذاك هذا الصوت يرنُّ في مسمعي حيثما ذهبتُ . فكل شيء مظلمٌ وغامضٌ لدينا نحن البشر فنعلّق ايماننا على تقليد وآمالنا على خرافةٍ ونظنُّ ذواتنا مساوين بل اسمى من الآلهة التي نعبدها ولا نرتاح الى الطقوس التي تفرضها دياناتنا فليتني اقوى على اختراق حجاب السموات التي فوقنا لأجد الله واعرف ما هي الحياة ومن اين جئنا والى اين نذهب "

" متى عبرنا بحيرة الموتى يُعلن لنا كل شيء اذ يعطي اوسيرس كل نفس مفتاح الماضي والمستقبل "

" هكذا يقول الكهنة وهكذا نؤمن . ولنعد الى الكلام عن العبرانيين . فاذا بلغ الملك الجديد ان اكثر من مئتي الف من الغرباء يسكنون هنا دعا شيوخ الشعب وعرفاءهم اليهِ ولما سألهم واطّلع على تاريخهم وعلم ان الامير يوسف الذائع الصيت والمستطير الشهرة كان احد اجدادهم استعر غيظهُ عليهم في الحال ورأى انهم اصدقاء وحلفاء لدولة الرعاة المخلوعة المطرودة لانهم من سلالة ذلك الوزير العبرانيّ العظيم وفي الاصل من نفس بلاد الفراعنة الفينيقيين . واذ رأى انهم ليسوا شعبًا محاربًا ولا يمكن انتظامهم

جيشًا فعوضًا عن ان يشهر عليهم حربًا ويطردهم من مصر كما فعل بملوك الفينيقيين عزم على إذلالهم بالاستعباد كأنهم أسرى أُخذوا في الحرب وحينئذٍ سجن رؤساءهم وجعل كل شعبهم تحت نير العبودية واقام عليهم رؤساء تسخير واضطرَّهم ان يشتغلوا في بناء المدن والهياكل والقصور والترع التي هدمها الفينيقيون او اخربوها . وهذا كان يا عزيزي سيسوسترس مبدأ اخضاع العبرانيين الى عمل مستمرّ في نفس الارض التي كان فيها واحدٌ منهم ثاني الملك في السلطة والسيادة واذ كان من سياسة فرعون اميونوفيس انهم لا يتعاطون اعمالاً تسبّب تهذيب عقولهم وتوسيع مداركهم أُجبلوا على عمل اللبن البسيط الشاق والمعدود ادنى الاعمال واحقرها . وقد مضى عليهم الآن وهم في هذه الحال نحو مئة وخمس او ست سنين منذ موت الامير يوسف وقد بلغوا هذه الحالة الحاضرة تدريجًا فان اثقالهم في عهد اميونوفيس كانت فوق حدّ الإطاقة وعلى رغم كل هذا كانوا يكثرون ويزدادون عددًا حتى اوجس الملك خوفًا على عرشهِ من جرّاء شدَّة تكاثرهم ونموّهم . والى الآن لا يزال يقوم بينهم رجال يحاولون كسر نير العبودية وفكّ قيود الاسترقاق لانهم شعب انوف قويّ شديد العزم يأْبى الاقامة على الذلّ وهم يدينون لحمل النير ببغض وكراهة لمستعبدهم لا بخضوع وصغر نفس وارادة كالليبيين والنوبيين وليس عجيبًا ان الملك خاف من كثرة عددهم حين رآهم بلغوا اكثر من مليون

على حين لا يزيد كل سكان المملكة في العليا والسفلى عن الستة ملايين والثيبيون انفسهم شعبة الخاصّ لا يوازون العبرانيين عددًا. ولهذا خاف جانبهم اذ كان على اهبة الحرب مع ملوك الفينوقيين فخشي انهم ينضمون اليهم ويظافرونهم عليه ولهذا ضاعف اثقالهم واسرف في اذلالهم ولكن كلما زاد تسخيرهم زادوا عددًا وتكاثرًا ولا تظن اني اقصّ عليك هذه الحوادث كمن يرتاح الى الاستعباد والقساوة ويصوّب استخدامها ولو عند ذلك الملك الذي انا سليله . اذ لا ريب في انه كان من الخطإ العظيم في بادئ الامر ان يُسام هذا الشعب استعبادًا ولّد اخيرًا هذه النتائج المكدرة المحزنة واذ كان امينوفيس قد ارتكب هذا الخطأ من البداءة اضطرّ في ما بعد ذلك ان يعمل على إذلالهم بحكم الضرورة لكي يتلافى خطر زيادة عددهم وتكاثرهم ولم يرسلهم مع جيشهِ الى ساحة القتال مخافة انهم ينضمون الى اعدائهِ ولكي يحول دون تكاثرهم اصدر امرًا مشدّدًا الى القابلات المصريات باعدام كل ذكر يولد للعبرانيين"

فصرختُ :

"يا لهُ من امرٍ مخيف"

"نعم الى الغاية ولكن امينوفيس اذ قد امسك الاسد بفكيهِ اصبح مضطرًا اما ان يقتل الاسد او ان يدع الاسد يقتلهُ وكان من نتيجة هذا الامر ان كثيرين هلكوا ويقال ان النيل حينئذٍ طما

بجثث الاطفال العبرانيين الطافية على وجهه"
" بالهول "
" لكن الملك ارتأى ذلك وحكم باهلاك اولئك الاطفال الابرياء حرصاً على سلامة الممالك في المستقبل . وقد مُثِّلت بداعي هذا الامر فواجع عديدة محزنة . وكثيرات من الامهات العبرانيات جاهدنَ في سبيل انقاذ اطفالهنَّ ومتنَ وهنَّ ضاماتٌ اولادهنَّ الى صدورهنَّ . وكثيرون من الآباء وقفوا في وجوه العساكر عند محاولتهم الدخول الى بيوتهم لاخراج الاطفال وماتوا على الاعتاب في سبيل بنيهم . وقد قُصَّت عليَّ هذه الفواجع ممن شاهدوها بعيونهم اذ كنتُ طفلاً في ذلك الحين ولكن الذين نظروا هذه الاهوال لا يزال اكثرهم احياء الى الآن . على ان امونوفيس لم ينجح حتى في هذا الامر ايضاً لان القابلات المصريات كنَّ ارقَّ من الملك قلباً واحنَّ عاطفةً فاستحيينَ كثيرين من الاطفال الذكور اجابةً لتوسلات امهاتهم . والوف من الامهات ولدنَ سرًّا وحمل الآباء او الاصدقاء اطفالهنَّ الى مخابئ أُعدَّت لاجل ذلك . وهكذا نجا الوفٌ منهم كما شاهدت بعينك اليوم جماهيرهم الكثيرة الغاصَّة بهم هذه البقاع حيث يُعمل اللبن . وبعد اصدار هذا الامر بسنتين مات امونوفيس وبعد ان كانت ايام مناحته (وهي سبعون يوماً) جلست على العرش ابنته امنس التي كان قد تزوَّجها قبل ذلك امير ثيبة ابن اخي امونوفيس لكنها ترمَّلت قرب زمان وفاة

ايها وتبوأت العرش ومع الصولجان تُرك لها ايضًا السلسلة الحديدية المتقيّد بها الشعب العبراني . واذ كانت اذ ذاك حديثة السن وغير متخرجة في ادارة الاحكام وبدون مستشارين لم تهتدِ الى وجه حلّ هذه المعضلة فرأت انها كامرأة لا تستطيع استنباط سياسة جديدة لكنها عملاً بمقتضيات الانسانية أنفذت سلطتها على الفور بالغاء امر اعدام الاطفال وافعمت قلوب كل اولئك المنكودي الحظ شكرًا لها . على ان جميع وزرائها وقادتها وأمرائها ونوابها اخطروها بصوتٍ واحدٍ بخطر هذا التساهل منذرين بأنهُ سوف يؤول الى خراب المملكة وسقوط العرش لكنهُ لا يزال باقيًا مثبّت الاركان . موطّد البنيان . بل في مدّة ملكها هذه الاربع وثلاثين سنة بلغت مصر ما لم تبلغهُ قط قبل الآن من النجاح والقوّة والسلطان . وجيوشها وجميع قواتها الحربية شاهدة على هذا"

فقلت لهُ :

"لكنّ المسئلة لا تزال تزداد إشكالاً وغموضًا اذ لا يزال العبرانيون في الارض وهم يزدادون عددًا وقد اصبحوا الآن مخوفين اكثر مما كانوا في عهد امينوفيس"

"ذلك لا ريب فيهِ وكثيرًا ما كانوا موضوع حديثي ومدار كلامي مع والدتي فبالنظر الى الرقّة المعهودة بجنسها اللطيف تودّ الافراج عنهم وكشف ظلاماتهم لكنها من وجهٍ آخر تراها مضطرّة ان تبقيهم

تحت نير الاذلال ليؤمن الخطر منهم على المملكة . على انها لطفت استعبادهم بابطال ضرب النساء منهم ومع ذلك ليس امرًا سهلاً ان يُلاحظ بالتدقيق كل ما يتعلق بهذا الشأن بين الوف من الوكلاء ومئات الوف من الفعلة ولكن حين يبلغنا شيء من الظلم المخالف الاوامر نعاقب مرتكبهُ اشدّ العقاب . وحقًّا يا عزيزي سيسوسترس ان مسئلة العبرانيين عبء ثقيل على عاتق والدتي الملكة ولو استطاعت اطلاقهم من الغد بدون تعريض شعبها وعرشها للخطر لفعلت . ولكن سياسة المملكة تتطلّب ابقاءهم في هذه الحالة من العمل والانشغال لئلاّ تحملهم البطالة على الذهاب الى حيث ارادوا والائتمار علينا . وكثيرًا ما وجدنا بينهم رسلاً من ملك الحبشة عدوّنا القديم الذي تكاد تكون الحروب بيننا وبينهُ مستمرّة . وفضلاً عن ذلك انك تجد بينهم رجالاً اشدّاء ذوي بأس ودراية وكيوسف اهل مشورة واصحاب آراء صائبة . وغير خافٍ عليك انهُ يُخشى من وجود رجال كهؤلاء بينهم ومن الضرورة ان يُعاملوا بما تدعوهُ ضيقًا وظلمًا تحوّطًا واستدراكًا"

"على ان احوالهم لا تزال يا عزيزي رعمسيس ثقيلة"

"نعم لكنّ احوالهم تحسّنت كثيرًا عن ذي قبل . فانهم يُعطَون الآن اعمالاً خاصّة تطابق قدرتهم ولا تزيد عن استطاعتهم فان اكملوها فلهم ان يقضوا باقي يومهم في ما أرادوا"

"وان ابطأوا ؟"

"يجب ان يُعدُّوا مقدار اللبن المعيَّن لهم ان لم يَحُل دون ذلك حائل المرض ولا يسوغ ضربهم ان لم ينزعوا الى التمرُّد والعناد وفي كل سنة تجول بينهم الملكة مرَّة وتتفقّد احوالهم وللعبراني حقٌّ ان يرفع الى حاكم المقاطعة دعواهُ على مسخِّرهِ اذا اساء معاملته"

"ان هولاء العبرانيين سحابة كثيفة منتشرة في سماء مصر فارى منهم خطرًا عليها"

وفيما نحن آخذان باطراف هذا الحديث خطر للامير رعمسيس اننا تأخرنا عن العود الى المدينة فقال لي:

هلمَّ نذهب الى المركبة مسرعين في الرجوع لانني وعدت والدتي بأن اكون عندها الظهر وقد فات الوقت المعيَّن"

وما ابطأنا ان علونا المركبة وسارت بنا تنهب الارض والسعاة يمعنون في الركض ونحن نجتاز في طريقنا الاماكن التي مررنا بها عند مجيئنا حتى بلغنا منتهى السهل الفسيح حيث يعمل العبرانيون اللبن واذ لاح لي على الارض بعيدًا امامي شيءٌ اسود وما تقدمنا قليلاً حتى تبينتهُ سربًا من الجوارح محوّمةً على شيء فانزاحت من طريقنا قليلاً . وبعد دقيقة اجفل الجوادان من جثة انسان كانت تلك الجوارح محوّمة عليها لالتهامها . ومن طول لحية ذلك الانسان وسواد شعرهِ وخشونة ملبسهِ ووجود حمل اللبن بجانبهِ عرف مَن هو . فقد كان عبرانيًا وقد أعيا من ثقل

حملهِ وخرَّ تحتهُ ميتاً

ولم التفت الى رعمسيس لاني علمتُ انهُ رأى وشعر نفس شعوري . لكنهُ اوقف المركبة وأمر اثنين من السعاة ان يتخلَّفا عنَّا لاجل دفن الجسد

ولما استأنفنا المسير قال لي :

"ما الحيلة يا عزيزي سيسوسترس ؟ فالانسانية والتقوى وكل عواطف النفس تدعو الى الرفق بهذا الشعب المنكود الطالع . وبعض الاوقات أرى انهُ خيرٌ لنا ولهم ان نخرجهم دفعةً واحدة من مصر الى العربية ونُتبِعَهم جيشاً كبيراً يُشيّعهم الى خارج تخومنا وننشئ مراكز عسكرية من عصيون جابر على البحر الاحمر الى البحر العظيم . ولكن كيف نقوى على إعداد ما يتطلبهُ هذا الجيش العظيم من الذخائر والمهمات ومن اين لنا زادٌ لشعبٍ يبلغ مليونين ونصف مليون ؟ فلا بدَّ ان يموت منهم الوف في البرية جوعاً وعطشاً . وهذا يكون شراً من ذلك الامر الذي اصدرهُ اميونوفيس . ولو كنت فرعون مصر في الوقت الحاضر لاعطيت نصف مملكتي للحكماء الذين يستطيعون ان يشيروا عليَّ بطريقة تعتق مصر من العبرانيين بدون اهلاكهم او تعريضهم للموت في البرّيَّة"

ومن هذا يتضح لكِ يا والدتي العزيزة شدَّة حنو رعمسيس وان تبعة الاساءة الى العبرانيين ليست عليهِ ولا على والدتهِ

ولا ريب في ان اولئك العبرانيين ان ظلّوا يزدادون ويتكاثرون كما هم الآن فبعد جيل يفوقون المصريين عدداً ويعوزهم فقط قائد عظيم نظير جدّهم الامير ابرام فيقبضون على صولجان الملك ويقيمون في مصر دولة رعاةٍ ثانية — عبرانية فينيقية

ابنكِ المطيع

سيسوستريس

الرسالة التاسعة

جزيرة الروضة . النيل

والدتي الملكة المحبوبة

لا بدّ انكِ من مطالعة رسائلي الماضية تكونين قد ارتأيتِ شيئاً في شأن رقّ العبرانيين الذي هو عندي غاية في الاهمية لانني في هذا الشعب المستعبَد أرى أمةً فينيقية أُنيخَ عليها بكلاكل الضيق الشديد وصارت الى شفاء حال ما عليه مزيد ولهذا تريني آسفاً على اذلالهم وامتهانهم . رائياً لتعاستهم وهوانهم . أَ ولم يتك ذلك الامير الفلسطيني ابرام بعدوّنا في هاتيك الايام . كدر لعومر ملك عيبال وعيلام ؟ أَ ولم يكن ايضاً ابرام صديقاً حميماً لنيثور موّسس او معيد عرش صور ؟ فحين اذكر حقائق تاريخ ذلك العصر الغابر . وقدرة وحكمة الامير يوسف الذي لم يكن لهُ في السيادة من

مناظر. آسف اشد الأسف على شقاء نسلها الحاضر . ولقد طارحتُ الملكة الحديث في هذا الموضوع فوجدتها مستعدة ومريدة ان تمنحهم العتق وتضع حدًّا لهذا الرق . بشرط انهُ لا يعبث بصالح المملكة ولا يعرّضها للهلكة . ومما قالته لي في هذا الصدد :

" مما لا يختلف فيهِ اثنان . ان رقّهم شرٌّ ورائيٌّ من سالف الزمان . وقد تُرِك لي من ابي مع التاج والصولجان . ولست ادري كيف اتمكّن من استئصالهِ . واقوى على اقتلاع جرثومة وبالهِ مع المحافظة على تاجي الذي يترتّب عليَّ ان اصونهُ جهدي . لكي اتركهُ لرعمسيس من بعدي "

فهذه يا والدتي حالة عبودية العبرانيين الراهنة . في ارض الفراعنة . اما نهايتها سواء كانت باقدام رعمسيس حين يتبوَّأ العرش او باجتهادهم ونهوضهم او بتوسّط الآلهة فتلك مسئلة عويصة لا يزال حلُّها مطويًّا في احشاء المستقبل

وليس كل العبرانيين مسخَّرين في عمل اللبن لانهُ جرت العادة في السنين الاخيرة عند اشراف مصر وحكامها وكبار قوادها ان يتخذوا لهم من احداث اولئك الاسرى فتيانًا وفتياتٍ خدمًا وحشمًا لان جمال منظرهم ونشاطهم وامانتهم اهّلتهم على الخصوص لهذه الخدمة المنزلية . وهكذا رأيت منهم ذكورًا واناثًا قائمين بخدمة السادة والسيدات في اسمى القصور واشرف المنازل وهم ملحوظون بعين الرعاية والاعزاز ومائلون جزاء اخلاصهم

واجتهادهم باثمن الحلى وافخر الحلل . وفي هذه الايام الاخيرة اصبحوا ميالين كل الميل الى التباهي بهذه الجواهر فيلبسون منها شيئًا كثيرًا . والمصريون انفسهم يرتاحون الى هذه الزينة فيلبسون الحلى في اصابعهم وآذانهم وأجيادهم وكل سيدٍ مصريٍ يلبس خاتمًا كبيرًا عليه رسم شارته واهداء الواحد منهم هذا الخاتم الى صديقٍ له دليلٌ على اعظم احترام واسمى اكرام . وقد نحني الامير رعمسيس بخاتم لاجل هذه الدلالة عينها ولسوف اختم به هذه الرسالة لتنظري رسمها في التمثول الميرو غلبفي

وعند الملكة ثلاثة فتيان من العبرانيين عليهم مخايل الإمارة وملامح النبالة ولهم عيونٌ سودٌ نجلٌ ووجوهٌ دامرة بالبشارة والجمال . ولكن على محيا كلٍّ منهم لائحة تأمُّل عميق او كآبة بعيدة الغرر ولعلَّ هذا نتيجة الاستعباد الوراثي وقد لاحظت نفس هذا الشيء في محيا الامير رعمسيس الذي هيئة وجهه تشابه الهيئة الفينيقيَّة او العبرانيَّة اشدَّ المشابهة . ولقد رأيت شيخًا عبرانيًا وهو بستانيٌّ في جنة النصر يشبه وليَّ العهد كل الشبه حتى اني استطيع ان ارى به كيف يكون منظر رعمسيس حين يبلغ الثمانين سنة . على ان هذه الملامح الفينيقية انتقلت الى رعمسيس بالوراثة من جدته ايفنا ابنة آخر فرعون فينيقيّ . لكنهُ من العجيب كيف لم ينتقل اليه شيءٌ من الهيئة المصرية أَوليس عجيبًا ان الدم الفينيقي المنتقل اليه من الملكة ايفنا بقي على تفاوته الى الجيل الثالث غير ممتزج بالدم

الثيبي من جدّهِ اميونوفيس ؟

ولا اعلم اذا كان الامير رعمسيس عالمًا بشدّة مشابهته لهذا الشعب المذلّ ولا يليق بي ان أُحادثهُ بهذا الشأن لانهُ مع شدّة رفقهِ بهم واجتهادهِ في تحسين احوالهم يأنف ان يكون مشابهًا لغرباء ممتهنين عندهُ ومعدودين عبيدًا

اما ابو الامير رعمسيس فكان كما قلت سابقًا نائب الملك او وليّ عهد مصر العليا ومن سلالة ملوك ثيبة . وبعد ما تزوّج ابنة فرعون باشهر قليلة خرج على الحبشة وقُتل في ساحة القتال. وبعد ذلك بقليل وُلد رعمسيس فهو والحالة هذه وارث تاج ثيبة الفضي من وجهين ولو اراد حين يبلغ الثلاثين من عمرهِ (وهو سنّ الرشد عند المصريين) ان يترك والدتهُ لكانت قد ارسلتهُ محفوفًا بموكب فاخر الى مصر العليا وجعلتهُ وليّ عهد او نائب ثيبة كما كان ابوهُ قبلهُ لكنهُ آثر ان يبقى عند والدتهِ التي يحبها محبتي لتلك ابنها الوالدة العزيزة . واذ ذاك انابت الملكة امنس ابنَ اخٍ لزوجها المتوفَّى وهو الامير مريس وجعلتهُ نائب عرش النيل الاعلى

ومع هذا الامير مريس كان رعمسيس عازمًا ان يتناول الفجوري في القصر يوم خرجنا الى مدينة المخازن وعند وقت الطعام تعرفت بهِ فاذا هو من عمر رعمسيس لكنهُ مصريّ تمامًا في الهيئة والطبع او خلقًا وخُلقًا

فهو نحيف الجسم منخفض الجبهة اعوج الأنف وانخفاض ذقنهِ دليلٌ على قلة حزمهِ ولم أُسرَّ بمنظر عينيهِ النوبيتّين المنحرفتين وهو بادي الشكاسة ومع انهُ يكثر الاسئلـة على غيرهِ لا يجيب سؤال احدٍ وكان لابساً لباس امير النيل لان الملكة جملتهُ قائداً عاماً لعمارتها العظيمة الراسية قرب ممفيس معدَّةً لاخضاع الحبشة وقد جاء منذ بضعة ايام ليركب فيها لطيّتهِ . اما بسالة هذا الرجل فمشكوك فيها لكنهُ مشهور بالقساوة وادمان الخمر ومنعكف سرّاً على ارتكاب الرذائل والخلاعات وكثير التظاهر بالتقوى والتعبُّد للآلهة . وامس احرق بيديهِ البخور في ممفيس لايس واليوم يجد لمنفيس ثور اون المقدس

وفيما نحن جالسون على الطعام كانت محادثتهُ لي اكثر منها لرعمسيس فأطرأ فينيقية واطنب بعظمة مُلكِكِ وغنى تجارة جزيرة صور واوضح ما نحن والمصريون عليهِ من التقارب في المعبودات وان كلتا المملكتين في الوقت الحاضر تسوسها ملكتان وحضَّ على وجوب التحالف وتوثيق عرى الالفة الى غير ذلك من المجاملات ثم شرب نخب فينيقية ومصر وملكتيها وقد اكثر من رشف الكؤوس حتى عبثت بهِ سورة المدام وخرجت بهِ عن حدود الرزانة والتحفظ في الكلام . حتى انهُ قال لرعمسيس :

"بعد ما تنطلق الملكة الى ظلال مملكة اوسيريس نقتسم انت وانا مملكة مصر بيننا فاكتفي انا بالعليا واحمي تخومك من

تلك الجهة لان لبس تاجين معاً فوق طور الرأس وان كنت انت لابساً تاجاً كبيراً على كتفيك "

فاجابهُ رعمسيس ناظراً اليهِ شزراً :

" لا تنسَ ايها الامير مريس انك في قصر والدتي "

قال هذا ونهض خارجاً الى الرواق الذي يشرف على الجنان فتبعتهُ على الأثر وبعد سكوت يسير قال لي :

" لو تحقق هذا الرجل يا عزيزي سيموستريس نجاحهُ في الاثمار على كل عرش مصر وكلا تاجيها لفعل بدون تردُّدٍ "

فقلت :

" انهُ ذو عينٍ شريرة "

" وقلبٍ شرير ايضاً ولكن يجب الاحتراز من كل ما يثير فيهِ ثائرة الغيظ لان اقتدارهُ يماثل شرَّهُ في القوَّة وعما قليل يصعد الى مصر العليا ولا بدَّ انهُ يجد في حربهِ مع الحبشة ما يلهيهِ عن هذه المطامع الشريرة "

" ومتى جلستَ (بعد زمان طويل) على العرش فماذا تصنع بهِ ؟ هل تسمح لرجل كهذا ان يتقلَّد نيابة النيل الأعلى ؟ "

" حينئذٍ البس كلا التاجين "

وفيما نحن في هذا الحديث جاء خادمٌ عبرانيٌّ وقال :

" ان جلالة الملكة مريضة وتروم ان سموَّ مولاي الامير رعمسيس يذهب اليها "

فصرخ وقد غشيتهُ صفرة الموت :

" والدتي مريضة عنوًا يا عزيزي سبسوسترس يجب ان اتركك واذهب اليها " وعلى الفور اسرع ذاهبًا الى مخدعها

وكانت الملكة قد برحت المائدة قبل محادثة الامير مريس لي معتذرة عن انصرافها بداعي توعُكٍ ألمّ بها لانها كانت قد قضت ذاك اليوم ساعةً تُصدِرُ فيها الايضاحات والتفاصيل لرئيس البنّائين في شأْن بناء عمودها او مسلّتها خارج بوابة هيكل الشمس وبعد ذهاب رعمسيس بقليل شاهدتُ الامير مريس محمولاً الى مركبتهِ على اكتاف خدامهِ وهو عادم الرشد من شدّة السكر

ولم يكن مرض الملكة ذا بال لانها في اليوم التالي جاءت الى القاعة لكنها صفراء الى الغاية وقد نصح لها أطباء البلاط بالذهاب الى قصرها في جزيرة الروضة على النيل تغييرًا للهواء وقد رافقها رعمسيس الى هناك ومن عنوان رسالتي ترين اني انا ايضًا متشرفٌ بالاقامة معها هناك . ولا تزال صحتها متقلبة لكنها استفادت قليلاً بهذا الانتقال ورعمسيس دائبٌ على الاعتناء بها ولا يفارقها الاّ قليلاً اجابةً لداعي مهام كثيرة ضرورية ولا سيما التأهبات لمحاربة الحبش لانهُ قائد الجيش العام

ومقابل القصر الذي منهُ اكتب اليكِ الآن تجدين السهل بين النهر والاهرام مظللاً بجيش عظيم حُشِد هناك في ثلاثة ايام

تأهبا للزحف جنوبا ووجه النيل مغطى الى مساحة نصف فرسخ بسفن حربية يفوق عددها الالف وكلها راسية على اهبة السفر فيه صاعدا

وبعد ما كتبت الجملة الاخيرة من هذه الرسالة شاهدت استعراضا حربيا بحريا تحت قيادة امير البحر (او النيل) مريس على مرأى جلالة الملكة وحاشيتها . وقد جرى على أسلوب يحيّر الافكار ويدهش الابصار

وحقا لقد شاقني الى الغاية بل راعني جدا منظر مئات من تلك السفن منقضّة صفوفا بعضها على بعض وجنودها الصناديد الابطال . بادون لعين الناظر بابدع نظام على احسن منوال . ويظهرون من الحركات الحربية فنونا نادرة المثال . اما عجيج المياه وضجيج العساكر واصوات المجاذيف واساليب الهجوم والدفاع وغير ذلك مما بدا للانظار وأتى على الاسماع فوصفه فوق طاقة البراع

ابنكِ المحب المطيع

سيسوسترس

الرسالة العاشرة

قصر جزيرة الروضة

والدتي العزيزة

بسرور لا مزيد عليهِ اكتب اليكِ بخبرِ تمثُّل جلالة الملكة الى العافية ونوالها الشفاء التام . وتنفُّس الامير رعمسيس من كرب القلق والاهتمام . وعودهِ الى سابق عهدهِ من البشاشة والابتسام . وقد قال لي في صباح هذا اليوم ونحن راجعان في بارجتهِ من زيارة الاهرام ومدينة المدافن الواقعة بين ممفيس وهضاب ليبية :

" لو قُضي على والدتي العزيزة المحبوبة لاستحكم فيَّ القنوط واليأس . وغادرني انعس البشر واشقى الناس . واعرابًا عن شكري سأُقدّم في صباح الغد في هيكل اوسيرس تقادم الحمد لاله الصحة والحياة اينما وُجد اقنومهُ المطلق غير المحدود "

" فاذًا لا تقدمها لاوسيرس نفسهِ ؟ "

"لقد اطلعتك طلع افكاري في شأن اسرار ايماني وصرّحتُ لك اني انظر من خلال كل المقِلات المادّية الى ما هو وراءها — الى حيث مبعث الحياة السامي غير المحدود — خالق العوالم وجميع ما فيها وضابطها ومدبرها . فمنذ طفولتي لم اتشرّب خفيئة عبادتنا ولا بلغت لبابها نظير والدتي . لان في داخلي شيئًا يُعلن لي اننا مؤلّفون من كائنين — من نفسٍ داخل جسدٍ . وهذه النفس يجب ان يكون لها نفسٌ تخالقها ولهذا أومن بمن هو ينبوع النفوس بكائنٍ ازليٍ ابديّ عقليٍ غير مدركٍ بالحواس وهو علّة كل الاشياء واله كل الآلهة ومنه ارواح الآلهة ونفوس الناس"

"فاذًا انت تؤمن ان الله ذهنٌ او عقلٌ مُدركٌ ذاته وان خلقة الانسان ليس الأ مبتدأ سلسلة غير محدودة من إدراكات تنسو غير المقاومة"

"لا اقول غير المقاومة بل الطوعيّة لانه اذ رأى ذاته موجودًا بعثها على التكاثر اولاً لاجل مجدهِ ومسرّتهِ وثانيًا لاجل سعادة ذريّة عقلهِ"

"فاذًا نحن اي نفوسنا ذريّته ؟"

"بدون ريب ان صحّت مبادئي"

"هل تؤمن بوجود الآلهة الصغرى ؟"

"أ تعني بهذا كائنات اسمى رتبة من الانسان خُلقت وأُعطيت من لدن خالقها الذي تكلمنا عنه شيئًا من قوّتهِ وسيادتهِ على

الانسان والطبيعة ؟ فهذا في الاصل هو المعتقد المصريّ بالآلهة

"لكنّ المعتقد الفينيقيّ ليس هكذا"

"ما هو تقليدكم يا عزيزي سيسوستريس ؟ فقد طالعت بعض اسفاركم المقدسة ومنها اظن اننا اقتبسنا تقاليدنا عن ابيس والمريخ وهرقل وفولكان والزهرة . وكثير من دياناتنا وعلومنا مقتبسٌ من الفينيقيين"

"لكنّ الآخذ اصبح اعظم من المُعطي وليس من ريب في انكم اخذتم عنا مخترع حروف الهجاء التي يستخدمها تلامذتكم اليوم وان كان الكهنة كما علمت لا يجيزون ذلك لانهم يعتبرونهُ اقتحامًا على العلامات الهيروغليفية المقدسة وقد شاهدت كثيرًا من اسفار البردي مكتوبةً بالحرف الفينيقيّ"

"لانهُ ليس تصويريًا وهذا لا يجيزهُ الكهنة المولعون بالرسوم والألوان لكنهُ سيعمُّ استعمالهُ رويدًا رويدًا في الاسفار والتقارير ويبقى الهيروغليف شائعًا في الرسم على العُمُد والتماثيل والاضرحة . ولكن هل لك ان تفيدني شيئًا يا عزيزي سيسوستريس عن تقليدكم ؟"

"ليس بخافٍ عليك ان فينيقية قامت في مقدّمة الأمم الأُوَل بعد ما أُرسل تيفون طوفان المياه على الارض لاهلاك اوسيرس . واظنكم انتم المصريين تعتقدون بطغيان طوفان عامّ اغرق الارض ؟"

"ان هذا التقليد راهن الاساس . فنحن نعتقد بقيام أمم
قديرة في ما مضى من الزمان قبل تاريخ كل الممالك ولاجل
شرورهم ارسل عليهم خالق الناس بحرًا خضمًا مجهولاً فاغرق العالم
في لججهِ . وان مينس نجيَّة الآلهة هو وكل اهل بيتهِ في سفينةٍ مخرت
بهم الى جبال بادية العرب حيث خرجوا الى البرّ تقودهم حمامة
وذبحوا للآلهة . وبعد نزول مينس من الجبال أسَّس مصر ومن
مصر تفرّق الناس الى كل العالم"

"وعلى هذا المثال يتمشَّى تقليدنا ولكن عوضًا عن ان الجبل
كان في بادية العرب يذكر ان سفينتهم سارت الى جبال لبنان في
فينيقية بقيادة غراب لا حمامة وان اسمهُ عُمون او هُمون وان اوَّل
مدينة بناها صيداء والثانية جزيرة صور"

"لاريب في انهُ كان من غرض آبائنا الاولين ان يخصُّوا
شرف الاقدمية على كل العالم ببلادهم . وهُمون معروف في تقليدنا
لكنهُ مدعوٌّ فيهِ ابنَ مينس ومذكورٌ عنهُ انهُ اذ تمرَّد عاصيًا على ابيهِ
طردهُ الى افريقيا حيث عمَّر لبيبة وانشأ كالهِ هيكل أُمون القديم
ومنهُ نشأ النوبيون والحبشان"

"فاذًا ليس هذا أُمون المذكور في تقليدنا لان أُمُّوننا دُعي
هرقل واوَّل هيكل بُني لهُ على الارض في جزيرة صور الصغرية
القديمة . وبعدهُ صار بيلوس البطل الالهيّ الحربيّ — مؤسّس بابل
— وليّ صور وحاميها . ثم بُني هيكل آخر لنمرود الذي اجتاح

كل الوحوش الضاربة التي غشيت سهول فينيقية قديمًا وصار حامي الرعاة والفلاحين . فهذا منشأ آلهتنا اذ كانوا أناسًا وتألهوا على حين لبس المتكم سوى صفات او قوّاتٍ سموية مخلوقة اسمى من الناس او صور تمثّل اللاهوت الروحي غير المدرك بالحواس. فبعلبك كانت مدينةً بنيت لبعل او لبيلوس الذي هو نظير اوسيرس عندكم مثال الشمس .وفي فينيقية ندعوهُ "سيّد الشمس" و "اله الشمس" ونقدم لهُ الاكرام الالهي بالذبائح والسكائب ونقادم البخور . وهذا يذكرني بما اكتشفتهُ موخرًا في اون من ان معنى را وأون الحقيقي ليس "مدينة الشمس" بل "سيّد مدينة الشمس" اي مدينة اوسيرس الذي هو سيّد الشمس وهذا المعنى يزيل في الحال ما توهمتهُ سابقًا من انك انت والملكة وكل اهل البلاط تعبدون الشمس نظير الفرس والبرثيين وبعد اذ اتضحت لي هذه الحقيقة بواسطة رئيس كهنة اون تيقنت انهُ مهما يكن من الإشكال العابث بديانة عامة الشعب الذين قلما ينظرون الى ما وراء الرمز او المثال فلاهوت الحكماء والخاصّة براء من التخرّصات والاوهام. وخالص من شوائب عبادة الاوثان والاصنام"

"يسرّني جدًا تنصُّلك بهذا التنصُّل عنّا وتبرئة ساحتنا من تهم عبادة الاوثان . فنحن لسنا اصناميين كالفرس والبرابرة وكتبنا المقدسة تعلّمنا لاهوتًا عقليًا روحيًا ولكن كما قلت لك قبلاً غير المنظور محجوب عن الشعب بصُوَرٍ منظورة بها يقدّمهُ او يمثّلهُ لهم

الكهنة وبينما نحن نعبد اله القوّة والقدرة بايس يعبدون هم الثور نفسهُ وفيما نحن نعبد بصورة هورس ذلك الذي هو علّة خير البشر يعبدون هم تمثال البرفير ويسجدون لصورة البشر. لكنني قد حُلتُ بهذا دون تتمة حديثك فعُد اليهِ غير مأمور واكمل ما ابتدأتَ بهِ من تاريخ دياناتكم"

"لم يبقَ عندي سوى بعض الكلام على ادونيس واستارت"

"أليسا عندكم بمثابة اوسيرس وايسيس؟"

"ساوضح لك اولاً ما نذهب اليهِ في فينيقية من جهة ايسيس فالكهنة يعلمون ان الالاهة ابو المعبودة بفائق التبجيل والاكرام هي وايسيس واحدٌ"

"ما هو رأيك انت؟"

"ان بين الطقوس الفينيقية التي تتعلّق بموت ادونيس وبعثهِ وطقوسكم المختصة باوسيرس مشابهة تامّة ويذهب كهنتنا ان قبر اوسيرس عندنا وان كل ما يُشار بهِ من الطقوس الى ادونيس هو في الاصل لاوسيرس"

"فاذاً اوسيرس مصر مأخوذ من فينيقية؟"

"لا ريب في ذلك. وفي صور ندعو مصر بنت فينيقية"

"وهذه البنت فاقت أُمها في النموّ. واننا نفتخر بهذا النسب ونعتبر فينيقية سيدة العلوم وملكة تجارة الارض ولكن ما هو رأي كهنة بعلبك في اوسيرس وايسيس؟"

"من رأيهم انهما ممتازان ويعبدونهما بطقوس فائقة حد الوصف في العظمة والفخامة اما نحن فكما قلت لك نشابهكم في بعض الوجوه في فرائضكم المعينة لاوسيرس وايسيس ولكن بينما انتم تعبدون صفة اللاهوت المجرّدة نعبد نحن البطل ادونيس والبطلة استارت فنرفعها الى السماوات والى القمر وندعوهما إلهينا . وحقًا اني ارى نفسي في جنب تقليدكم الأسمى والأنقى اشبه شيء بملوك جنوبي افريقيا البرابرة الذين كلٌّ منهم عبد سالفة وحين كان كهنة ايسيس في فينيقية اجتهدوا في ترقية شأن عبادتنا لكننا لانزال عبدة اوثان نسجد لمن هم في الحقيقة ليسوا سوى أُناس مثلنا وحيث لا نسجد لم نسجد للشمس والقمر والكواكب وينبغي والحالة هذه ان اتخرّج في عبادتكم الروحية العقلية ما دمت في مصر"

"سيكون لك ما طلبت وعما قليل تُصدَر الاوامر الى رئيس كهنة اون ليفتح لك خزائن طقوس ايماننا المقدسة (المغلقة في وجوه جميع الغرباء)"

فاستأنفت كلامي :

"ومما طالعته في اسرار هيكل صور ان للديانة موضوعًا اسمى من الابطال البشرية وان باستارت تُعبَد ابنة السماء والنور الذي هو الحياة وان ادونيس ابنها يشير الى الحق وهكذا يصدر عن السماء النور والحياة والحق وهذه الثلاثة حسب مفاد تلك الكتب التي طالعتها تؤلف ثالوث اللاهوت الذي كان وسيبقى

هكذا ثالوثًا متحدًا غير منقسم فليس النور وحدهُ ولا الحياة وحدها ولا الحق على حدة بل واحد في ثلاثة . وكون اولئك الثلاثة ليسوا ثلاثة آلهة اشبه شيء بقولنا في الهندسة ان الثلاثة اضلاع والثلاث زوايا ليست ثلاثة مثلثات بل مثلثٌ واحدٌ . ولاجل تقريب هذا السرّ الغامض من افهام البشر تمثّل النور بالشمس والحياة باستارت والحق بادونيس . وفي هيكل بعل فغور نُعبَد الشمس نفسها كالنور والحياة والحق في واحدٍ مرموزًا باشعتها الى النور وبحرارتها الى الحياة وبجرمها الى الحق"

"لايسعك وصف ما آنسته في هذا البحث من اللذة والارتياح لانهُ اماط لثام الغموض الذي كنت أراهُ في عبادة الفينيقيين للشمس . فهي عندهم اذًا مثال اللاهوت المثلّث الاقانيم لكنني اخشى ان يكون في مصر معبودًا كوثن لانهُ لا ريب معبودٌ من كثيرين ولهُ هياكل في مدن كثيرة ولكن هذه العبادة المادية الفاصلة الرمز عن المرموز اليهِ او المجاز عن الحقيقة من محدثات الدولة الفلسطينية او الفينيقية وتكاد تكون الأثر الوحيد الباقي في مصر من آثار تلك الدولة. فعبادة اوسيرس على صحتها موجهة الى اللاهوت ولكن هذا التثليث غير معروف في لاهوتنا . فهل عندكم هياكل كثيرة للشمس في صور ؟"

"هيكل واحد لا غير لكنهُ لفخامتهِ وعظمتهِ جدير بأن يقوم في مدينتكم "سيد الشمس" كما يجب ان ادعوها"

"أليس في مملكتكم مدينة تدعى 'بعل فغور' فيها للشمس هيكل مشهور ؟"

"انها بعلبك ولكن الاسم مختلف قليلاً . وهذه المدينة هي في الحقيقة كما هو مشهور عنها من حيث فخامة المعابد وعظمة القصور والتأنق في زخارف العبادة المقدمة للشمس في مذابحها وتناهي هياكلها في الزينة وكهنتها في الحلل الثمينة"

"أليست فينيقية بلاداً جميلة ؟"

سألني هذا وردَّ تحيةَ قائد البحر باترومنس الذي مرَّ اذ ذاك بيارجتهِ لاحقاً بالامير مريس المسافر صباح غدٍ بعمارتهِ الى بلاد الحبشة فسررت بمشاهدة هذا الصديق الذي تعرّفت بهِ على حدود بلوزيوم واجبتهُ على تحيتهِ بكل تودُّدٍ ثم اجبت رعمسيس على سؤالهِ قائلاً :

"انها بالحقيقة بلاد جميلة . سهولها ريَّانة مخصبة وجبالها رفيعة الذرى سامية الشأن تحفُّ بها اشجار الارز وتخترقها الانهار والجداول وهي عامرة بالمدن آهلة بالسكان ومدينتاها العظيمتان صور وصيداء تدعوانِ عيني العالم"

"سمعت بهذا وارجو اني بعد ما تنطفئ نار حرب الحبشة انفرّغ للشخوص الى مملكتكم لانظر 'والدة مصر' كما تدعو هي ذاتها ايضاً و 'ناجرة البحار' التي اكتشفت سفنها في البحار المجهولة وراء اعمدة الغرب الجزائر المباركة"

"كذا افاد بحارتنا المتادم الشجعان"

فقال ربّان بارجتو الجالس مصغيًا الى حديثنا :

" قد سافرت الى تلك الشواطئ يا مولاي رعمسيس ولكن ليس لي جسارة على الكلام في حضرة سموك "

فاجابهُ وليّ العهد متلطفًا :

" تكلم يا رائوس وافدنا عما لديك من انباء تلك البحار الغريبة الشاسعة ؟ "

" ليعلم سموّ الامير ان الارض في تلك الاطراف السحيقة ليست نظير ارضنا مصر . فلقد شاهدت جزرًا فيها الناس كالسعادين الكبيرة ولهم لغة لا يستطيع احدٌ ان يفهمها وبيوتهم مبنيّة في الاشجار . فلا ريب في انهم عفاريت او ارواح أُخر شريرة اعادها اوسيرس ثانيةً الى الارض لتكفّر عن جرائمها في صوَرٍ وحشيّة هائلة ليست بشريّة ولا وحشيّة "

فقلتُ :

" سمعتُ عن هذه المخلوقات . فالى اين بلغتَ في سفرك يا رائوس ؟ "

" الى نهاية العالم يا مولاي . لاني كنت ذاهبًا الى الهند القصوى وفي دوراننا حول منتهى الارض اصابتنا عاصفة كثيفة مظلمة لم تتبيّن فيها الشاطئ وحين طلع النهار لم نرَ سوى سماء وماء وبدا لي اننا محمولون بمجرى من الاوقيانوس الى حيث

لا مرجع لنا ولا نجاة ولكن تشفّع فينا الله الرباح الذي نذرت له سكائب وتقادم وساق في وجوهنا عاصفة شديدة ارجعتنا فحملنا كأننا طائرون باجنحة الى ان بلغنا جزيرة عظيمة رسونا فيها فرحين بنجاتنا"

فقلت :

"حقاً انكم تعرّضتم لاشدّ الاهوال واعظم الاخطار. أفلا تظن ان ذاك كان في اقصى العالم"

"هكذا قال لنا ملك الجزيرة وقد هنأنا بنجاتنا قائلاً انه قلما تنجو السفن من ذاك العاصف المخيف"

"ألا تظن من الاسفار التي سافرتها ايها الربّان رائوس ان الارض مربعة ؟"

"او مثلثة لكن يذهب البعض انها مربعة وفي كل زاوية من زواياها الاربع جبل ناريّ"

فسأله الامير رعمسيس :

"وما هو رأيك فيها ؟"

"عندي انها غير قياسية اشبه شيء بجزيرة الروضة التي نبلغها عما قليل"

"وماذا تظنّ من جهة اساسها ؟"

"يذهب حكماء الهند انها واقفة على ظهر سلحفاة كبيرة وكهنتها يقولون انها عائمة على وجه اوقيانوس واسع الاطراف وفي يافا

يزعمون انها قائمة على جبل من نار لا يعرف له حدٌّ فلا اعلم الحقيقة يا مولاي واني اترك ادراك هذه الحكمة لفلاسفتنا العظام . لكننا قد بلغنا يا مولاي الشاطئ "

واذ ذاك قال لي رعمسيس :

" هل خطر ببالك ان هذا العالم كرةٌ دائرةٌ في محيط الاثير حول الشمس الثابتة ؟ "

فاجبتهُ بلسان العجب والاندهاش

" كلاَّ يا رعمسيس ويستحيل ان يكون هذا "

" لا شيء مستحيل عند خالق هذا الكون . والاَّ فعلى ايّ شيء يرتكز بحر النار او السلحفاة ؟ وأيُّ الرأيين اصعب ؟ لكنني شديد الاعتناء بعلم الفلك فان رمتَ الاطّلاع على بعض مراقباتي فيهِ فلا بدَّ انك تنقاد الى رأيي في ان هذه الارض دائرة على الدوام مع سبعة كواكب سيَّارة حول الشمس ومن دورتها السنوية ينتج اختلاف الفصول الاربعة ومن دورتها اليومية الليل والنهار على انك تعجب من هذا لكنك في ما بعد تألفهُ وتصدقهُ . لنجتز الى البرّ "

ابنكِ المحب

سيزوستريس

الرسالة الحادية عشرة

قصر الروضة على النيل

والدتي الملكة العزيزة

في هذا الصباح بينما كنت جالسًا مع الملكة ورعمسيس اذا بالامير مربس قد دخل بغتةً بدون إعلام بصحبة أسنهُ الذي يتبعهُ على الدوام سائرًا وراءهُ او ماشيًا على جانبهِ وقال بخشونةٍ لاتليق بالحضرة:

"قد جئت لاخبر جلالتكِ اني مستعدٌ لامخر في العمارة الى الشلالات وانتظر اوامركِ"

فالملكة امنس المحافظة في بلاطها على ادقّ النظام ولا سيما في ما يتعلّق بالتشريفات استاءت اشدّ الاستياء من هذا الدخول الفجائي المخالف للنظام . لان اشراف مصر السفلى مشهورون

بتهذيبهم واحترامهم لعوائد بلاط الفراعنة ومراعاتهم نظاماته الدقيقة اذ الداخل الى قاعة العرش يُصحَب من حين اجتيازهِ بوابة القصر بالحجَّاب ونظَّار التشريفات من دهليز الى رواق ومن رواق الى قاعة ومن قاعة الى باب وهلمَّ جرًّا على نحو ما وصفت لكِ كيفية دخولي . فدخول الامير مريس مخترقًا حرمة هذا النظام القديم المرعيّ الايجاب أغاظ الملكة فقطَّبت وجهها وقالت باسرةً :

" يسرُّني ايها الامير نبأ اجتهادك واستعدادك فمتى تسافر؟ "

" هذه الساعة يا ذات الجلالة فان شاء رعمسيس يصحبني بالزحف في جيوشهِ الى ثيبة التي بلغني من رسولٍ جاءني الآن انها في خطر يتهدَّدها من قبَل اكوريس نجاشي الحبش الخارج عليها بنصف جيوشهِ "

فصرخ رعمسيس ناهضًا :

" اذًا لا حاجة الى الابطاء . الوداع يا والدتي وبعد بضعة اسابيع اعود اليكِ بنبإ هلاك عدوّ مملكتكِ وكل جيوشهِ "

وبعد وداعٍ مؤثّر اخذ رعمسيس حسامهُ وخوذتهُ وخرج اما الامير مريس فانحنى متكلفًا امام الملكة التي ظهر لي انها تمتتهُ الى الغاية وانطلق . فتبعتُ رعمسيس الى الشاطئ وعبرنا الى اون وهناك وجدنا المركبات معدَّةً وفي طرفة عين بلغنا قلب الجيش المعسكر جنوبي اون . وبعد ما دخل الامير هيكل هورس

الذي تحدثنا امامهُ في شأن العبرانيين وقدَّم فيهِ سكائب واحرق بخورًا استعطافًا لرضى الآلهة واستمدادًا لمساعدتها انفذ الاوامر لكبار القادة وضباط الفرَق فسار الجيش كلهُ زاحفًا نحو الجنوب وقد ارتجت الارض ومادت بالطول والعرض من اصوات الابواق ودويّ الوف من العجلات الحديدية ولما رأى رعمسيس ان النظام العسكري في مسيرهم بالغًا غايتهُ ركب قاربًا واجتاز النيل الى ارباض ممفيس ليسيّر جيش الفرسان والمشاة المخيّم هناك . وفي طريقنـــا اليهِ شاهدنا طليعة عمارة اميرية مريس ماخرة في النيل تشقّ عبابهُ صاعدة في ابهة وجلال فائقين شائقين . فقال لي رعمسيس

"انظر هذا الامير الذي ان وافتني المنية في هذه الحملة يكون فرعون مصر بعد وفاة والدتي"

"لا سمحت الآلهة بذلك"

"انهُ ثانيّ بحق القرابة . على ان لوالدتي استطاعة ان توصي بتاجها وصولجانها لمن ارادت ان تتبنّاهُ . وقد تذكَّرت الآن انهُ من الضروري بمقتضى ناموسنا ان تحتفل بتبنيهِ جهرًا قبلما يستطيع ان يملك فان ابن الاخ بموجب ناموس ممفيس لا يستطيع ان يرث العرش . اذًا يجب ان يُتبنَّى مريس اولاً"

"فاذًا لن يملك ابدًا"

"اعلم يا سيسوستريس ان والدتي ترهب جانب هذا الامير

الشرير الذي له عليها سلطة غريبة غامضة تمكّن بواسطتها من الارتقاء الى نيابة مصر العليا فان سقطتُ في الحرب يتذرّع بهذه القوّة الى الاستئثار بعرش كل مصر"

واذ ذاك بلغنا الشاطئ حيث كان عشرون فارسًا مشرعون رماحًا طويلة ينتظرونه . فامتطينا الجوادين المعدّين وانطلقنا نعدو والفرسان جارون على اثرنا حتى بلغنا بعد مسيرة نحو ميلين الى سهل فسيح الجوانب مخيّم فيه جيش المصريين فرسانًا ومشاةً مؤلّفًا من كل الاسلحة والألسنة والازياء الخاصة بالامم الخاضعة لمصر . ولما اشرفنا عليه اعلن المبوّق قدوم الامير قائدِ العام فاخترقناهُ الى القلب . وما عتّم الامير رعمسيس ان جمع كبار القادة والضباط واخبرهم بزحف اكوريس نجاشي الحبشة على ثيبة . وبعد اربع ساعات انتظم كل الجيش مربّعًا تألّف كل جانبٍ منهُ من عشرين الفًا واتجه من داخلهِ نحو هيكل صغير لاله الحرب رايتوري وقد بناهُ في ذلك السهل امينوفيس الاوّل لتقديم الذبائح والسكائب عن الجيوش التي تحتشد هناك قبل مسيرها الى الحرب . فخرج من ذلك الهيكل الصغير رئيس كهنة اله الحرب الذي هو من مصاف الامراء وحلفاء العرش مصحوبًا باكثر من مئة كاهنٍ دونهُ في الرتبة ولابسًا حلّة يعجز القلم عن وصف نفاستها وزخارفها وقيمة الحلى والجواهر المزدانة بها ولما بلغ دكّة عالية صعد اليها منتظرًا مجيء الكهنة اليهِ بتمثال اله

الحرب محمولاً على عجلة ومُداراً بهِ امام الصفوف حوالي الدكّة والجميع يحيّونهُ بضرب سيوفهم على اتراسهم او بضربها بعضها ببعض . فلما جيء بهِ الى قدام رئيس الكهنة انطرح امامهُ على الارض وساد السكوت والخشية على الجميع مدّة بضع دقائق كان فيها ذلك الكاهن العظيم منكبًا على وجههِ الى الارض عند قدمي ذلك الاله

ولما نهض والتفت الى الغرب تقدّم الامير رعمسيس وقوّادهُ وضبّاطهُ الى تمثال اله الحرب ومع كلٍّ منهم عبدٌ يحمل هداياهُ وتقادمهُ حسب رتبتهِ وعلى قدر استطاعتهِ وكان ما قدّمهُ رعمسيس قلادة ثمينة مرصعة بالحجارة الكريمة تقدمة من أُمهِ وقدّم فوق هذه سيفًا نفيسًا

اما القادة والضبّاط فقدّموا ازهارًا وقلائد ذهبيّة واوراق حند قوقى مصنوعة من عاج ومرصّعة بحجارة كريمة وسيوفًا ورماحًا

وبعدهم تقدّم العبيد الحاملون تقادم العساكر المختلفة فمن خواتم فضة ونحاس وخشب وزجاج وتين يابس وتمر هندي وتمر وزبيب وثوم وكراث وبصل وقطع من البردي واوراق نخلٍ وازهار وحصى وبزر بطيخ وفجل وغير ذلك شيء كثير لا يُحصى ولا يُعدُّ

ولما فرغ الجميع من تقديم ما لديهم من هذه الهدايا المتنوعة

ابتهل رعمسيس بصلاة حارة الى الاله ملتمسًا منهُ ان يقبل تقادم الجيش والضباط والقادة ويمنحهم الغلبة على اعدائهم

وقد شاهدتهُ في اثناء هذه الصلاة شاخصًا الى السماء كأنهُ غاضٌ نظر افكاره عن ذلك التمثال المادّيّ الذي امامهُ وموجهًا عواطف قلبهِ الى ذلك العليّ غير المنظور الساكن ما وراء الشمس فعلمت انهُ ساجدٌ الآن لمن حدَّثني عنهُ كثيرًا — لاله الآلهة حيث هو على عرش السيادة المطلقة على جميع الكون

ولما انتهوا من جميع الفرائض والطقوس هتف الموقوفون فانتظم كل الجيش في خطّ المسير وزحف صفوفًا صفوفًا

اما انا ورعمسيس فصعدنا الى مرتفع تمكَّن منهُ ان يستعرضهُ في مسيرهِ وكان المعوَّل في هذا الجيش العظيم ليس على الفرسان بل على جنود المركبات الحديدية وعلى الرامحين ورماة السهام

ولم يكن الحُبشان الزاحف عليهم هذا الجيش الكثير العدد برًّا وبحرًا دون المصريين كثيرًا . لان بلادهم كثيرة المدن والقصور الشاهقة والصروح الباذخة وعندهم جيشٌ منظم وقادة محنكون وهم يشبهون المصريين خَلقًا وخُلقًا ويكادون يكونون من جنسٍ واحد لكنهم عبدة اوثان واعداء لديانة المصريين. والعداوة بين هاتين المملكتين قديمة العهد

وبعد ما صحبت رعمسيس مسيرة يوم ودعتهُ راجعًا وقد

وعدته بموافاته الى ثيبة بعد ما افرغ من التجوبل في مصر السفلى

وها انذا الآن مشغول بمشاهدة عجائب ممفيس بل عجائب الدهور— "هياكل الآلهة" — الاهرام العظيمة وسأكتب اليكِ مفصلاً عما شاهدته في ممفيس والاهرام

ابنكِ المطيع المحب

سيسوستريس

الرسالة الثانية عشرة

مدينة ايس

والدتي العزيزة

اشكركِ من صميم فؤادي على رسالتكِ الطويلة الكريمة المكتوبة في قصركِ بمدينة صيداء حيث ذهبتِ لاتمام الفرائض الدينية في هيكل ادونيس ومنها نلت اطمئناناً عن سلامتكِ واستمرار تمتُّعكِ بالصحة التامة التي اتضرَّع الى الآلهة ان تديمها لكِ غوثاً لمملكتكِ وقواماً لسعادتي. وقد اشرتِ فيها ايضاً الى زيارتكِ هيكلَي استارت وتموز في جبل لبنان

ولكن كلما أطلت الحديث مع الامير رعمسيس تزداد اليَّ طبيعة تقاليدنا الدينية سماجةً وخشونةً فأرى تلك الصور المادية غير جديرة باحترامنا وعبادتنا . نعم اننا نستطيع ان ننظر اليها

ونكرم من تمثله ونشير اليهِ كما انظر الى رسمكِ المحبوب كل يوم
واقبّله من شدّة محبتي لكِ ولا اكرم العاج والألوان التي تمثل
لعيني شخصكِ المحبوب . ولكن لو رآني واحدٌ من عامة المصريين
اقبّل صورتكِ هذه لظنَّ اني اعبد صورة احدى الالاهات . وعلى
هذا النحو احقّق ان رعمسيس ينظر الى كل هذه التماثيل موجّهاً
افكارهُ الى ما وراءها وشاخصاً في مَن تمثّله اي ذلك الاله غير
المحدود . ولقد اصبحت مقتدياً بهِ من هذه الجهة ومحتذياً طريقته
في العبادة فأكرم التمثال كما اكرم صورتكِ لا غير . ولكن اين
يا والدتي ذلك الاله غير المحدود لحين افتكر بكِ استطيع ان
احمل نفسي اليكِ على اجنحة تطير بي الى حيث انتِ سواء كنتِ
في مقصورتكِ منفردة للتطريز او في قاعة الاستشارة او على عرش
الحكم والقضاء . ففي لحظة اتمكّن من بعث افكاري نحوكِ على متن
التصوّر فاراكِ كما انتِ . اما ذلك الغير المحدود الذي يدعوهُ
رعمسيس "الله" تمييزاً له عن الآلهة الصغرى فاين حاجبٌ ذاته ؟
ولماذا اذا كان موجوداً لا يعلن نفسهُ . لماذا يدعنا نلتمسهُ هكذا
ولا نجدهُ ؟ فان كان صالحاً ومحباً ومنعماً كما هو في الحقيقة فلماذا
لا يُظهر هذه لخلائقهِ ؟ ولكن ما اعمق الاسرار المكتنفة عرشهُ
وأبعدها عن الاستقصاء أفسيبقى الى الابد محجّباً عنا ؟ ألا يُعلن
ذاته مطلقاً الى الانسان ؟ ألا يُطلعُ الخليقة على وحدتهِ — على
انهُ ليس الاّ الهٌ واحدٌ لا آخر سواهُ ؟ كيف يطلب من الناس

طاعةً واستقامةً وهم لا يعرفون شيئًا من نواميسهِ واحكامهِ؟ ومع ذلك فالضمير والشعور الداخلي والطبيعة المنظورة والعقل كل هذه تشير الى انهُ ليس الاَّ اله واحد علَّة واحدة على تعدُّد الآلهة الصغرى التي خلقها لتساعدهُ على إدارة هذا الكون الواسع وان العبادة العقليَّة الروحيَّة يجب ان نقدّم لهُ وحدهُ . هذا راي رعمسيس الذي هو فوق كل شعبهِ حكمةً وتقوى وبعض الاوقات يتراءَى لي انهُ يستمدُّ وحيًا من ذلك الاله الذي يعبدهُ في قلبهِ ويحققهُ بذهنهِ لان كلامهُ في هذا الموضوع اشبه بكلمات الاله في سموّها وغرابتها وشدَّة تأثيرها

وسأُعيد لكِ هنا شيئًا من حديثهِ معي بعد ما اصعد التقدمة في هيكل ايس لاجل سلامة الملكة ومعافاتها فقال بعد انطلاقنا من الهيكل :

"لا بدَّ انني اليوم بعد كل محادثاتنا الماضية قد تمثّلت لديك عابد وثنٍ متقرّبًا سكائب وتقادم لصورٍ ماديَّة على اسلوب مستهجن نظير باقي عامَّة الشعب"

"كلاَّ يا صاحب السموّ بل رأيت فيك ساجدًا متعقّلاً كانت عينا جسدهِ تنظر في الحقيقة الى الثور المقدس واما روحهُ فكانت ناظرة الى اوسيرس العظيم الذي حلَّ مرَّةً في الثور حين كان على الارض وعلى هذا فقد اكرمت المسكن الذي مكث فيهِ الاله قديمًا"

" ان الثور يا سيصوستريس ليس عندي في شيء من الاشياء على الاطلاق ولكنني كولي عهد مملكة تأمر شرائعها عبادة ايس في ممفيس او أمون ذي الرأس الكبشي في ثيبة او الثور المقدس في اون اضطرّ في الظاهر ان اجري بحسب العوائد التي لا اتجاسر ولا اقدر على تغييرها وهب اني استطعت الى ذلك سبيلاً فماذا يعبد الشعب ان عزلت آلهتهم هذه ؟ ان ديانتي روحية وأثق انك كذلك او تكاد . ولكن كيف أمثّل للمصريين ايمانًا روحيًا ؟ في أية هيئة — في اي مثال منظور اقدّمها لهم ؟ لان الكهنة يطلبون ديانةً منظورةً ماديّة . ولا يقوى الشعب على عبادة عقليّة مجرّدة كما نستطيع انت وانا وكما يدّعي الكهنة انهم يستطيعون ويفعلون . فان غيّرتُ لاهوت الكهنة حين اجلس على العرش وأزلتُ الشمس الذهبية من اون وذبحت ثور ايس المقدس ولاشيت الاوثان من كل مصر التي تُعدّ بالالوف فماذا أُقيم للشعب عوضًا عنها ؟ "

" عبادة روحيّة عقليّة لذلك الاله غير المحدود "

" ولكن من يعرّفني به ؟ وماذا اعرف عنهُ اكثر من شعور داخلي فيّ ؟ وكيف اتمكّن من حمل الآخرين على الشعور به ؟ يجب ان اعرف اولاً ابن الله قبل ما استطيع ان اهدي الآخرين الى النظر اليهِ في الصلاة . يجب اولاً ان أُهذّب افكارهم وتصوراتهم ليتمكّنوا من اعتناق ديانة عقليّة نقيّة وعبادة ذلك

الغير المحدود بدون صور وتماثيل واشباه منظورة لانهم ما دامت هذه بين ايديهم يعلقون ايمانهم عليها ويعتبرونها آلهتهم . وماذا اعرف عن الاله الذي أُريد ان أُعلنهُ لهم ؟ لا شيء . اما انهُ لا يوجد الاَّ الهٌ واحدٌ فهذا يُشير العقل اليهِ ويدلُّ عليهِ . لانهُ ان وُجد الهان متساويان يكونان متساويين في القدرة والسلطة على الخليقة وسياسة العالم وعبادة الناس . والالهان المتساويان في كل شيء على الاطلاق هما في الحقيقة الهٌ واحدٌ . واذ لا يمكن ان يوجد الهان او اكثر بدون اتحادهما فاذًا لا يوجد الاَّ اله واحد"

فلم يمكنني الاَّ التسليم بصحة هذا التعليل على الفور واستطرد كلامهُ :

"فالله اذًا موجودٌ واحدًا وكل ما في الكون دونهُ حتى الآلهة التي خلقها ان صحَّ وجود مثل هذه ويليق بكل الناس ان يعبدوا ليس هذه الآلهة بل اله الآلهة . اما انهُ يجب ان يُعبَد عبادةً روحية فواضحٌ ايضًا لانهُ هو روحٌ واذ نحن من ارواحٍ واجسادٍ مادية وارواحنا هي بدون ريب اسمى شيء فينا فالذي اوجد روح الانسان يجب ان يكون اسمى من كل الاجساد او الصور المادية ويقتضي هذا السموّ هو روح"

فقلت اذ ذاك لهذا الفيلسوف الحكيم :

"ألا تظن أنَّ هذا الاله العظيم الذي نعتقد بوجودهِ يُعلن

ذاتهُ لكي يُعبَد عبادة تليق بكمالاتهِ ؟ أَتظن ان يرفع الجهل الحائل بيننا وبينهُ يُرفع في ما بعد ؟"

"بدون سؤال يا عزيزي سيسوسترس لان خالق هذا العالم يجب ان يكون محسنًا وصالحًا وحكيمًا"

"لا ريب في هذا"

"واحسانهُ وصلاحهُ وحكمتهُ تطلب سعادة الانسان وارتقاء شأنهِ . ومعرفة الاله الحقيقي الذي نشعر الآن بوجودهِ ونتلمسهُ في ظلام حالكٍ ليس فيهِ سوى نور عقولنا الضعيف – هذه المعرفة ترفع شأن الانسان وتخوّلهُ السعادة لانها تمزّق حجب الجهالة وتدكُّ اساس الوثنية وتقرّب الانسان من الله. واله الحكمة والجودة والعدل لا يحرم الانسان من هذه النتائج العظيمة

اذًا لا بدَّ ان يمنح العالم اعلانًا منهُ في ملء الزمان حين يكون الناس مستعدين لقبولهِ. وقد لا يكون ذلك في ايامي ولكن يأتي وقت يُعلن فيهِ الله معرفتهُ للانسان فيعبدهُ وحدهُ عبادة طاهرة نقيّة تليق بمجدهِ وجلالهِ وعظمتهِ وكمالهِ"

واذ ذاك رأيت وجه رعمسيس ساطعًا بنور وحيٍ فائق كأنهُ ناجى ذلك الاله الذي تكلم عنهُ واستمدَّ معرفة هذه الاسرار منهُ . ثم غشيتهُ سحابة وقال بلهجة الحزن والاسف :

"كيف اهدي شعب مصر الى الاله الحقيقي على حين لم يعلّمني شيئًا عن نفسهِ؟ لا لا يا سيسوسترس يجب على مصر ان

تصبر. عليّ ان انتظر. ينبغي للعالم ان يتوقع يوم الاعلان. وذلك اليوم لا بدّ ان يأتي والاّ فليس اله . لان الاله الدائم السكوت — الاله المحتجب على الدوام عن خليقته — هو في حكم عدم الوجود. لكن وجوده مُتحقّق تعلنهُ السموات بمجدها ويذيع البحر اسمهُ بعجيجهِ وتوضح الرعود قوّتهُ بدويها وهزيمها وزنابق الحقل تشهد بصلاحهِ وجودتهِ ونحن انفسنا أدلّة حيّة على محبتهِ واحسانهِ

آياتهُ في الكونِ تُظهِرُ مجدهُ
وتُذيعهُ في مطلق الأنحاء
ألأرضُ شاهدةٌ بصدق وجودهِ
والبحر ايضاً أعدل الشهداء
أوما تُرى هذي ترتّبُ حمدهُ
بسيرها والبحرُ بالأنواء
ألأزهارُ يمثّلانِ جمالَهُ
وجميعُ ما في القبّةِ الزرقاء

"اذاً لنرفع قلوبنا ونحن محاطان ببهرجة الوثنية المالئة الارض الى الاله الواحد ونبقَ سرّاً عاكفين على عبادتهِ حتى يُعلن ذاتهُ لسكان الارض"

ففي نقلي اليكِ ايتها الوالدة العزيزة هذا الحديث لا استميل نظركِ فقط الى ما يتعلق بتقليدنا الديني بل أُطلعكِ على شيء

من بيّنات حكمة رعمسيس الرائعة وادلّة فلسفتهِ التي بنور السموّ ساطعة

وبهذه المناسبة اصف لكِ ما شاهدتهُ في هيكل ايس في اثناء زيارتي لهُ مع رعمسيس من جزيرة الروضة

فالسفينة التي برحت بها قصر الروضة كان فيها اربعة واربعون مجذفًا وهم اقوياء البنية من شعب ساحليّ كان قبلاً مستوليًا على الدلتا لكنهُ الآن خاضعٌ للملكة ولهم رئيس يُدعى "فلاّك" يعتبرونهُ نظير كاهنٍ وعلى يدهِ يُساسون ويُنظَّمون باذن الحكومة ولهم عبادة سرّيّة خاصّة يقال انها مجوسيّة يقرّبون فيها لتيفون عنصر الشرّ

وعلى احقاء اولئك المجذفين (رجال المجاذيف) مناطق قرمزيّة تُشدُّ بها سراويلهم الكتانية النازلة الى ركبهم فقط واكتافهم عريانة وعلى رؤوسهم شيء اشبه بالعمامة من نسيج اخضر لهُ عذبة تتدلّى على الاذن ولها في طرفها عجرة او عقدة من فضة . هؤلاء مجذفو وليّ العهد الاخصّاء . وربانهم شابٌ ابيض الاسنان ادعج العينين رزين الطبع فاخر الملبس

وفيما نحن ماخرون نحو رصيف المدينة بين سفنٍ لا عداد لها تخفق عليها رايات أُمم مختلفة مرّت بنا سفينة نخاسةٍ نازلة من مصر العليا مشحونة اولادًا نوبيين صبيانًا وبناتٍ ليباعوا عبيدًا في السوق . ولما بلغنا رصيف مرفإ مدينة ممفيس صعدنا على الدرج

الى بوابةٍ تؤدي الى زقاق جليل محاط على جانبيهِ باشجار النخل واروقة فسيحة غاصة بالشراة والتجار والضباط ومأموري الرسوم او الضرائب وصناديق الامتعة ورزم البضائع الواردة من كل الارض فلبثت هنا وقتًا قصيرًا اتأمل في مظاهر غنى العالم وتجارتهِ لان هنا مورد حاصلات جميع البلدان والجيزة مصدر شحنها الى الخارج ولا تسألي عن اختلاط الضجيج والصياح من الحمَّالين والفعلة والتجار والباعة والشراة بلهجات متنوعة ولغات مختلفة فان ذلك مما يفوق الوصف ويتعدَّى نطاق الحصر

ولقد راعني الى الغاية ما شاهدتهُ هنا من ظواهر الغنى وادلَّة الثروة حالة كوني متعوّدًا ان احضر معارض تجارة صور . فرأيت تجارًا من سبا حاملين تبرًا واطيابًا متنوعة وجواهر كريمة وغيرهم من باوان معهم عنبر وحديد وقصب الذريرة وآخرون معهم خمر من حلبون وعسل وزيت وبلسان من فلسطين وآخرون من ديدان حاملون مطرزات كتانية وعِدَد ثمينة للمركبات والخيول من جلود فهود ونمورة وغيرهم من دمشق آتون بسلع متنوعة منها ادوات قاطعة ونصال دمشقيَّة مشهورة بمضائهـــا ودقَّة صناعتها وسرعة نفادها مع غلاء اثمانها وآخرون من صور قادمون بالارجوان ومطرزات الكتان وغيرهم من صيداء حاملون زمردًا ومرجانًا وبشمًا وغيرها من الحجارة الكريمة

وتجارٌ كثيرون من جزائر البحر قادمون بآنية شبهانية وسلع

متنوعة منها صناديق مرصّعة بالعاج والجواهر والآبنوس . وقد شاهدت تجارًا من ترشيش وقادش قادمين بالفضة والحديد والقصدير والرصاص وغيرهم من ارواد بمجانّ واتراس ومن الفرس بخوذ وملاءات ومن الهند بالعاج وقوارير اطياب . وعقائد حُلى من يشب وياقوت ازرق (صفير) وجزع وزبرجد وماس من البحر الجنوب . وخيول وبغال من العربية وقطعان مواش من قيدار ونخاسون آتون بعبيد من اقصى افريقية ليبيعوهم . وهكذا رأيت كل الارض قاطبةً واضعةً غناها عند قدمي مصر

وبعد ما اجتزت هذا المعرض العظيم اتيت شارعًا رحبًا ينعطف نحو اليمين مؤديًا الى الجيزة ونحو اليسار الى ممفيس وهو محفوف على جانبيهِ بالهياكل والعُمُد والتماثيل وفي منتهاهُ عمود مسلة علوهُ مئة قدم بناهُ امينوفيس الاول على اسم زوجتهِ الملكة ايفتنا . وهذا العمود تكتنفهُ ساحة فسيحة على جانبها الغربي مدخل او بوابة ممفيس وهنا وجدنا حرّاسًا استقبل رئيسهم الامير رعمسيس بفائق الاحترام العسكري

فاجتزنا بين صفوف العساكر الذين جثوا الى الارض اجلالاً للامير ودخلنا شارع ممفيس — المدينة الثانية في مصر في فخامة الابنية والاولى في الاهمية الدينية لانها مدينة ثور ابيس المقدس

اما وصف هذه المدينة فهو عبارة عن اعادة وصف مدينة أُون اذ قلما تختلف عنها في الشوارع والساحات والهياكل .

فراجعي في ذهنكِ ما ذكرتهُ لكِ عن "مدينة سيد الشمس" (لان هذا هو مفاد اسمها الصحيح) فهو ينطبق على ممفيس

وبعد ما سرنا في الشوارع بلغنا ساحةً كبيرة في المدينة حيث هناك عين محاطة باسودٍ منقوشة على حجر برفير وعلى احد جوانب هذه الساحة بركة او بحيرة محدقة بالاشجار وعلى الجانب الثاني غابة مكرّسة لاسرار خاصّة وعلى الجانب الثالث هيكل مفرَز لكل الحيوانات المقدسة في مصر القرد[1] والكلب والثعلب والذئب وابن آوى[2] والتمس والقط[3] والوعل[4] والحصان والحمار والببر والنمر والفهد[5] وفرس الماء[6] والبقرة[7] . وعلى الجانب الرابع هيكل ابيس العظيم في مصر السفلى وفي رسالتي الآتية اشرح لكِ تفاصيل زيارتي له . واني الآن ضيف عند رئيس كهنتهِ ولهذا عنونت هذه الرسالة منهُ او من ممفيس

ابنكِ المحب المطيع

سيصوستريس

---

(١) مكرّس لثوث (٢) هذه الاربعة مقدسة لانوبيس (٣) بعد موتهِ يُحتفَل بتحنيطهِ (٤) غير مقدّس لكنهُ معدود كنايةً او اشارةً (٥) هذه ايضاً كالوعل (٦) هذا مقدّس ومعدود كناية عن تيفون (٧) مقدسة ومكرّسة لِأثور

الرسالة الثالثة عشرة

قصر كاهن ايس

والدتي العزيزة

جلست الآن لأصف لكِ ما شاهدتهُ في اثناء زيارتي مع الامير رعمسيس لاعظم هيكل في ارض مصر. ومع ان الناظر الى عبادة اوسيريس في أون لا يرى الأزخارف وزِينًا قلما تختلف عن عبادة الشمس التي شاهدتها في بعلبك منذ بضع سنين فطقوس ايس وقورة وخشوعية كالهيكل المقامة فيهِ بمزيد الابهة والجلال

اما الهيكل نفسهُ فبناءٌ هائل كبير الحجم واسع المساحة مبنيٌّ من الحجر السماقيّ وكبر حجمهِ اشبه شيء بجبل صخريّ منحوتٍ هيكلاً ومنظرهُ وقورٌ وجليل الى الغاية وهو شاغل احد جوانب الساحة

الاربعة التي ذكرتها في رسالتي السابقة

وفيما نحن على اهبة الصعود في البوابة ذعرتُ بصراخٍ عالٍ من اصوات عديدة واذ التفتُّ الى ما حولي شاهدت بحارًا او ملاحًا صوريًا عرفته من لباسهِ وهو طائرٌ في عرض الساحة على اجنحة الخوف يطارده جمٌّ غفير باصوات اللعن والسباب والتهديد بالانتقام. ولما اقترب رأيت صفرة الموت صابغةً وجهه واذ علمت انه فينيقيٌّ اشرت اليهِ فدنا مني ووقع على قدميَّ صارخًا:

"رحماك خلّصني ايها الامير"

"ماذا عملت ؟"

"قتلتُ قطًّا يا مولاي"

واذ ذاك انهال عليهِ الجمع كالعاصفة الشديدة ضاجّين ضجيجًا هائلاً فسألت رعمسيس:

"هل أُحاول تخليصهُ ؟"

"سأرى ان كنت استطيع ذلك لكنني اخشى ان توسُّطي لا يجدي نفعًا في مثل هذه الحادثة"

قال هذا واشار بيدهِ الى الجماهير الآخذين في الازدحام طالبًا تنحّيهم ثم قال لي:

"ليس في الامكان انقاذهُ ولو بسعاي لانهُ قتل حيوانًا مقدّسًا وبموجب شريعتنا يجب ان يموت ويقدَّم للآلهة"

وعلى الفور اختطف ذاك التعيس من امامنا ودِيس تحت اقدام اولئك الالوف الثائرين حتى أُعدِمَ الحياة ومُزِّق اربًا وأُخذ الى هيكل محفوظة فيهِ قطط كثيرة وأُعطي لها تلتهمهُ . وهكذا يموت كل من يقتل عرضًا قطًّا او كركيًّا

فقال لي رعمسيس

"ان قوّة الحكومة ليست شيئًا مذكورًا في جنب قوّة الخرافات المستفحلة وسلطتها المستحوذة"

ثم دخلنا الى الهيكل من بين تمثالَي ثورين من نحاس وجئنا الى ممشى او صفّ عُمُدٍ هائلة الحجم . وقد بُني هذا الهيكل في الاصل لبتاه الذي كان قديمًا اله ممفيس الخاص لكنهُ كُرِّس في عهد هذه الدولة للثور المقدس الذي مقامهُ اهمُّ قسم فيهِ

ان عبادة ابيس ومنفيس الثورين المكرَّسين لاوسيرس تُظهر اسمى ما بلغت اليهِ عبادة الحيوانات في مصر وقد شعرت بلذَّةٍ ليست بقليلة عند ما دنوت الى حضرة هذا الحيوان المؤلَّه . وعند وصولنا الى الاعمدة استقبلنا كاهنان لابسان حُلَّتي كتان نقيٍّ وفوقهما وشاحان من قرمز وهو لون ابيس المقدس وعلى رأسيهما قلنسوتان طويلتان وفي يد كلٍّ منهما شيءٌ اشبه بالعكّازة فاستقبلا الامير بانطراحهما قدامهُ على الارض ثم سارا بنا واحدًا منهما امامنا والآخر وراءنا حتى بلغنا الباب النحاسي ففتحهُ لنا كاهن ودخلنا دهليزًا فخيمًا مكثنا فيهِ بضع دقائق واذا بالباب الذي

في جانبهِ المقابل قد انفتح وظهر الثور المقدس يقودهُ كاهن بسلسلة ذهبية مربوطة بقرنيهِ المكللين بالازهار . وكان هذا الثور كبير الحجم حسن الصورة اسود اللون فاحمهُ ما عدا رُقطة بيضاء ناصعة في جبهتهِ وعلى كتفهِ شبه نسرٍ وشعر ذنبهِ مضاعف واذ كانت هذه علامات ابيس المقدسة لاحظتها جيدًا ويجب ان يكون ايضًا علامة الخنفساء على لسانهِ

فقادهُ الكاهن دائرًا بهِ حول الدهليز وجميع المصريين الواقفين سقطوا على وجوههم امامهُ الى الارض حتى ان رعمسيس ايضًا أحنى رأسهُ. ولما وقف بهِ تقدم وليّ العهد وبيدهِ طوق مرصَّع وقال لرئيس الكهنة الواقف بمجرتهِ :

"مولاي كاهن ابيس : انا رعمسيس وليّ العهد اقدّم هذا الطوق المرصَّع للثور المقدس مثال الاله الذي تلطَّف منعمًا بشفاء والدتي الملكة"

فاجابهُ رئيس الكهنة :

"مولاي صاحب السموّ ان جلالتهُ المقدسة تتنازل لقبول تقدمتك"

ثم اجتاز بالطوق سحابة البخور المنعقدة ودنا من الثور ووضعها في عنقهِ المزدان بأثمن الحلى واكرم الجواهر . واذ هبَّ نسيم باردٌ اسرع كاهنٌ (كان عدد الكهنة المجتمعين لمشاهدة تقدمة ولي العهد لا يقلّ عن المئتين) بغطاء من نسيجِ فضةٍ وذهب باهر

التطريز ووضعه على الاله

وبعد هذا حاول الامير رعمسيس باقتراح من الملكة ان يتفاءل من جهة نجاح حملتهِ فاقترب من الثور وقدَّم له كعكة من النوع المُولَع بهِ كثيرًا فاخذها الثور من يدهِ واكلها واذ ذاك اصدى الدهليز بضجيج الاستحسان والاستبشار بهذا الفأل الجديد لان رفضه له يعدُّ شؤمًا او فألاً رديئًا فتبسَّم رعمسيس متكلفًا الاستبشار. أمن الممكن انه يؤمن بالفأل؟ لا اعلم لان عوائد الزمان نافذة الحكم في كل انسان. وهل أزالت منهُ فلسفة ايامهِ الاخيرة كل ثقة وايمان بآلهة والدتهِ وبلادهِ التي أُرضع لبان عبادتها من الطفولية؟

ثم خاطب الكاهن الاله بسؤالٍ على مسمع الجميع:

"أيكون وليّ عهد مصر يا ابيس المقدَّس ملكًا ناجحًا حين يتبوَّأ العرش؟"

وكان جواب هذا السؤال في اوَّل كلام يسمعهُ رعمسيس بعد خروجهِ من الهيكل

وبناءً عليهِ برح الدهليز على الفور فخرجنا الى الرواق وفيما نحن هابطان الدرَج اذا بائع تماثيل صغيرة يجيب بصوتٍ عالٍ على كلام قالهُ له شخصٌ آخر: —

"لن يَصِل الى هناك ابدًا"

فقال لي وليّ العهد متأثرًا من هذا الجواب:

" لاحظ هذه الكلمات يا سبسوسترس يجب ان تعمّر والدتي اكثر مني او ان مريس يغتصبني العرش"

" هل تثق بهذا التطيُّر؟ "

" لا اعلم بماذا أُجيبك. ولا ارتاب في انك عجبت من تندمتي لايس بعد كل ما سمعتهُ مني ولكن يصعب حتى على الفلسفة اعتزال المبادئ الراسخة في الذهن منذ الصغر لا سيما اذا كان العقل عادمًا اعلانًا جليًا عما يودُّ التمسُّك به عند اطّراح الخزعبلات والتخرُّصات . ولكن يجب ان افارقك عند باب هذا القصر الكهنوتي . فهذا الكاهن الجليل رئيس كهنوت بتاه الذي قسمٌ من هيكلهِ مكرَّسٌ كما رأيت لايس وقد نظرتهُ الاسبوع الماضي في قصرنا ودعاك ان تكون ضيفهُ مدة وجودك هنا فأجب دعوتهُ وهو لا يطلعك فقط على ما تودُّ الإلمام بهِ بل يذهب بك ايضًا لزيارة هيكل كبوبس العظيم"

وبعد ما ادخلني رعمبس الى ذلك الكاهن العظيم ودَّعني وانصرف . واودُّ ان اصف لكِ هذا القصر الانيق الفخيم لكنني اروم اولاً ان اتكلَّم قليلاً عن هذا الاله ايس البالغ اسمى مكان في اساطير مصر وتقاليدها . ففي الاساطير الهيروغليفية يدعى هبي ويُكنى عنهُ بثورٍ على رأسهِ كرة الشمس وبجانبهِ هيروغليف صورة صليب اشارة الى الحياة . وكثيرٌ من امثلة هذا الثور مرسومة على الشبهان موجودة في كل مصر وموضوعة على قبور الكهنة

اما الوقت الذي تعيّنهُ الكتب المقدسة عندهم لحياة ابيس فهو خمس وعشرون سنة فان لم يمت ممثلهُ حتف انفهِ في هذا الوقت يساق الى عين الهيكل او حوضهِ ليُغسل وهناك يغرق بين انشاد الترانيم واحراق البخور والاحتفال بطقوس متعددة كلها مدوَّنة في الاثنين والاربعين سفرًا من البردي المحفوظة في السجلات المقدسة في اقدم هيكل . وعند ما يقضي الاله نحبهُ يذهب الكهنة المفرزون لهذه الغاية مفتشين عن ثورٍ آخر معتقدين بأَن روح اوسيرس انتقلت الى جسم حيوان آخر من هذه الثيران او "سادة مصر" كما سمعتها تُدعى وهذا الاعتقاد بانتقالٍ روح او نفس اوسيرس من ثور الى آخر ليس الاَّ نتيجة بل علّة المعتقد المستفيض هنا بتقمّص النفوس او تناسخها . وهذا تحققتهُ من مشاهدة بعض الصور والرسوم المنقوشة في قاعة قضاء اوسيرس حيث يُمثَّل الاله مرسلاً النفس التي رجحت سيئاتها على حسناتها الى الارض وقاضيًا عليها ان تدخل جسد خنزير وتباشر الحياة مبتدئة من ادنى الحيوانات وصاعدة باستمرار التناسخ من حيوان الى آخر حتى تبلغ جسد الانسان واذ ذاك فان وُجدَت عند امتحانها مدركة للفضيلة تُدخَل الى مساكن الآلهة وتنعم بالخلود

وقد قال لي رئيس الكهنة ميسراي الذي انا ضيفهُ :

"جاء في بعض التقاليد ان اوسيرس حينما نزل الى

الارض قاصدًا خير الجنس البشري بتعليمهم حكمة الآلهة تبعهُ ابناه تيفون الاشرار قاصدين اهلاكهُ فالتجأ الى جسد ثور واختبى بهِ مختبئًا . ولما رجع الى السماوات امر بتقديم الاكرام الالهي للثور الى الابد"

وبناء على هذا التقليد ترين ايتها الوالدة المحبوبة ان التجسُّد اساس عبادة اوسيرس وهذا الاعتقاد العام عند الناس بأن الخالق حلَّ في جسد مخلوق يبعث الانسان على الاعتقاد بانهُ في الاعصر السالفة نزل الاله من سمائهِ لاجل خير البشر وتجسَّد او انهُ سوف ينزل في ما بعد . ولعلَّ عبادة اوسيرس في صورة ابيس تكون ظلاً ورمزًا الى ما يأتي — فريضة الهية تُعِدُّ الناس لمجيء غير المنظور في صورةٍ منظورة . فايُّ يومٍ عظيم ومجيد يكون في الارض ان صحَّ هذا

وليس هذا زعمي يا والدتي العزيزة بل هو زعم ذلك الفيلسوف الحكيم رعمسيس الذي يتحقَّق اذا كان الناس يتألهون ان يكون بعد الموت في مصاف الآلهة . لان كلامهُ اشبه بوحيٍ هابط من السماء وافكار نفسهِ اعمق واسمى من كل ما في الاسفار المقدسة واسرار الكهنة بلا استثناء

والكهنة الذين يذهبون للتفتيش عن ثور آخر يهتدون الى مطلوبهم بالعلامات الخاصَّة المذكورة في كتبهم المقدسة وقد ذكرتها لكِ وفي غيابهم تُقام على الثور الميت مناحة عظيمة كأَن

اوسيرس "سيد السماء" نفسهُ مات ويظلُّ الحداد حتى يجدوا الضالَّة المنشودة ويظفروا بايس جديد فيُعلَن ذلك بواسطة سعاة يتفرَّقون الى كل المدن يبثون هذه البشرى والناس يتلقونها بفائق الفرح والسرور

والعجل المزمع ان يصير الاله الجديد يبقى محفوظًا مع أُمهِ في هيكل صغير متجهٍ نحو شروق الشمس ويُسقى حليبًا مدَّة اربعة اشهر وعند نهايتها يذهب موكب حافل بالكهنة والكتبة والانبياء ومفسّرو الفأل يتقدمهم رئيس الكهنة واحيانًا الملك الى حيث هذا العجل المقدس وذلك حين يكون القمر هلالاً ويسيرون بهِ الى سفينة صغيرة لها اثنا عشر مجذافًا يحملونهُ بها الى ممفيس فتخرج كل المدينة لاستقبالهِ بما لا مزيد عليهِ من الاحتفاء والاكرام ويُذهَب بهِ الى الهيكل المعدّ لهُ ثم تُقام اعياد يُقاد في اثنائها الاله الصغير ويُطاف بهِ في كل المدينة لكي يراهُ الجميع ويتبركوا بهِ

وعند موت ايس يخرُج كل الكهنة من الهيكل ويُترَك خاليًا موحشًا كأنهُ في حداد حزنًا على فقيدهِ

اما فروض الجنازة فيُحتفَل بها بما لا يُستطاع وصفهُ من الجلالة والتعظيم والتبجيل والتكريم . واحيانًا تفرَغ خزانة الهيكل المشحونة ذهبًا من ربع قرن وفي جنازة ايس الاخير انفق الكهنة مئة وزنة ذهبًا واعطاهم الامير مريس الذي ينتهز فرصة مثل هذه لاظهار تقواهُ واستمالة المصريين اليهِ خمسين وزنة اخرى

فوقها ليمكنهم من القيام باعباء النفقات الباهظة التي تكبّدوها حينئذٍ

وقد زُرت امس مدفن هذه الثيران المقدسة او سيرابس كما وجدت الاسم على القبر (وهو منحوت من اوسيرس ابيس) مع رئيس الكهنة فأراني الغُرَف او الحُجر المعدَّة كلٌّ منها لابيس. محنطٍ وموضوعٍ في ناووس او قبرٍ حجريّ وكانت هذه النواويس ستين ناووساً وعلى واحدٍ منها منقوش ما يأتي :

"الى الاله اوسيرس ابيس سيد نفس اوسيرس ومثال الشمس من امنس ملكة مصر العليا والسفلى"

وهكذا تريني ايتها الوالدة العزيزة قد اجتهدت امتثالاً لامركِ في ان ازيح لكِ النقاب عن محيًا لاهوت المصريين وطرق عبادتهم

والآن اعود الى القلم الذي القيته جانبًا بعد كتابة ما سبق من هذه الرسالة تفرُّغًا للذهاب الى الوليمة التي اعدَّها مضيفي الجليل وفيها لقيت كثيرين من سادة ممفيس واعيانها — ناظر الخاتم الملكي وناظر خزانة وخواتم قصر الملكة وناظر المالية هؤلاء عرفتهم جيدًا لانني اجتمعت بهم قبلاً على مائدة الملكة . وكثيرين غيرهم ممن لم أرهم قبلاً — ناظر فيضان النيل ورئيس النقّاشين ورئيس البنّائين وناظر مدرسة الصنائع والفنون ورئيس كهنة هياكل متعدّدة لاثور وبثاه وهورس وموت وامون وكان ما علا

اولئك السادة الاعيان جماعة من السيدات الشريفات زوجات المتقدم ذكرهم وبناتهم وقد جئنَ الى الوليمة مدعوّاتٍ من الاميرة نايسا زوجة رئيس الكهنة مضيفي . وهي من ابهى السيدات (ثانية الملكة) اللواتي شاهدتهنّ في هذه الارض الجميلة النساء

وقد جلست في هذه الوليمة مقابل ابنة كاهن اله الحرب البارعة الحسن والفائقة الجمال فطارحتني مسائل كثيرة عن صور وعنكِ وعن السيدات الفينيقيات وتبسّمت ناظرة بعين العجب حين اخبرتها ان لي خطيبةً هي الاميرة ثامونلا وسألتني اذا كانت جميلة كنساء مصر ثم سألتني عن مقدار مملكتكِ وعما اذا كانت دمشق على الدوام قسمًا من فينيقية ولما اخبرتها بانكِ تسودين على مملكة مؤلفة من عدة ممالك اصغر منها كانت قبلاً مستقلةً لكنها الآن اتحدت معًا قالت انهُ يخشى بعد وفاتكِ ان ملوك اولئك المدن المستقلة ينزعون الى قطع رُبط هذا الاتحاد وينقصون من بهاء التاج المزمع ان البسهُ فاجبتها يكفيني ان اكون ملك صور وشبه جزيرتها فقالت

"نعم صور مفتاح غنى الارض"

وقد نقلت اليكِ شيئًا من حديثها معي لأُريكِ ان فتيات مصر الشريفات المحتد نائلات حظًا وافرًا من المعرفة ونصيبًا عظيمًا من سموّ الادراك

وسأصف لكِ الآن زيارتي للاهرام وان كنت قد اشبعتُ

الكلام عنها في رسالتي الى الاميرة ثاموندا فاني سرت مصحوباً بضيفي وبعض الاشراف اصدقائهِ واصدقائي في مركبات واجتزنا بوابة المدينة وحرّاسها الذين حيّوا رئيس الكهنة بفائق الاحترام منطلقين في زقاق مزدان على جانبيهِ بخمائل الاشجار حتى وصلنا الى بحيرة جميلة — بحيرة الموتى — مجتازين موكب جنازة . ولكل مدينة في مصر بحيرة مثل هذه وهنا اذكر لكِ الغرض منها فهي متعلقة بمجاز الموتى من هذا العالم الى العالم الآتي لان المصريين لا يؤمنون فقط بحالة مستقبلة بل يعتقدون ايضاً بثواب او عقاب عتيد للنفس

وحينما يموت واحدٌ من اهل الوجاهة والامتياز يُعطى جسدهُ في اليوم الثاني او الثالث للمحنطين وهم جماعة من الشعب صناعتهم تحنيط الموتى يسكنون بيوتاً مفرزة على حدة في المدينة لاجل هذه الغاية . فيُعرَض على اهل الميت ثلاثة امثلـــة من انواع التحنيط المختلفة ليختاروا منها واحداً يناسب مقدار النفقة التي يريدون ان ينفقوها على تحنيط جسد فقيدهم. وقد قال رئيس الكهنة حين اشرفنا على بحيرة الموتى التي كان موكب الجنازة سائراً نحوها من المدينة "ان اسمى تحنيط واكثرهُ نفقة ما كان فيهِ الجسد مشابهاً لاوسيرس والعادة المستفيضة بيننا ان الذي يشقّ الجسد اولاً بصوانة استعداداً للتحنيط يكون مكروهاً لعملهِ هذا ويضطرّ ان يركن الى الفرار متعثراً بالشتائم واللعنات ومرجوماً بالحجارة ولا

ريب في ان الرجل الذي رأيناهُ هاربًا من بيتٍ في هذا الصباح عند اجتيازنا كان واحدًا منهم"

وان كان الميت من اهل الرتب يبقى جسدهُ عند المحنطين سبعين يومًا واذ ذاك اما ان يُرجع الى البيت ليبقى مدَّة اطول او اقصر — حسب تعلُّق اهلهِ بهِ ورغبتهم في مفارقتهِ — او يُعدّ للدفن . وفي مدَّة السبعين يومًا يقيم اهلهُ المناحة ممزقين ثيابهم وقارعين صدورهم وذارين ترابًا على رؤُوسهم . اما مناحات الفراعنة فكما أُخبرت تكون عظيمة جدًّا يشترك فيها كل اهل المملكة في طقوس ومواكب واحتفالات يعجز القلم عن وصفها

وقد اوقفنا مركباتنا لنشاهد موكب الجنازة الخارج من ممفيس الى شاطئ البحيرة

فجاء اولاً في مقدمتهِ سبعة موسيقيين يوقعون الحانًا محزنة على القيثاير والنايات والجنوك والعيدان . وتلاهم خدامٌ حاملون اطباق ازهار وآخرون حاملون سلالاً فيها كعكٌ وثمارٌ واقداح خمر بلورية وغلامان يقودان عجلاً ليقدَّم عن المتوفَّى وغلامان آخران يحملان في سلَّة ثلاث وزَّات للتقدمة ايضًا . وغيرهم حاملون كراسي وموائد ومناشف وما شاكل من الامتعة. وآخرون حاملون ذخائر فيها آلهة او تماثيل اجدادهم وسبعة رجال حاملون خناجر ومراوح ونعالاً وقسيًا . ثم رأيت بعدهم ثمانيـة رجال يحملون مائدة عليها تقادم ومطرزات ارائك ووسائد وصناديق

مرصعة ومركبة من عاج مصفحة حواشيها بالفضة وهذه كلها كما اخبرني رئيس الكهنة تخصُّ المتوفَّى الذي من شارته على المركبة عُرِف انهُ رئيس "ناظر الجنان الملكيَّة" وجاء على اثر المركبة سائقها يقود جوادين كريمين معدَّين لجرّها لكنهما مفودان ووراءها اجلالاً لصاحبها الفقيد

ثم جاء شيخٌ عبرانيٌّ جليل الصورة وقور المنظر . واذ ادهشني ان ارى واحدًا من هذا الشعب غير مثقل بعمل اللبن ولا مثخنٍ تحت أعباء الاحمال اطلتُ فيهِ تفرُّسي فاذا بهِ البستاني عمرامي او عمرام الذي شاهدتهُ كثيرًا قبل الآن في جنَّة الملكة وقد دعاهُ رعمسيس الى هذه الخدمة لانهُ كان مربيّهُ في الصغر . وهذه عادة الاشراف هنا ان يتخذوا من العبرانيين مربين او مربيات لاطفالهم

ويظهر انهُ لما كان رعمسيس طفلاً كانت زوجة هذا الشيخ العبراني الجميل الطلعة ترضعهُ وتربيهِ وقد ذكرتُ لكِ سابقًا ما بين هذا الشيخ ورعمسيس من المشابهة الشديدة حتى انهُ لو كان اباهُ (ان جاز لي ان اتكلم هكذا عن وليّ عهد) لما اشبههُ باكثر من هذا

هذا الشيخ الجليل المناهز السبعين كان حاملاً اضامةً او باقةً من الازهار مقلوبة دليلاً على ان سيدهُ ناظر الجنان ليس موجودًا بعد . ووراءهُ لا اقل من خمسين بستانيًا دونهُ في

الرتبة بينهم اربعة او خمسة من العبرانيين والباقون مصريون وفرس

ثم جاء صندوق كبير من الشبهان بحملة الكهنة يتضمن المال الذي تركهُ الفقيد لهيكلهم وبعدهُ جاء واحدٌ حاملٌ اسلحة وآخر مراوحهُ وآخر خواتمهُ واطواقهُ المرصعة وقلائدهُ معروضة على ملاءة من حرير ازرق

ثم جاء اربعة مبوّقين وصنّاجٌ او ضاربٌ بالصنوج يوقّعون لحنًا مع فرقة من المغنين يسمّى "لحن الابطال"

وعلى اثرهم جاء قارب صغير مقدّس بحملة ستة رجال مرفوعًا ليرى "عين اوسيريس" السرية واثنا عشر رجلاً حاملون على اكتافهم سلالاً فيها أزهار وآنية بلورية للسكائب . وفرقة كبيرة من النساء المأجورات عاصبات جباههنّ وقارعات صدورهنّ المكشوفة وحاثيات ترابًا على رؤوسهنّ . نائحات نادبات الفقيد ومعدّدات مآثرهُ وفضائلهُ

ثم جاء كاهن الحفلة وعلى كتفيهِ جلد النمر المقدّس وفي يدهِ مجمرة وإناء للسكيبة مصحوبًا باتباعٍ حاملين معدّات مختلفة . ووراء هذا الكاهن اقبلت مركبة بدون عجلات يجرّها اربعة ثيران بيض وسبعة رجال وعليها القارب المقدّس المتضمن التابوت او الناووس وبجانبهِ كاهن هيكل هورس وكان الناووس مزدانًا بالازهار والصور وقد تُرك من جانبهِ مفتوحًا ليعرض الموميا

او الجسد المحنط للنظر

اخيرًا جاء اقرباء الميت المذكور واصدقاؤهُ ومعهم من قبَل الملكة ناظر التشريفات وعلى اثرهم رجال دلّت ملابسهم الفاخرة على انهم من اهل المكانة والشرف وفي المؤخرة فتى يلقي الى الارض من سلّة في يدهِ زهرة حندقوقى كلما سار بضع خطوات

واذ قد اطلت هذه الرسالة اكثر من المعتاد اختمها بدعاء بطول بقائكِ وخضوع ومحبة لاقنومكِ الموقَّر

من ابنكِ

سيسوستريس



الرسالة الرابعة عشرة

مدينة ممفيس

والدتي العزيزة

اعود الى تتمة ما بدأت به في ذيل رسالتي السابقة من وصف مأتم او جنازة "ناظر جنان الملك" فاقول

لما بلغ الحشد الدرجات التي يهبط منها الى البحيرة المقدسة وُضع التابوت في قارب مذهب مكرّس للموتى وركب انسباء الميت واصدقاؤه وجميع الخارجين في جنازته قوارب أُخر عديدة مجتازين البحيرة حتى بلغوا شاطئها من الجانب المقابل وهناك انتظموا في موكب حافل كما كانوا قبلاً وساروا في "شارع القبور" وعبروا مضيقة ودخلوا بوابة مدفن ممفيس الكبير ثم اخرجوا المومياء من الناووس عن المركبة واوقفوها في حجرة القبر

ثم نضح احد الكهنة جميع الحضور بماء مقدس وأُحرق البخور امام مذبح القبر وسكبت السكائب وأُجريت طقوس أُخر. وفي الختام عانق الاصدقاء الباكون المومياء وانشد المغنون من الخارج لحن الدفن

ثم استأنفنا مسيرنا الى جهة الاهرام ذاهبين في طريق يدعى "الطريق المقدس" الذي يبتدئ من عند هيكل الاه الرباح ممتدًا نحو فرسخ في سهل فسيح الارجاء وهو غاصٌّ بالذاهبين الى المدينة والخارجين منها وبجماهير كثيرة راجعين من دفن موتاهم او من زيارة مدافن انسبائهم. وفي طريقنا جئنا مقابل مدفن عظيم امامهُ جمهورٌ غفير وقد خرجوا في جنازة سيدة ولم أرَ قط أبهى من التصوير المزدان بهِ صندوق او تابوت المومياء فكان كلهُ مغشّى بالهيروغليف والصور الرمزية من جملتها امثلة حيَّة مجنَّحة وكركي وخنفساء

واذ ذاك تقدَّم واحدٌ بلباس كهنوتيّ وهيئة وقورة ولمس التابوت بعصاهُ وقال بصوت عالٍ

"حسنًا ليُدفن الصالحون ولتسكن نفوسهم مع اوسيرس. لم يقض عليها بشيء في محاكمتها فلتُدفن"

واذ سألت رئيس الكهنة عن المقصود بهذا اجابني:

هذا يشير الى قضاء او دينونة اوسيرس ولم نشاهد شيئًا مثلهُ عند البحيرة لان ذلك الميت جيء بهِ من اون ودين او حُوكم عند

اجتيازه النيل ولو اسرعنا في مجيئنا الى هنا وشاهدنا هذه الجنازة التي جيء بها من المدينة الى البحيرة لرأينا اثنين واربعين شخصاً منتخبين كقضاة قائمين في مجلس حجريٍّ على شكل نصف دائرة على الشاطئ ينتظرون وصول الجنازة فيُسار بالقارب الحامل الجسد اليهم ويوضع التابوت قدامهم وحينئذٍ بينما يكون جميع الخارجين بالجنازة من انسباء واصدقاء ومعارف واقفين يقف احد القضاة ويسأل ان كان لاحد الحضور شكوى تُقام على الميت . فان كان الفقيد قد أساء في حياته ظالماً او متعدياً يتقدم المُتعدَّى عليهِ او احد انسبائهِ ويُعلن شكواهُ فيُنظَر فيها فان تحققت تُوقَف طقوس الدفن التي كانت مزمعة ان تلي هذه المحاكمة ويُلغى اجراؤُها"

وقد حضرتُ محاكمة كهذه في رجوعنا من الاهرام وكان الميت امرأة من اهل الرفعة والوجاهة فقال المشتكي متقدماً امام القضاة :

"أشكو الفقيدة بأنها امانت اباها جوعاً"

فاجاب القاضي منقطباً :

"ان هذه جريمة عظيمة في نظر شرائعنا لان البنات يجب عليهنَّ بخلاف البنين ان يعلْنَ والديهنَّ الفقراء وقد عرفت الفقيدة هذا الامر وكان في استطاعتها إجراؤُهُ فاين البيّنات ؟

فتقدم ثلاثة اشخاص وشهدوا بصحة الدعوى وكان الحكم من لدن القضاة :

"لا تستحق المتوفاة ان تعبر بحيرة الموتى . ودفنها ممنوع"

واذ ذاك عمّ صراخ انسباء الميتة باصوات الويل والشقاء فأعيدت المومياء الى المدينة لتبقى في البيت مذخورة مدّة سنين معيّنة حتى يُجاز لها بطقوس وفرائض معلومة ان تُدفَن في مدافن الاشرار"

واذ ذاك سألت رفيقي رئيس الكهنة :

"ما هي حالة النفس بعد الموت ؟"

"ان هذه من جملة الاسرار ولكن بما انك مطّلع على معرفة ما في كتب بلادكم السريّة لا بأس ان أُطلعك على ما في كتبنا من هذا القبيل . ونحن كهنة ايس لا نتفق مع كهنة اوسيرس في اون في هذا الموضوع"

"وما هو اعتقاد كهنة اون ؟"

"ان النفس خالدة (وفي هذا لا نخالفهم) وانه عند انحلال الجسد تدخل النفس جسد ادنى الحيوانات وبعد ما تكمل دورتها في اجساد جميع حيوانات البر والبحر واطيار الهواء تعود الى جسد طفل عند ميلاده"

"فاذاً يكون هذا المعتقد الباعث على حفظ الاجساد بالتحنيط لتعاق النفوس عن التناسخ والانتقال الى اجساد الحيوانات"

"لا ريب في ان تحنيط الموتى نشأ عن التعليم بتقمّص النفوس

والمدّة التي تستغرقها دورة النفس في التناسخ على المنوال المتقدم ثلاثة آلاف سنة . هذا تعليم كهنة الشمس وليس للتناسخ عندهم ادنى علاقة بعقاب او ثواب . واما نحن فنقول ان اوسيرس يُرجع النفس الخاطئة الى الارض لتحلّ في جسد خنزير عقاباً لها حتى تكفّر عن آثامها وبعد ذلك يُسمَح لها بالدخول في الحضرة الالهية"

"وما هي محكمة اوسيرس او مجلسهُ ؟"

"ان الموتى يحملون معهم الى القبر صحيفة من البردي مكتوباً عليها عنوانهم الى الآلهة والاعمال التي اهّلتهم لدخول السماء وحين تبرح الروح او النفس القبر يلاقيها هورس بن اوسيرس ويقودها الى ابواب مساكن الآلهة . وعند المدخل كلب حارس له اربعة رؤوس—رأس ذئب ورأس اسد ورأس حية ورأس دب وعند بوابة الحق تجلس الاهة العدل وميزان الذهب الكبير منصوب بينها وبين البوابة . والقائم على هذا الميزان الاله انوبيس . ومن هذه البوابة يُستشرَف على الاله اوسيرس مستوياً على عرشهِ

"وعندما يصل هورس بالنفس الى بوابة الحق ويروم الدخول بها توعز اليه الاهة العدل ان يقف لكي توزن اعمال تلك النفس الصالحة والطالحة واذ ذاك يضع انوبيس وعاء متضمناً كل الفضائل البشرية في كفّةٍ وقلب المتوفَّى وبعض الاحيان النفس ذاتها في الكفّة الاخرى فيعلن هورس ما نتج عن الوزن للاله ثوث المسجّل الجالس قريباً من البوابة فيرقمهُ على لوحهِ

الحديدي والكلب يراقب الوزن بعينين متقدتين بجمرة الغضب متوقعاً بتلهف شديد افتراس النفس فان رجحت الاعمال الصالحة يأخذها هورس بيدٍ ويأخذ اللوح الحديدي باليد الاخرى ويتقدم نحو ابيه اوسيريس الجالس على عرشه قابضاً على عصاهُ وسوطه منتظراً افادة ابنهِ عن حالة النفس . فيجتاز هورس بالنفس من بين اربعة من الجنّ ويتقدّم امام ثلاثة آلهة جالسين قبالة العرش فيسألون عن النفس وبعدما يريهم لوح ثوث يجيزون لهُ ان يمرّ وحين يقف امام ابيهِ والنفس بجانبهِ يقدّم اللوح لهُ مرقوماً عليهِ ليس فضائل النفس فقط بل كل ما اقترفتهُ في حياتها على الارض من الذنوب . فان ارضتهُ نتيجة الوزن يمنح النفس ريشة نعام مثال الحق وحينئذٍ يعطيها احد الآلهة الثلاثة وعاء متضمناً كل الفضائل اذ تكون خطاياها القليلة قد غُفرت . ويعطيها الثاني عصابة مرصّعة بالجواهر مرقوماً عليها "مبرّرة" . والثالث يتحفها بمثال الحياة . واذ ذاك يلاقيها اسيس ويجتاز بها بوّابات ذهبيّة تفتح على نغمات الهية ويدخلها الى مناظر سماوية فائقة السناء شائقة البهاء . فتسكن في قصور الآلهة وتنعم بالجلوس بجانب انهار بلورية وتسرح في جنان الخلد مستوطنةً مع سيد الشمس وكل الآلهة الخالدين . في مجدٍ يدوم الى ابد الآبدين"

هذا كلهُ أملاهُ عليّ رئيس الكهنة بانتعاشٍ وارتياح كمن هو موقنٌ بما يقولهُ فسألتهُ :

" وماذا يكون من امر تلك النفس التي ترجح سيئاتها على حسناتها او اعمالها الطالحة على الصالحة ؟ "

" ان نفساً كهذه لا ترى اوسيرس ولا يكون لها حظ التمتع بما سبق ذكرهُ من الامجاد الخالدة ولا تسمع صوت الاله العظيم قائلاً لها: 'انكِ مبرَّرة ايتها النفس ادخلي بوابة الحق:' وان كانت النفس بتناهية في الاثم والطلاح وخلوًا من كل برّ وفضيلة وصلاح يرفع هورس يدهُ عنها فينقضّ الكلب عليها ويفترسها بلحظة. ولكن ان وُجد لها فضيلة او فضيلتان — من مثل اكرام الوالدين او تخليص حياة انسان او اطعام جائع لا يؤْذن للكلب في افتراسها بل تُقاد بهورس الى عرش اوسيرس الذي يطالع لوح ثوث عابسًا متطبًا ويشير بصولجانهِ قاضيًا عليها حسب جرم خطيئتها فيذهب هورس ويأتي الاهان شريران من مملكة تيفون ويخرجان بها "

" وبماذا يُقضى عليها ؟ "

" بأن تُقاد الى الالهة العدل فترسم على جبهتها حكم اوسيرس عليها وعلى النور تتقمص خنزيرًا او حيوانًا آخر دنيئًا وحينئذٍ يدعو الاله ثوث سعدانين يذهبان بها الى قارب ويعبّرانها الى الارض ويُقطع الجسر الذي عبرت منهُ بيد انيوبيس المتمثّل بصورة انسان في يدهِ فأس "

" بما ان كل شيء في التقليد المصري رمزيٌّ فعمَّ يكنى

بهذين السعدانين ؟"

"ان السعادين رمز الى ثوث اله الزمان او الوقت ويستفاد من كتبنا السرية ان الانسان نشأ من السعدان واستمر صاعداً في سُلَّم الارتقاء حتى بلغ ما هو عليهِ الآن . واوسيرس يقضي على النفس الخاطئة بالانحطاط الى درجة السعدان لكنهُ يُوجب عليها الحلول اولاً في جسد خنزير انجس كل الحيوانات والتنقل من حيوان الى آخر حتى تبلغ السعدان ومنهُ الى جنس البرابرة السود الذين لهم ايدٍ كالقرود ومنهم الى الانسان الحنيفي وحينئذٍ يمكنها بمزاولة الفضيلة وتنكُّب الرذائل ان تنال بعد الموت حظ القيام في حضرة اوسيرس وهنا يجب ان اقول ان نفوس الذين لا يدفنون لن تدخل بوابة الحق"

وهنا اذ قد اطللنا على المدخل العظيم لهيكل هرم كيوبس انقطع رئيس الكهنة عن الكلام

وكانت بوابة الاهرام مخفورة بكهنة على رأس كلٍّ منهم خوذة من فضة وفي يدهِ سيف قصير معلَّق غمدهُ بمنطقة من جلد نمر وكان عدد اولئك الكهنة الفتيان ثلاث مئة وستين على عدد ايام السنة عند المصريين قديماً وضبَّاطهم الخمسة يرمزون الى الخمسة ايام التي اضافها الآلهة

فقال لي رئيس الكهنة :

"هولاء الفتيان كلهم بنو آباء كانوا رجال حرب وهم

يريدون ان ينخرطوا في سلك الكهنوت ولهذا تراهم يترشحون له وبعد ما يخدمون سنة حرّاسًا لاعظم هيكل يرتقون الى درجة أعلى ويعوَّضون عن السيف عصا الرعاية ومنها يُرفعون الى درجة يكونون فيها حَمَلَةَ آنية السكائب ومساعدين في الذبائح والتقدمات"

وعند دخولنا حيّنـــا فرقة منهم عددها ستون (لانهم منقسمون الى ست فرق) ولما بلغنا الدار داخل البوابة بدا لعيني منظرٌ متناهٍ في العظمة والفخامة فتصوَّري رواقًا ذا قنطرتين قائمًا على عمودٍ يمثّل اعظم ما بلغت اليه يد الصناعة في المهارة والاتقان ومن تحت هذا الرواق ممشّى انيق مسافة الف ذراع وفي نهايتهِ ابو هول كبير الحجم هائل الصورة رابض على طرف قاعدة الاهرام الشرقي وله وجهُ رجل حرب شديد المهابة سامي الجلال ومع انهُ رابض على الارض ترين قمة جبهتـــهِ تعلو سبعين قدمًا عن الحضيض . وهذا التمثال العظيم رمزيٌّ نظير باقي العُمد المصرية ويمثّل القوة او القدرة متحدة مع العقل

وقد علمتُ من رئيس الكهنة ان شيفرا احد فراعنة دولة قديمة في مصر باشر بناءهُ . واذ كنا قد ترجّلنا الى الارض تمكنت بزيادة من التأمل في هذا الصنيع الهائل فكان بين مخلبي ذراعيهِ اللذين طولهما خمسون قدمًا هيكل صغير انيقٌ وعلى رأسهِ خوذة فيها حيةٌ ذهبية وله لحيةٌ عظيمة تتدلّى على صدرهِ ومنها الى قدميهِ

قمة الهيكل المقرّبة فيه الذبائح والتقدمات يومياً للاله ومن على جبهته يرتفع الهرم العظيم متسامياً وابو الهول هذا دائبٌ على حراسته.
فقال لي رئيس الكهنة :

"أرى ان جلال هذا التمثال قد شاقك الى الغاية"

"نعم فانهُ يفوق كل آلهة مصر بهاء وجلالاً"

"وهو يكاد يكون معاصراً للهرم"

"ألم أرَ في قاعدة المسلّة اليسرى التي في مقدّمة هيكل اوسيرس اربعة تماثيل من هذا النوع (ابي الهول) ؟"

"بلى . وتلك المسلّة متناهية في القدم ومع ذلك وُجد هذا التمثال الهائل قبلها بزمان طويل راسخ القدم ثابت الدعائم كما تراهُ الآن"

وبعد ما جئنا الى تمثال اوسيرس الحجري وتمثال هورس الشبهاني وهبطنا ثلاثين درجة عريضة بلغنا فسحةً بين قدمي ابي الهول وامام الهيكل الجميل

فاستقبلنا كاهن بثياب كهنوتية عند الباب ودخلنا وراءهُ واذ كان وقت التقدمة اخذ بيدهِ مجمرة وتقدم بها نحو مذبح في صدر الهيكل . اما زخارف هذا الهيكل وتحفهُ وذخائرهُ والاشياء النفيسة التي في خزائنهِ تشهد بصحة القول المشهور ان هيكل ابي الهول اغنى هياكل مصر وارفعها شأناً في عيون فراعنتها

وبعد ما خرجنا من الهيكل صعدنا على درجين الى مرتفعات

مزدانة بتماثيل الآلهة ومنها عن يسار ابي الهول الى سطحٍ وراءهُ عليهِ تمثال قديم العهد لشيفرا العظيم دائساً تحت قدميهِ تنيناً وعلى رأسهِ مقدَّم سفينة او فلك ورأس حمامة وجناحاها وفي هذا اشارة الى الطوفان والحمامة التي قادت السفينة التي قلّت شيفرن او شيفرا واباهُ والاله نوحس او نوح . ومن هذا السطح شاهدنا امامنا كلا الهرمين بينهما هيكلاً فسيحاً مادّاً ذراعيهِ الى كلٍّ منهما ومعانقاً لهما كتوأمين في المهابة والفخامة والعظمة الفائقة حدَّ الوصف . فلبثت برهةً واقفاً شاخصاً بعين الخشية والاجلال حتى اني لو أُخذت بغتةً وأُوقفت في حضرة اوسيرس لما شعرت بمثل هذه الخشية التي اعترتني الآن

ابنكِ المحب المطيع

سيسوسترس

الرسالة الخامسة عشرة

مدينة اون

والدتي العزيزة المكرمة

كل ما شاهدتهُ في زيارتي للاهرام دليل واضح على ان قدماء المصريين الذين بنوها ودُفنوا فيها كانوا امة كثيرة العدد عظيمة القوة وفي مقدمة جميع الامم والشعوب علمًا وصناعةً واستنباطًا والشاهد على ذلك ليس في مدن الاحياء فقط بل في مساكن الموتى ايضًا حيث ترَينَ آثار حذقهم وذكائهم وسلامة ذوقهم ناصعة البيان باقية على رغم فواعل الفناء وكوارث الحدثان

وقد جئنا الى مدخل الهيكل القائم بين الهرمين من دار مرصوفة بالغة غاية الفساحة بحيث يمكن ان يساق فيها مئتا مركبة صفًا واحدًا. وهي محاطة بصفَّين من العُمُد الضخام ومزدانة رؤوسها

بتماثيل الملوك والرسوم المقدسة الرمزية ولكن بعض هذه الزخارف قد طمستها يد الزمان العاملة على محو وازالة كل ما فيها من الرونق والبهاء

وبعد ما طفنا حول هذه الدار العظيمة شرعنا في الصعود الى الهرم الاكبر المعروف بهرم كيوبس . واما الثاني فهو هرم شيفرا . والثالث المنفصل عنهما الى الجنوب مستقلاً بعظمة بهائهِ وفخامة بنائهِ هرم فرعون — من — شرنيس . وقد وجدت الصعود صعبًا الى الغاية . وحقًا انهُ كان في القديم مستحيلاً ولكن كرور الازمنة خدشت صقالهُ وازالت ملامستهُ وجعلت في اماكن مختلفة منهُ تخاريب ومع ذلك اسعفنا على الصعود كثيرون من خدام الهيكل الذين من كثرة الاستعمال يصعدون بكل سهولة

ولما بلغنا نصف المسافة شعرنا بالتعب فجلسنا على حجر منتقل من مكانهِ باحد فواعل الطبيعة نستريح بضع دقائق واذ ذاك تطلعت الى اسفل فاصابني الدوار من شدَّة الارتفاع لاننا اصبحنا على علوّ اربع مئة قدم فوق الارض او فوق قاعدة الهرم وتراءى لي اني محمول على اجنحة فوق هاوية عميقة واودُّ ان القي بنفسي الى وسط الهواء ودفعًا لهذا التصوُّر المخيف اغمضت عينيَّ والتصقتُ ممسكًا بالخادم الواقف بجانبي . ثم استأنفنا الصعود وبعد مشقةٍ لا توصف بلغنا القمة . وليس التعب بالشيء المذكور

في جانب الخطر المحدق بالصاعد الى الاهرام فانهُ في القرن الماضي سقط اميرٌ مدياني من هرم شيفرا الذي هو اصعب مرتقًى من هرم كيوبس او شوفو كما يدعوهُ الكهنة ومات

ولا اعلم كيف اصف لكِ ايتها الوالدة العزيزة جلال هذا المنظر البديع الذي انبسط لناظري من ذروة هذا الجبل الاصطناعي . فاني أرى الارض ممتدة امامي لا يحول دون رؤيتي لها حائل

واول ما لاح لناظري وادي النيل الجميل ممتدًا مسافة عدَّة فراسخ يمينًا ويسارًا وهو اشبه شيءٍ بمنطقة زمردية يجري في وسطها النيل كسلكٍ من لجين وحواشيها مزدانة بالمدن ومرصَّعة بها كما بحجارة كريمة . فالمدن الفخيمة والهياكل العظيمة والصروح الرفيعة والقصور البديعة . والعُمُد البالغة عنان السماء — والتماثيل التي لا مثيل لها في الرونق والبهاء . والجنان الناضرة . والرياض الزاهرة . والماشي المظللة بخمائل الادواح والاشجار . والشوارع المتسقة المنازل على جوانبها اتساقًا يدهش الابصار . والزوارق والقوارب . والمركبات والمراكب . والجماعات والمواكب . وغير ذلك من روائع المناظر وبدائع المظاهر . وجلائل المشاهد . المنتظمة في جيد المشاهد انتظام الفرائد في القلائد . ولا يليق بي السكوت عمَّا عرض لناظري ايضًا من الاهرام الواقعة الى الشمال والجنوب تبلغ المئة عددًا . وكلها مع كونها اصغر من الاهرام الثلاثة

الكبيرة تكاد تطاولها عظمةً وفخامةً وبهاءً ومجداً . وفيما انا ناظرٌ اليها ومحوّمٌ بطائر الامعان عليها قال لي رئيس الكهنة :

" هذه كلها مدافن الملوك ولكن في عصر أحدث من عصر هذا الهرم ودونهُ قدماً . لان كل ملك كان في مبتدإ ملكهِ يضع اساس هرم فيبني اولاً هرماً صغيراً يسع ناووسهُ او حجرتهُ ثم يضيف اليهِ من الخارج كل سنة طبقة او صفاً من الحجارة حتى يمتدَّ على توالي السنين سعةً ويزداد ارتفاعاً وعليهِ يكون حجم الهرم دليلاً على السنين التي عاشها بانيهِ "

" فاذاً يكون الملوك الذين شادوا تلك الاهرام الصغرى التي تراها من هنا عاشوا سنين اقلّ من سني باني هذا المثلث الهائل (او الاهرام الثلاثة) "

" نعم فان باني هذه الاهرام الثلاثة عاشوا الف سنة "

" اذاً كان ذلك قبل عهد الطوفان ؟ "

" نعم يا وليَّ عهد صور ان هذين الهرمين العظيمين بناها على ما في كتبنا المقدسة الجبابرة الذين عاشوا قبل طوفان نوحس او نوح وهما مدفنـــا ملوكهم وقد استغرق بناؤُها قروناً طوالاً . ولما ارسلت الآلهة اوقيانوسات مجهولة على الارض عقاباً للامم (التي بعدما عمّرت طويلاً واشبهت الآلهة في الحكمة تجرت على تراخي القرون) ظلّت مرتفعة الرؤُوس فوق مياه الطوفان وبقيت الى الآن شاهدة ليس فقط على طغيان المياه بل على أُمّةٍ

خلت كانت غاية في المنعة والصولة . وآية في قدرة الدولة . حتى ان ابراجها ومدافنها نطحت في روقها عنان السماء . ونازعت الدهر البقاء . وانك لترى عليهـــا اثر الحؤول والزوال . والاندثار والانحلال . وذاك من جرّاء تلاطم المياه الغامرة في مناكبها . وتزاحم تلك البحور الزاخرة للاندفاع على جوانبها . لانها كانت قديمًا – قبل الطوفان – مصفحة السطوح والجوانب باجرّ او قرميد جميل ملوّن بازرق ساطع وابيض ناصع على اشكال مربعة وعليها مرسومٌ بتصوير باهر وصف تاريخ الانسان ولكن لم يتوصل احدٌ قط الى استجلائهِ وتفسيرهِ . وانك لترى يا صاحب السموّ هنا على هذه الذروة بعضًا من تلك الصفائح باقية في رونق تصفيحها واما الباقي فقد خدّشت وضّاءهُ عاديات المياه عند التطامها وأزالت رواءهُ وبهاءهُ السفن الكبيرة المحمولة على متن التيارات حين ارتطامها

وهكذا ترى هذه الاهرام العظيمة لا تنفأ على رغم ما ألمَّ بها من كوارث الحدثان . وعوادي الطوفان شاهدة على ما نابها في سالف الازمان . وناطقة بسنائها الداثر . وبهائها الغابر بغير لسان. وبعد انقضاء الطوفان قصّرت الآلهة عمر الانسان وحتمت بأنهُ لا يتجاوز المئة سنة ولذا ترى ان تلك الاهرام التي بناها الملوك بعد الطوفان دون هذه في الكبر والعظمة

" ولكن ألم يبنَ ثالث هذين الهرمين قبل الطوفان ؟ "

" قبل الطوفان شرع في بنائهِ الملك الذي أُهلك في هذا الفضاء الهائل ولكن اكملهُ بعد ذلك ابن نوح الذي عاش مئات من السنين نظير ابيهِ – وذلك كان بعد الطوفان – لان القضاء يجعل حياة الانسان مئة سنة فقط على نسلهِ ونازلاً . وهكذا اكمل امون – على ما في تقليدنا – الهرم الثالث لكنهُ لم يصحبهُ كالهرمين الاولين لان هذه الصناعة كانت قد ذهبت بذهاب اصحابها في الطوفان

وتوجد اقاويل أُخر غير هذه في شأن الاهرام لكنَّ بعضها يقرب مما ذكرتهُ لسموِّك وبعضها لا يوثق بصحتهِ "

" اذاً هو رأيك الخصوصي ان هذين الهرمين بناهما الجبابرة قبل الطوفان "

" لا ارتني سواهُ . وحين تعيَّن عمر الانسان مئة سنة بعد ما كان الفاً قصرت قامتهُ ايضاً ومن هذا ترى ان الناس من بعد الطوفان الى الآن لم يعودوا قادرين على بناء هرم مثل هذين لان اكبر آلات رفع الاثقال لا تقوى على رفع حجارة كهذه الى علوّ ست مئة قدم . بل عملٌ كهذا من خواص الجبابرة "

" فاذاً تعتقد بوجود جبابرة كانوا في الارض قبل الطوفان ؟ "

" ان هذين الهرمين يشهدان بصحة هذا المعتقد ونوح نفسهُ حسب تقليدنا وبنوهُ شيفرا (او شيفرس) وشوفو وامون

منشريس كانوا جبابرة وهم معبودون كما لا يخفى عليك كالمهة
ليس فقط هنا وفي فينيقية وبلاد الحبشة بل ايضاً في عبر البحر
تحت اسماء مختلفة . وفي الهرم الثالث دُفن امون وفي الثاني شيفرا
او شيفرت الذي بعدما طعن في السن أُتي بهِ من قصره حيث
مات ووُضع في ناووس فوق الحجرة التي دُفن فيها الملك الذي
كان قبل الطوفان . وداخل هذا الهرم الواقفين عليهِ عظام
نوح الذي بعد ما عاش تسع مئة وخمسين سنة اتى الى هنا لكي
يُدفن بجانب ابنهِ الاكبر شيفرا وجاء في اسفارنا " ان الارض لم
تشاهد ولن تشاهد ابداً اعظم من مناحتهِ التي اشترك فيها كل الامم
الخارجة من صلبهِ لان جميع الملوك والملكات والامراء والسادة
الشرفاء من كل مملكة ساروا في جنازتهِ وراء جسد ابيهم والههم
المحنط وصعد الملك منس خفيةً من مصر بكل جيوشهِ ليستقبل
موكب الجنازة والجسد الالهي وليس كيوبنس سوى اسم آخر لنوح.
وهنا ايضاً مدفن منس "

هذا هو تقليد الكهنة من جهة الاهرام اما نحن في صور
فتقليدنا ان ابا الطوفان مدفون في دمشق ولكن مع ان المصريين
مُغرمون بجعل بلادهم مدار الحوادث التاريخية ومنشأ الجنس
البشري فتقليدهم اصحّ من تقليدنا ولذا تريني ابنها الوالدة العزيزة
لا انازع مصر ما تدّعيهِ لنفسها من الفخر بكونها مدفن الجبابرة
الذين بقوا احياء الى ما بعد الطوفان

وأية مدافن احرى او اليق باولئك الاسلاف الكرام من هذه الاهرام . حتماً ان هذه الابنية المتناهية في السعة والارتفاع والمتانة تليق بأن تكون مدافن اولئك الجبابرة العظام الذين كان يعيش الواحد منهم الفاً من الاعوام

وبعد ما اطلقت لناظري عنان التأمل في ارض مصر واجلتهُ في مدنها العامرة بالسكّان . الزاهرة بالحضارة والعمران . ثملتُ براح الافتتان والاعجاب . وقلتُ من فرط الانذهال والاستغراب

"ايــ مصر القديرة المجيدة . والغنية السعيدة . ثراكِ ثراه . وماؤكِ خصبٌ ونماه . وارضكِ سعةٌ ورخاه . وسماؤكِ سماه يمنٍ وهناه . ورغدٍ وصفاه . وانتِ واطئةٌ بأحد اخمصيكِ على سبعة مصابّ نيلكِ وبالآخر على هامة الحبشة ورأسكِ بنطح السحاب وكل الامم تعنو لعظمة شأنكِ وعزّة سلطانكِ . فيا سيدة ممالك الارض اي مستقبل يكون لكِ ان كان ملوككِ وحكامكِ صادقين مخلصين لكِ ولانفسهم"

فلما سمعني رئيس الكهنة انطق بهذه الكلمات اجابني :

"ليس في استطاعة انسان ان ينبئ عن مستقبل مصر . ولكن في كتبنا المقدسة نبوءة مفادها انهُ في مدّة او دور تناسخ نفسٍ اي ثلاثة آلاف سنة تكون مصر أمّةً حقيرة يسودها ملوك غرباه ولا يبقى لها سوى اهرامها وهياكلها التي تظلُّ

موضوع عجب واستغراب كل اقاصي الارض الذين يأتون لمشاهدة هذه الآثار الشاهدة على مجدها الزائل . وسلطانها القديم الحائل "

" لا سمحت الآلهة بذلك "

" ان الآلهة يسودون الارض ويفعلون ما يشاؤون بما لكها وتلك الصحف البردية المقدسة تتكلم ايضاً عن صور وتنبئ بخرابها وتقول بأن مملكة التجارة تنتقل الى عالم مجهول وراء بحر الغرب العظيم وان شعباً لم يولد بعد يسود على الارض وديانة أخرى تعم في قلوب الناس "

" ما هي هذه الصحف ؟ "

" اسفار خلفها الملوك الأول الذين تسلموها من الآلهة القدماء "

فساءني جداً مفاد هذه النبوءة والافتكار بأن صور الجالسة الآن كالملكة على شواطئ بحرها تصير الى الخراب . وبعثني على مزيد الحزن والاكتئاب . لا زال بدر نجاحها قرين التمام والكمال . وادواح سلامها وارفة الظلال . ما كرّت القرون وتعاقبت الاجيال

وعند المغيب هبطنا من ذروة ذلك الهرم العظيم واسرعنا الى المركبة نحث السير راجعين الى المدينة

وبعد رجوعي الى قصر رئيس الكهنة ذهبت بي كريتاهُ

لكزورا واوسيرا الى مستودع كتب الهيكل واسفاره المقدسة المعهود بنظارتها الى ابيها . وهنا بمساعدة امرأة عبرانية اطلعتاني على ادراج تصويرية لم أرَ نظيرها قط قبل الآن وكانت تلك العبرانية الطويلة القامة السامية الطلعة تساعدنا في فتح الاسفار وفحصها بهيئة تنازل ملكي لا بخضوع وانقياد ولما فرغنا من فحص الدرج الاخير الذي جيء به من غرفة داخلية قالت اوسيرا مخاطبة العبرانية :

" اطويه يا مريم وارجعيه الى خزانة الكتب المقدسة "

فطوت السفر تلك العبرانية الحافلة بمنظر السيادة وروح السمو وسارت على مهلٍ ماشية على قدم الابهة وعند خروجها رمقتني اذ كنت منجذبًا الى التأمل فيها بعينين نجلاوين جميلتين تنبثق من خلال جفونها اشعة النبالة والنباهة وكانت في سن الثماني او التسع والاربعين . ولا اعلم لماذا عند نظري اليها افتكرت برعمسيس المنتظر الآن في ثبة تجمع جيوشهِ ولعلَّ في وجهها وعينيها شيئًا ذكَّرني بهِ فسألت اوسيرا :

" مَن هذه العبرانية ؟ "

" هي رصيفتي ومعينتي في نسخ الاسفار والصحف البردية في مستودع الكتب المقدسة لاني كما لا يخفى عليك يا صاحب السموّ كاتبة ابي وناظرة كل اسفار الهيكل "

فقال رئيس الكهنة الذي دخل عندئذٍ :

" وليس لهيكلٍ ان يفتخر بنظام مكتبتهِ نظير هيكلي ولا ارى صلوات وطقوساً منسوخة بضبط واتقان مثل هذه التي تنسخها اوسيرا "

فاجابت ابنته :

" لست بمستحقة هذا الثناء يا والدي العزيز والفضل في تلوين صدور الفصول وزخرفة الرسوم عائدٌ الى مريم "

فقال ابوها باسماً :

" ما يعمله الخادم يُمدَح عليه السيّد "

واذ ذاك حان وقت الصلاة المسائية فخرج الكاهن وابنتاهُ الى الهيكل الملاصق القصر وخرجتُ انمشى في الرواق المقابل المكتبة ومن هناك شاهدتُ مريم العبرانية منصرفة العناية الى تلوين درجٍ او سفرٍ من البردي ووجهها متّجهٌ نحوي فدُهشتُ مبغوتاً وكدت اصرخ من شدّة العجب لاني رأيت في ذلك المحيا البديع نفس ملامح ونكاوين رعمسيس . أوليس عجيباً انهُ يشابه اثنين او ثلاثة من هذا الجنس الغريب ليس هذه المرأة فقط التي هي اكبر منهُ وعمرام البستاني الشيخ الجليل بل يشبه ايضاً شخصاً ثالثاً عبرانياً أُرجئُ تفاصيل اجتماعي بهِ الى رسالةٍ أُخرى اذكر فيها ايضاً محادثتي مع مريم التي اذ شعرت بمزيد اندهاشي عند نظري اليها شخصت اليّ باسمة فالتمست منها رخصة الدخول والاطلاع على عملها

ان رئيس الكهنة والسيدة نليسا وابنتيها لكزورا واوسيرا يشاركونني في السلام والاكرام

ابنكِ المطيع

سيسوستريس

الرسالة السادسة عشرة

مدينة ممفيس قصر رئيس الكهنة

والدتي العزيزة

وردتني رسالة من الامير رعمسيس يخبرني بها عن وصوله بكل اقسام جيشهِ وكتائبهِ المركبات والفرسان والمشاة والعمارات المتولي قيادتها الامير مربس الى ثيبة ودخولهم المدينة منتصرين بعد ما كان قد استولى عليها ملك الحبش بطليعة جيشهِ وهذه

صورة تلك الرسالة :

"عزيزي سيسوستريس"

"ارجو ان تكون منتهزًا هذه الفرصة السانحة ومُدركًا امانيك في الاطلاع على ما تودُّ مشاهدته والالمام بما تشتاق الى معرفته في اثناء زيارتك للاهرام والوقوف على تاريخها العجيب الغريب من رئيس الكهنة

"ان جيشي في غاية ما يرام من حسن الحال والانتظام ولقد بلغك بواسطة رسولي الى الملكة ان الملك اكُوريس دخل ثيبة يوم بلوغنا ضواحيها . وحين اتصل بي خبر وصول طليعة جيوشنا التي كانت من الفرسان الى مدافن الفراعنة في اسفل المدينة حثثت السير اليها وتقدمت امامها داخلًا الى المدينة بينما كان معظم جيش الحبشان زاحفًا من ادفو ولكن كان اكُوريس قد أُكره على مزايلة قصر الفراعنة بواسطة الشعب الثائر عليهِ لانهُ بعد ان دخل المدينة بدون مقاومة في طليعة مئتي مركبة وست مئة فارس وكتيبة حرسهِ المؤلفة من الف رجل لابسين المغافر او الخوذ الحديدية والمجان المستديرة والسيوف القصيرة عمد الى امتهان دياناتنا فأَمر بأَن يقاد جاموس افريقي بَرّي الى هيكل الثور المقدس ويُطلَق عليهِ . فانقضَّ ذلك الوحش

المفترس الكاسر على الاله الجالس في مقدسهِ وصرعهُ الى الارض بنطحةٍ صرمت انفاسهُ في الحال . فصاح الكهنة بالويل والثبور وهاجوا طالبين الانتقام من مسبّب هذا الانتهاك والامتهان . وفي بضع دقائق انتشر الخبر وذاع وملأ جميع الاسماع . وهجم الثلاث مئة وستون كاهنًا بسكاكينهم على الملك البربري وحرسهِ بقلوب صغرت لديها رهبة الصفوف وهان عليها شرب كأس الحتوف فأحاط الحبشان بمليكهم وعوضًا عن العشرة الكهنة الذين فتكوا بهم قام مئة واصبح الهيكل ساحة حرب انتظم فيها اكوربس والستون من حراسهِ الذين دخلوا معهُ الهيكل يصدّون هجمات الثائرين عليهم حتى امتلكوا الباب واستدعوا نجدة من باقي العساكر. ولكن في هذا الوقت كانت المدينة قد قامت على قدم وساق وتسلّح جميع سكانها واصبح الشعب الذي خاف في الصباح جانب الملك اكوربس ولم يقاومهُ لا يعرف الخوف وهكذا اضطرّوا ذلك الملك الممتهن ان يتقهقر بعد ما خسر ثُلثَي حرسهِ وأُعدم تقريبًا كل المركبات وفرسانها لان الشعب الثائر للانتقام انسلّ بعضهُ تحت المركبات الى الخيول وطعنها بالخناجر فأرداها والبعض انقضّوا على فرسانها وصرعوهم الى الارض امواتًا . وقد سقط في سبيل هذا الانتقام المقدس نحو اربعة آلاف من السكان وقبلما دخلت المدينة سمعت الهتاف والضجيج وصليل الاسلحة وضوضاء الحرب فسرت على الجثث في شارع الآلهة متأثرًا الملك

المارب الى خارج البوّابات فلمّ شعث رجاله وخيّم بهم قرب هيكل امون على النيل . والآن كل جيوشي فقدام ثيبة نتوقع هجومًا علينا من ملك الحبشة . وانا نازل في قصر امينوفيس الاول الذي برحهُ من نحو قرن ذاهبًا لطرد الملوك الغرباء من ممفيس وقد شاقني اني مقيم في منزل جدّي وقد ذهبت الى قصر ابي الذي كان امير ثيبة وقد سقط قبل ولادتي بقليل في حرب الحبشة وقد زرت قبرهُ وفيما انا شاخصٌ فيهِ قلت في نفسي هل يعلم ان ابنهُ الذي لم يسعد قط بمشاهدتهِ جاثٍ على الناووس المذخورة فيهِ عظامهُ

"وصباح غدٍ نباشر القتال مع الملك البربري واني من برج مدخل المدينة مشرف على جيوشهِ الكثيرة وكتيبة الفيلة وجيش المركبات النحاسية وفصائل الفرسان والمشاة على اني واثقٌ بالغلبة والظفر وقد ساق الامير مريس عمارتهُ الى الجانب المقابل لكي يصعد ليلاً على حين غفلة ويوقع بمؤخرة العدوّ وقد انضمّ الى امير ثيبة خمس مئة من مركباتي لتشاركهُ في العمل

"فان تمكنّا من العدوّ ودحرناهُ نعود عن قريب الى ممفيس ولكن ان انكسرنا — لا سمحت الآلهة — فلا نعلم كم تطول شقة الحرب . ارجو ان تكون والدتي الملكة في صحة جيدة . بلّغها سلامي واحترامي واقبل ايها الامير المحبوب خالص التحية والسلام من صديقك رعمسيس"

والآن اعود الى تفصيل ما دار بيني وبين الفتاة العبرانية من الحديث . فاني بعد ما تأملتُ في ما كانت منكبّة عليهِ وهو نسخ صلاة الجنازة لكهنة أثور قلت لها :

" انكِ بارعة الى الغاية في هذه الصناعة "

فاجابتني بحشمة وادب وهي مطرقة

" انني منذ سنين طويلة متمرّنة على النساخة "

" لم أركِ هنا قبل الآن مع اني تردّدت مرارًا عديدة الى هذا المكان "

" تغيّبتُ بضعة ايام في مدينة رعمسيس لانهُ بلغني ان امي مريضة هناك فأسرعت ذاهبة اليها "

" ارجو ان يكون رجوعكِ دليل معافاتها "

فرفعت عينيها الجميلتين اليّ ناظرة بما لا مزيد عليهِ من العجب والاندهال كأني بها تقول أممكنٌ ان يهتمّ مثل هذا الامير بعبرانية نظيري ؟ واذ رأتني ناظرًا اليها بعين الصداقة والاهتمام قالت :

" انها احسن "

وكانت لهجتها الحلوة السامية خالية من كل ما يدلّ على الذلّ والاستعباد فقلت لها :

" اقاسمكِ السرور بهذا "

فهزّت رأسها الجميل المضفور عليهِ شعرها الاسود الفاحم

وقد ذكّرتني بصوتها بنغمة رعمسيس ولهجته ولهذا زدت ارتياحاً الى محادثتها فسألتها :

" لماذا هززتِ رأسكِ ؟"

" ولماذا يتمنى العبراني او العبرانية طول الحياة ؟"

" لا يُطمع في حياة افضل من هذه التي تعيشينها في هذا القصر بعناية سيدة مثل اوسيريا "

" اني كما ذكرتَ وزيادة ولكن لستُ يا مولاي بهذا المقدار محبة لذاتي حتى لا ابالي بسوى راحتي الشخصية وكيف يمكنني ان اكون سعيدة وفؤادي مثقل بعبودية شعبي . انك لست يا ذا السموّ سوى غريب في مصر — لاني سمعت عنك — ومن انت — ومع ذلك نظرت مذلة شعبي ورثيت لشقاء حالهم "

" نعم نظرت مذلتهم واتعابهم ولكن كيف عرفتِ ذلك ؟"

" من ابن اسحق الشيخ الجليل الذي شفقت على ابنه واغثته عند عين الرعاة "

" سمعتِ بهذا ؟"

" انه من انسبائي وقد قصّ عليّ بدموع الشكر والبركة نبأ معروفك لان شعبنا غير متعوّد ان يسمع في مصر صوت الشفقة ولا ان يشاهد اثر المعروف "

" ارجو ان يكون ذلك الفتى نال لجراحهِ التئاماً وشفاء "

قلت هذا راجياً ان يكون اطلاعها على خبر تلك الحادثة

قد ازال من بيننا الحاجز الحائل دون الغرباء فضلاً عن انه يستحيل ابنها الوالدة العزيزة على فينيقيٍ نظيري ان ينظر الى الشعب العبراني الذي هو فينيقيُّ الاصل ايضاً بعين الاحتقار والامتهان نظير باقي المصريين لانهم يعتبرون العبرانيين عبيداً وينظرون اليهم بعين الترفُّع والسيادة . اما انا فلم اعرفهم قط عبيداً ولست بسيدٍ لهم ولذا انظر اليهم بعين التأثر لشقاء حالهم واعتبرهم شعباً يستحق نصيباً افضل من هذا مذخوراً له كما ارجو في علم الآلهة الى المستقبل ولا ريب في انه لو مرَّت بي لكزورا ورأتني أُحادث مريم لتعجَّبت من قلَّة سلامة ذوقي او لاغتاظت من هذا التنازل الذي يغضُّ من رفعة شأْني وعلوّ مقامي لان البعد بين رتبة المصري والعبراني يفوق ما بين مملكة اوسيريس وتيفون . والالوف القليلة من ذكور واناث العبرانيين الناعمين في ظلال الراحة وبسط العيش في قصور الاشراف ومنازل الاعيان ليسوا شيئاً مذكوراً في جنب الملايين من بني جنسهم واخوتهم المعانين شظف العيش وضروب الذل ومشاق العمل في حقول اللبن جنوبي اون بين النيل والبادية وفي اماكن أُخر من مصر . وادنى مصري يعدّ نفسهُ اسمى من افضل بني اسرائيل . ولهذا تشاهدين من العجيب ان اولئك الفتيان الحسان والفتيات الجميلات العاملين على خدمة السادة والسيدات والناعمين بظلال الكرامات والتعطفات . حاملون على وجوههم المغشيـة

على الدوام بسبب القلق والاهتمام آثار اشتراكهم في ذلّ اخوتهم وشعورهم بحطّة شأن شعبهم

فاجابتني مريم على سؤالي الاخير:

"قد نال الشناء وقد كلّفني ان اسألك (عفواً عن جسارتي) ان تسمح له بأن يكون خادماً لك"

"علمت انه لا يُسمَح لغريب نظيري بأن يستخدم عبرانياً"

"ذلك صحيح لانها خدام المصريين خاصةً ولكن الامير رعمسيس ابن ابنة فرعون يسمح لك بذلك ان سألته. فهل تصنع هذا المعروف مع ذلك الفتى؟ والأ يهلك في حقل عمل اللبن لانه غير قادر على القيام باثقاله"

"ان الامير رعمسيس غائب الآن لكنني ساطلب ذلك من الملكة"

"اني اشكرك على هذا كما انه هو واباهُ سيباركانك يا وليّ عهد صور"

ثم اخذت يدي ووضعتها على جبهتها وبعد ذلك قبّلتها باحترام واذ ذاك شاهدت دمعةً من عينها سقطت على خاتم خنصري فقلت:

"اني شاعرٌ بذلّة شعبكِ"

فعادت الى عملها ساكتةً واخذت دموعها تنهلُّ منحدرة على القرطاس المنحنية فوقه حتى اضطرّت ان تميل عنه مخافة ان

يتلّ وبعد بضع دقائق شخصت بي وقالت :

" عفوًا يا مولاي الامير . إن ما نطقت به من كلمات الشفقة والحنان . التي لم تتعوّد اذناي استماعها قبل الآن أطلقَ دمعي فأنشط من عقال الانحباس وانهلّ كالعارض الهتّان . لاننا نحن اولاد يعقوب قلما نسمع كلمة رفق وشعور بشفائنا او نجد واحدًا يهتمّ بنا ان لم يكن له صالحٌ خاصٌ في ذلك"

واذ ذاك طرق مسمعي صوت آلةٍ موسيقيّة في الهيكل مُعلنة وقت التقدمة والبخور في المذبح المقدّس فوضعت يديّ على صدري وانحنيت علامة السجود وعجبت من ان تلك العبرانية ظلّت مواصلة عملها وتراءى لي ان رأسها اذ ذاك زاد ارتفاعًا عن ذي قبل . فسألتها متعجبًا :

" ألا تسجدين ؟"

" بلى للاله الواحد"

فاخذتني دهشة من ان رقيقة او عبدة كهذه تُعلن بكل بساطة سرًّا بالجهد استطاع رعمسيس قبوله وقد قبلتهُ انا بخشيةٍ وتوقُّف . وسألتها :

" كيف تعرفين انهُ يوجد الهٌ واحدٌ ؟"

" من آبائنا"

" هل يعبد كل شعبكم الاله الواحد ؟"

فاجابتني وقد غشيتها سحابة حزنٍ ممزوج بالغيظ :

" ليس كلهم فان السواد الاعظم من أُمتنا المستعبدة انما يعرفون آلهة مصر فيعبدون ابس بخشية وورع وهم اوّل من يتأهلون بالعجل الالهي — الموجود جديداً ان اتفق وجودهُ في ناحيتهم . وهم يجهلون الاله الحقيقي واذ قد اناخ عليهم الاسترقاق (لاننا جميعنا مولودون في العبودية — جميعنا) يعبدون آلهة سادتهم . ومقادير اللحم المرسلة من ذبائح الكهنة الى شيوخنا يرشونهم بها ويستميلونهم الى السجود لاوسيرس وايس تغريهم على انكار اله ابينا ابرهيم . ولهذا ترى ان معرفة الاله الواحد غير المنقسم محصورة في ما بين القليلين الذين ظلّوا محافظين بكل حرص على تقاليد آبائنا المقدسة "

" ماذا تعبدين انتِ ؟ "

" اله ابرهيم "

" ان ابرهيم كان فينيقيًّا او اراميًّا ولذا فلا بدَّ انهُ عبد النار والشمس "

" نعم في ايام صباهُ . ولكن رب السماء العظيم اعلن ذاتهُ لهُ كاله واحد ومن ذلك الحين وصاعداً لم يعد يعرف ولا يعبد الاَّ رب السماء والارض "

" من اين لكِ معرفة هذه الاسرار التي يجهلها اقدس الكهنة ؟ "

" ان ابرهيم اعلن لابنهِ اسحق معرفة الهٍ واحدٍ اله الآلهة —

اسمى واعلى من آلهة الاساطير اوسيرس وايس وثوث وهورس وباقي نظائرها. واسحق ترك هذه المعرفة ليعقوب ابنهِ ومن يعقوب تسلسلت الى بنيهِ الاثني عشر اميرًا ونحن ذريتهم ومع اننا في العبودية ومجرَّبون بطرق متنوعة تستهوينا الى السجود لآلهة مصر لا تزال فينا بقيَّة لم تحنِ قط ركبة لتمثال ايس الاسود ولا لتمثال اوسيرس الذهبي"

"ما هو اسم هذا الاله الواحد؟"

"اسمهُ الرب ليس فقط ربّ الشمس بل ربّ ارباب الشمس فهو واحد في كونهِ وقدرتهِ ولا يسمح بمجدهِ وسلطانهِ للآخرين. هذا هو ايماننا"

"كيف رفضتِ العبادة المصرية؟ ألم تكوني منذ الطفولية في هذا القصر؟"

"بلى يا مولاي لكن امي علَّمتني من الصغر حقائق ايمان ابرهيم فحافظت بمزيد الثبات على عبادة آبائنا على رغم التجارب والامتحانات والتهديدات ولم تقدر كل آلهة مصر ان تثني عزمي ولا ان تحوّلني عن الاله الواحد وقلبي يحدثني اني بهِ وحدهُ احيا واتحرّك واوجد"

ثم سألتني :

"هل تؤمن ايها الامير بآلهة مصر؟"

ولا اكتم عنكِ يا والدتي اني ذُعرتُ لهذا السؤال لكنني

اجبتها باسماً :

" اني اعبد آلهة بلادي "

" وهل آلهتكم اوثان ؟ "

" ما هو الوثن ؟ "

" صورة او تمثال من حجر او خشب او معدن او صورة ملوّنة يقدّم لها السجود الالهي – تمثيل المنظور لغير المنظور "

" اننا في فينيقية نعبد الشمس ونكرِم آلهة أُخرى "

" فاذاً لست اسمى من المصريين ولقد شاهدتك تنحني ساجداً عند سماع الآلات الموسيقية أ فتؤمن بأن الثور المقدس الله – الذي خلقك وخلقني وبرى كل الطبيعة والشمس والكواكب وهو يسوس كل الكون ؟ أ تؤمن بأن ايس او منفيس في أُون او امون في ثيبة كلاً منها او كلها معاً الله ؟ "

فصرخت مندهشاً :

" حقاً انكِ عجيبة ايها المرأة أ فلستِ كاهنة عبرانية ؟ "

" لستُ بكاهنة بل انا مؤمنة بوحدة الله الذي يجب ان تؤمن بهِ لانك مخلص النية وثاقب العقل ولا تخاف من الحق . ومع اني لستُ بكاهنة ففي عائلتنا وسبطنا حُفظَت بغاية الاجلال معرفة الله الذي كلَّم من السماء ابانا الآرامي . أ فتستطيع ان تؤمن ايها الامير بأن الثور الله ؟ "

" كلاَّ لا استطيع "

"ألا تؤمن بأن كل الآلهة الصغرى تنتهي اخيرًا الى الهٍ واحد؟"

"بدون ريب"

"جيدًا فاعبدهُ انك وليُّ عهدٍ . وأسمعُ انك ستصير ملكًا فبماذا تحكم على شعبك وسفراء الممالك الأُخر اذا حوّلوا طلباتهم عنك وقدموها الى ناظر حجّابك او كاتم اسرارك او رئيس سقاتك او رئيس خبازيك – ظانين لجهلهم انهُ هو انت؟"

فلم اجبها بشيءٍ لاني رأيت دليلها بالغًا لا يُنقض . وبرهانها دامغًا لا يُدحَض . ومع اني أُؤمن من قلبي بهذا الاله الواحد واعبدهُ يصعب عليَّ ان أُوسّع نطاق الايمان بهِ في مملكتي بعد رجوعي قبلما اضع كرعمسيس اساسًا متينًا لهذا المعتقد الجديد

وعادت مريم الى عملها وكانت في هذه الاثناء آخذة في تلوين جناحي تمثال الشمس حولها صلٌّ وذلك على اسلوب شائق ومنوال بديع فقلت لها :

"هذا اله ومع ذلك اراكِ عاكفة على تذهيبهِ ورقشهِ بابدع الصور واجمل الالوان"

"ليس الخزّاف مسؤولاً بما تُستخدَم لهُ آنيتهُ وعلى الأَمَة ان تطيع مولاتها وتعمل ما يُطلَب منها . ومع ذلك هذا ليس باله بل هو مثال او اشارة مصر فان ضياء الشمس الازليّ ممثَّلٌ بهذه الدائرة الذهبية وهذا الصلّ المضفور حولها كناية عن تعاريج

النيل وجناحاهُ يمثلان مصر السفلى والعليا الممتدين على جانبي النيل . فليس في مصر من هيكل مبني لمثال كهذا . فاذًا ليس هو باله بل مثال يُستخدَم في النقش وفوق مداخل الهيكل. ومع ذلك لو كان الهًا لما استطعت ان امتنع عن عملهِ لانني مأمورة بذلك وعليَّ الامتثال . لان الخضوع من شأن شعبي وكما يُمدَح الملك لعدلهِ وانصافهِ يُمدَح العبد لخضوعهِ وطاعتهِ"

واذ ذاك رأيت امير عوص الجليل مجتازًا ولما رآني وقف وقال لي بغاية الرقة واللطف :

" يسرُّني جدًّا ان اراك هنا يا امير صور . اني عازم عمَّا قليل ان ابرح مصر الى دمشق وقد بلغني من جلالة الملكة ان لك سفينة ذاهبة بعد بضعة ايام من بلوزيوم الى صور فجئتُ الى هنا لعلمي انك نازل ضيفًا على صديقي رئيس الكهنة لاطلب منك ان تجيز لي السفر فيها وليس معي الأَ حاشية قليلة لان قافلتي ذهبت برًّا في طريق بادية العرب ولم يبقَ معي سوى كاتم اسراري وكاتبي وساقيَّ وحامل سلاحي ورسولي وعشرة خدَّام"

فاوضحتُ لهذا الامير الخطير شدَّة مسرَّتي باجابة طلبهِ وسيحمل مني اليكِ رسالة توصية بهِ . وقد اخبرتكِ عنهُ سابقًا بانهُ امير حكيم كثير الصلاح وافر الفضل مكرَّم ليس لحكمتهِ فقط بل لصبرهِ الذي بهِ احتمل اكبر التجارب لانهُ في وقتٍ ما ابتلي بفقد بنيهِ وبناتهِ وخدامهِ وقطعانهِ ومواشيهِ وبيوتهِ وكنوزهِ وصحتهِ

ومع كل هذا لم يلعن الآلهة ولا طلب النجاة بالموت . وجزاء لصبره واحتماله عوّضت عليه القوّات السماوية كل شيء واسمه الآن مثلٌ في الامتثال المقدّس للاوامر الالهية :

وبعد ما اجزل لي الشكر على اجابتي ملتمسة التفت الى المرأة العبرانية وقال :

" أصحيح ان شعبكِ يعبدون الاله الواحد ؟"

" نعم ايها الامير"

" هذه هي الحكمة الصحيحة في هذه الحياة ان يعرف الانسان الاله القادر على كل شيء ويطّلع على اسرار القدّوس . هوذا . طوبى للانسان الذي يفوز بهذه المعرفة . ان العالم يتلمّس في النهار خابطًا خبط عشواء . ويعثر في الظهيرة كما في الليلة الظلماء . غير واجد السبيل الى معرفة الله رب الارض والسماء . فمباركةٌ انتِ يا ابنة ابرام الحكيم واسحق الامير العظيم ويعقوب الصالح المستقيم . — لانكِ نائلة كما شعبكِ معرفة تقاليد آبائكِ . أيستطيع الكهنة ان يجدوا الله بواسطة حكمتهم ؟ ان نورهم ظلام دامس واما بنو اسرائيل ابن ابرام فلهم معرفة العليّ وهم احكم من حكماء مصر"

فتفرّست مريم في وجه هذا الشيخ النبيل بعيني العجب والابتهاج وكأنها تسأل : " من انت ؟ " واذ ادرك ذلك قال لها :

"اعلمي يا ابنة ابرام وسليلة اولئك الملوك الحكماء العظام . الذين ساروا مع الله ووجدوهُ حين كان الظلام الحالك مطبقًا على جميع بني البشر اني انا ايضًا اعبد الله . اني من سلالة الملك ملكي صادق الذي عرف اباكِ ابرام . وكلاهما ادركا معرفة سرّ الوحدة الالهية . هذان الصديقان عبدا الله القادر على كل شيء . واما بنو البشر فانكروا الله العليّ وروحهُ الذي براهم ونسمة فيهِ التي منحتهم حياة . ان المنا يتكلم في كل مكان ومع ذلك لم يعرف الانسان صوتهُ . فما اجهل العالم واغبى الانسان الذي يسجد لعمل يديهِ ويعمى عن رؤية ذلك الذي وضع اساس الارض ومدَّ مطارهُ على السماوات العلى ولهُ ترنمت كواكب الصبح وهتف بنو العليّ"

ولما نطق بهذه الكلمات اشرق محياهُ باشعة الوحي وكان في كل مدة كلامهِ شاخصًا فيَّ كأنهُ موجهٌ خطابهُ نحوي فقلت متأثرًا :

"اروم معرفة هذا الاله الذي تعبدهُ انت والعبرانيون . ولا اعرف بعد الآن الهًا في الحجر والمعدن ولا في اوسيرس وايسس ولا خالق الكل في الشمس — التي هي ليست سوى خادمة في انارة العالم"

وحينئذٍ سطعت عينا المرأة العبرانية بنور الفرح والسرور ووضع امير عوص الذي اسمهُ ايوب يدي في يدهِ وقال باسمًا :

" انك لست بعيداً عن مورد الحق يا امير صور . واني اسأل القادر على كل شيء ان يعلمك وينير ذهنك . انهُ وحدهُ القادر على كل شيء . أ فيقدر ايس او ابو او ادونيس او واحدٌ آخر من الآلهة التي تؤمن بها ان يعطي مطراً وندى وجمداً وصقيعاً . أ يقدر ايس او بعل فغور ان يربط عقد الثريا او يفكّ ربط الجبّار ؟ أ يقدران ان يخرجا المنازل في اوقاتها ويهديا النعش مع بناتهِ . أ يستطيعان ان يخرجا البرق ويعطيا الرعد صوتاً ؟ هوذا الله عظيم ونحن لا نعرفهُ ولا سبيل الى احصاء سنيهِ ومع ذلك فمن يصلّي اليهِ ينال من لدنهِ رضًى وخلاصاً لنفسهِ ويرى نور الاحياء . فلا تنكر يا ابني الله العليّ "

فسألتهُ :

" ولكن اين يا رجل الله الحكيم يوجد القادر على كل شيء واين يذهب فهي مفتشًا لكي يجد عرشهُ ؟ اني مللتُ الاوثان والاصنام وعبادة ما كان من هذا القبيل . فاين يوجد الخالق ؟ أرني يا رجل الله كرسيهُ لكي اجثو عند موطئ قدميهِ "

" ان الله موجود في كل مكان لكنّ عرشهُ او كرسيهُ في قلبك . وحكمتهُ فائقة الثمن ولا يمكن ان تُشرى بالذهب لا يعرف الانسان قيمتها ولا توجد في ارض الاحياء . الغمر يقول ليست هي فيّ والبحر يقول ليست هي عندي . لا يُعطى ذهب خالص بدلها ولا توزن فضةٌ ثمنًا لها . لا توزن بذهب اوفير او بالجزع

الكريم او الياقوت الازرق لا يُذكَرُ المرجان او البلور - لا يعادلها ياقوت كوش الاصفر وتحصيل الحكمة خير من اللآلئ فمن ابن تأتي الحكمة وابن هو مكان الفهم. الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها. مخافة الرب هي الحكمة والحيدان عن الشرّ هو الفهم . واني قد قد اختبرته وامتحنته ومع انه أذلّني لم يتركني وفي الختام عوّض عليّ خيرات وبركات كثيرة وافرة"

فسألته :

"هل يغفر الله الاثم"

"ليس من وعدٍ للانسان بامكان الصفح عن التعدي على الله القدوس فيجب ان نرجو رحمته في النهاية . وقد صلّيت في بلواي ايها الامير طالبًا وسيطًا يقف بيني وبين القادر على كل شيء . وقد حنّ قلبي الى شفيع واشعر بأنّ حنين قلبي نبوّة"

"أتؤمن بأن الله العظيم يعطي الناس وسيطًا يشفع في الخطية ضدّ قداسته تعالى"

"لدينا تقليد من قبل الطوفان ان واحدًا سوف يقف بين الارض والسماء ليشفع عند الخالق في مخلوقاته وانه تعالى يسمع صوته"

"أليس هذا مرموزًا اليه بهورس بن اوسيرس الذي يقدم نفوس الموتى واعمالهم كصديق لهم ؟"

"بدون ريب ان هذا المعتقد مرموزٌ اليهِ في ايمان كل أُمَّة على الارض"

ثم شيَّعت امير عوص الى القارب الذي عبر فيهِ النيل وودَّعتهُ واعداً اياهُ بأَني اشاهدهُ قبل سفرهِ

فصدّقيني يا والدتي العزيزة ان ليس الاّ الهٌ واحدٌ ومن حديث امير عوص اقتنعت بأَن سجودنا للتماثيل يغيظ الله العلي ويشين طبيعتنا

ابنكِ المحب المطيع

سيسوسترس

الرسالة السابعة عشرة

مدينة اون

والدتي العزيزة

بعد ما كتبت اليكِ رسالتي الماضية بلغني أهمّ خبر من ساحة الحرب بل أهمّ من هذا ان الامير رعمسيس راجعٌ الآن في طريقهِ الى ممفيس ظافرًا منصورًا . ومما افادتهُ الانباء الواردة من هناك انهُ من اربعة اسابيع وافعت جيوش مصر الملك اكوربس خارج ابواب ثيبة وبعد معركة هائلة اضطرتهُ على التقهقر فتحصّن في مكانٍ آخر لكنهُ أُكره على اخلائهِ ايضًا واخيرًا طُورد في السهل وأُخذ اسيرًا هو وكثيرون من كبار قادتهِ وغُنمت ذخائرهم واثقالهم وجمالهم وخيولهم وأُسرَ من العساكر عددٌ لا يُحصى . فافعمت هذه البشرى فؤاد الملكة فرحًا وسرورًا

ودحرجت عن كاهلها ثقل القلق والاضطراب من جهة سلامة رعمسيس وخوفها انهُ يسقط في القتال نظير والدهِ لكنهُ عاد مظفراً سالماً بقود عدوّهُ اسيراً وراء عجلات مركبتهِ . والمدينة باسرها ثملة براح الفرح وفي جميع الهياكل يُحرَق البخور وتُنحر الجزور وتُصعَد الضحائب والتقدمات عنوان شكر الامّة وحمدها على انكسار عدوّها

وسوف أُؤخّر ارسال هذه الرسالة اليكِ قليلاً لكي أُشاهد الاحتفالات المزمعة ان تُقام في هذه المدينة على ابدع منوال بحيث انها تكون في البهرجة والزينة عديمة المثال وخصوصاً هيكلَي ابيس وفولكان

قصر جزيرة الروضة

مضى عليَّ اسبوعان انقطعت فيهما عن الكتابة فواصلها الآن بمزيد الرغبة والارتياح وابدأُ فيها بذكر رجوع رعمسيس فانهُ منذ يومين دخل ممفيس باحتفال الظفر ولما بلغني خبر اقترابهِ خففتُ الى ملاقاتهِ صاعداً مسافة ثلاثة ايام في النيل وحين التقينا وقع على عنقي مقبلاً اياي كأخٍ واوّل سؤال طرحهُ عليَّ كان :

" الملكة أُمي أَسلامٌ لها ؟ "

"نعم وفي غاية السرور من جرّاء انتصارك"

"وجلالة والدتك الملكة ايزيبا ماذا سمعت عنها آخر مدّة ؟"

"في صحةٍ جيدة وتودُّ ان تراك"

ومن هذين السؤالين يمكنكِ يا والدتي العزيزة ان تطّلعي على آداب هذا الامير الباذخة وصفاتهِ السامية الرائعة فانهُ وهو محفوف بامجاد الظفر واكاليل الفوز كان افتكارهُ موجهاً اوّل كل شيء نحو والدتهِ . وكل قلبٍ سادت على عرشهِ محبة الأُم فجميع الصفات الغُرّ والفضائل السامية تتزاحم اليهِ مجتمعةً حولها

وقد وجدتُ رعمسيس هابطاً النيل في سفينة ذات مئة مجذاف ووراءها سفينتان تقلأن الاسرى ذوي الرتب والمقامات وكلهم مكبّلون بالقيود واما ملك الحبش فكان في سفينة رعمسيس مطلقاً غير مقيّد يبيت في مخدع سافي وليّ العهد وفي المؤخرة كانت العمارة مزدانة بعلامات الانتصار وجميع من فيها يهتفون اغاني الفوز والاستظهار وقد بقي نصفها مع مريس في بلاد ثيبة عازماً ان يهاجم بها داخليّة الحبشة ويهدّد عاصمتها

وقد وقفت من رعمسيس على تفاصيل المعارك التي حدثت لكنهُ كان يتكلم عن بسالة الامير مريس اكثر مما عن نفسهِ . وبعد ما جلست معهُ في ضوءِ القمر على مؤخّر السفينة نتجاذب اطراف الحديث عن اشياء مختلفة طلبت منهُ ان يسمح لي برؤية

اسيرهِ الملك الذي توهمت من جبهتهِ انهُ لا بدَّ ان يكون وحشيَّ المنظر غريب الصورة ولما قلت ذلك لرعمسيس تبسم واجابني :

" سأرسل اليهِ اسألهُ اذا كان يقبلني مع وليّ عهد صور الذي سمعني اذكرهُ قدامهُ "

" اراكم انتم المصريين تعاملون أسراكم بمزيد اللطف وحسن الرعاية حتى انك تُرسِل لتعلم اذا كان يقبلك "

" اظن ان عادتنا في الحرب ليست كما ذكرت ولا يُعامَل عندنا الأسرى احسن مما هو عند غيرنا لكنني اجتهدت كثيرًا في اصلاح هذه العوائد ورفع الصرامة والقساوة عن الاسرى بقدر استطاعتي "

فرمقت رعمسيس بعين الاعجاب وقلتُ في نفسي " ماذا جعل هذا الانسان في مقدمة جميع اسلافهِ في الفضيلة على حداثتهِ وصغر سنّهِ ؟ "

واذ ذاك رجع الرسول من عند ملك الحبش يقول لرعمسيس :

" ان جلالتهُ يقبل وليّ عهد صور وغالبهُ "

فنزلنا الى المخدع المعدّ لهُ فرأيت فتى غض الشباب لدن الاهاب نظيري في العمر جالسًا على متكإٍ مغشّى بجلود نمر وهو جميل الملامح عالي الجبهة مقوّس الحاجبين كانهما في الدقة حاجبا امرأة تحتهما عينان لم أرَ نظيرهما في النجل وحسن المنظر صغير الفم

حسن المبسم مع تجعُّد لطيف في شفتهِ السفلى ناشئ عن انفعال عصبيٍّ من جرَّاء مراوحتهِ بين الاستحياء والكبرياء عند مشاهدتنا وكانت ذقنهُ مرداء لا لحية فيها وكانت جدائل شعرهِ مضفورة ومرفوعة بعصابة من ذهب مرصَّعة بالجواهر وخوذتهُ التي من ذهب مطروق كانت ملقاة بجانبهِ وعليها اثر ضربات عديدة من السيوف والفؤوس وعلى صدغهِ الايسر جرح يماثل احد الثقوب في خوذتهِ وكانت يداهُ الصغيرتان الكستناويتان (بلون جسدهِ) مملوءتين خواتم كبيرة وطوق مرصَّع بالزمرد يحيط بعنقهِ وقد نيطت بهِ عوذة من اليشم او الحجر اليماني وعلبة صغيرة من فضة فيها حرزٌ ملكيٌّ . وكان مرتديًا حلَّةً ثمينة كثيرة الزخرفة مفتوحة من قدام عن زردية ودرعٍ من فولاذ مرصَّع بالذهب . وكانت رجلاهُ الصغيرتان حافيتين الأَ ما شدَّتا بهِ من نعلين من جلد غزال مذهب . والخلاصة لم يكن في شيءٍ من هول المنظر الذي توهَّمتهُ فيهِ قبيل مشاهدتي لهُ . وقد آنستُ في هيئتهِ الجميلة الرائعة قوَّة جلَدٍ وثبات مكنتهُ من السيادة والترفُّع على قومهِ البرابرة ورأيت من خلال جفونهِ نظرًا حادًّا كاسرًا يترجم عن نفسٍ أبيَّة صلبة طبق حاجة اميرٍ او ملك بربريٍّ نظيرهُ

ولما دخلنا عليهِ تحفَّز للقائنا وقال بلهجة تراخٍ لم يخلُ من الابَّهة والرفعة متكلمًا بالقبطية :

" اهلاً بوليِّ عهد صور . يسوءني اني غير قادر من ايفائك

حفلك من الضيافة والاحتفاء

واما انت يا وليّ عهد مصر الذي له حق الامر والنهي فلا حاجة لي ان ادعوك الى الجلوس"

ثم التفت اليّ قائلاً:

"سمعت عن صور وعن تجارها الذين ملأوا البحار بسفنهم ووطئوا كل الارض بنعالهم ما عدا بلادي"

فاجبتهُ:

"ان تجارتنا تستأثر حتى بحاصلات بلادك ايها الملك. فقد شاهدت في سوق صور التبر وريش النعام والجلود والزنجفر والابنوس والعاج حتى القرود والسعادين والنمورة وعوضاً عن هذه كلها نُرسل اليكم الارجوان"

"ذلك اسم صور مدينة الارجوان. واما الحبشة فبلاد رجال الحرب — اولاد الشمس. لستُ في خصام معكِ يا صور — اذًا اقبل مني هذا الخاتم — هذا اذا لم يعتبر رعمسيس العظيم كل ما املكهُ نظير نفسي غنيمة له — دليلاً على اننا في سلام"

ثم نزع من ابهامهِ جوهرة غالية الثمن واخذ يدي ووضعها في ابهامي بدون ان ينظر ليرى ان كان رعمسيس يستحسن هذا الامر ام لا

وبعد قليل خرجت من عندهِ وذهبت الى مخدعي وقد الحَّ عليَّ رعمسيس بابقاء الخاتم معي وفي الحقيقة لم يكن لملك الحبشة حقّ

ان يهدي شيئًا مما لهُ لانهُ اسيرٌ . ومما علمتهُ عنهُ من رعمسيس انهُ اظهر في القتال بسالة اعظم الابطال . واقدام صناديد الرجال

ولما بلغنا جزيرة الروضة خفَّ رعمسيس مسرعًا الى معانقة والديهِ وابلاغهما تفاصيل حملتهِ ونجاح بعثتهِ . وفي اليوم التالي استُعدَّ لملاقاة الجيوش المنتصرة السائرة الموينا نحو العاصمة على شاطئ النهر الغربي وفي مساء ذلك اليوم بلغت سهل الاهرام صفوفًا صفوفًا بينها الاسرى ومركبات مثقلة بالاسلاب والغنائم من اسلحة وامتعة وذخائر ومهمات فعسكرت هنالك حيث كانت قبل زحفها الى الحرب متوقعة صدور الامر لها بالمسير الى المدينة في موكب النصر والظفر . وفي الصباح التالي قدمت الملكة الى صدر الساحة الفسيحة الجوانب في مقدمة هيكل ايس وعليها حلتها الملكية في مركبة من عاج مرصعة بالذهب تجرها اربعة افراس بيض بافخر العدد مزدانة رؤُوسها بريش النعام وقد خرج في موكب الملكة نخبة اشراف قصرها وحفَّ بها جيش الحرس

ثم خرج من الهيكل رئيس الكهنة في مقدمة اربع مئة كاهن بتيجان ومباخر ذهبية وحلل قرمزية وتقدَّمت مواكب أُخر كهنوتية في الشوارع يتقدمها روساؤُها كل موكب سائر باله هيكلهِ في ذخيرة او صندوق مرصَّع بالجواهر الكريمة

وكان الامير رعمسيس قد انطلق بوالي المدينة وجميع

اصحاب الرتب واولياء الامر لملاقاة الجيش القادم في انتظام حربي كانه مجتاز في بلاد الاعداء تخفق فوقهُ اعلام النصر والظفر وتصدح امامهُ نغمات الفوز والاستظهار . اما انا فبقيت بجانب الملكة اجابة لطلب جلالتها . وكانت ابراج مدخل الهيكل وسطوحهُ واروقة القصور وشرفاتها ورواشنها واعالي المنازل غاصّة بجماهير المتفرجين الذين حيّوا طليعة الجيش القادم بهتاف الاحتفاء والاستبشار وتقدَّم مئة وسبعون كاهنًا ممثلين آلهة ممفيس (الذكور) كلٌّ منهم لابس على مثال الهو

وعلى اثرهم جاء رئيس كهنة اون محمولاً امامهُ ترس الشمس على محفّةٍ يقلّها اربعة وعشرون رجلاً على عدد ساعات اليوم (الليل والنهار) . ثم جاء الف كاهن مصطفين مئة مئة ينشدون باصوات عالية ترنيمة الظفر للآلهة . ووراءهم كتيبة من الفرسان مؤلفة من اربعة آلاف فارس اصطفّت في عرض ذلك المربَّع الفسيح وعلى اثرها طامت كتائب الجيش يتقدمها وليّ عهد مصر منتصبًا في مركبة ملكيّة تجرها ثلاثة رؤوس دهم من الجياد الصافنات وهو مدجَّج بالاسلحة وحافلٌ بظواهر الابهة والجلال فارعدت عند رؤيتهِ اصوات الجماهير محيّية ذلك الغالب الظافر ووراءهُ مركبتهُ الحديدية التي خاض فيها غمرة الوغى في سهول ثيبة وقد قاد جواديها اثنان من سادة مصر وهي فارغة ليس فيهـا شيءٌ سوى مجنّهِ المثلَّم المخرَّق وجعبة سهامهِ الفارغة

ومزاريقهِ المكسرة ومقبض سيفهِ وخوذتهِ المثقَّبة شهود صامتة على تقذيفهِ واستبسالهِ في حومة النزال . واندفاعهِ في ساحة القتال ومساورتهِ لنخبة الابطال . وخلفها الحرس الملكي المؤلف من صفوة الابطال المجرَّبين والكماة المقذفين ولكن بجانبها مشى ملك الحبشة الاسير مشدود اليدين من الرسغ بسلسلة من ذهب مربوطة بعمود المركبة وهو سائر على قدم العزَّة والانفة وابتسام الازدراء والاستخفاف بادٍ على شفتيهِ حين رأى عيون المتفرجين منجذبة اليهِ وسمع هتاف الفرح بانكسارهِ من افواه جميع المتشوّفين عليهِ . وعلى رغم دلائل الإسار البادية على رجليهِ ويديهِ كان باقيًا ذا فؤاد ملك رابط الجأش ونفس صنديد لا تشعر ساعة الخوف الشديد بشيء من الاضطراب والارتعاش

ومن ورائهِ كرَّت صفوف المركبات نحو ثلاثة آلاف مركبة داخلة ومجتازة من امام الملكة التي نهضت على قدميها احتفاء بقدوم جيشها المنتصر

وبعد ما تقدمت المركبات المشحونة بغنائم الحرب والمثقلة بصناديق الامتعة الذهبية والفضية والشبهانية والجمال المحملة الذخائر والمهمات جاء في ساقة الجيش او مؤخرتهِ كتيبة فرسان تسوق امامها اثني عشر الف اسير مكبلين بالقيود يرسفون باغلال الذل والعار وسلاسل الانذحار والانكسار . وهم في حالةٍ من الشقاء والهوان . يعجز عن وصفها القلم ويقصّر عن تبيانها

اللسان

وهم في ملامحهم وتكاوينهم يختلفون عن الشعب المصري فانهم طوال القامة نحاف الابدان سمر الوجوه لا سودها كالنوبيين

ولما تكامل عدد الجيش البالغ نحو مئة الف محارب من مركبية وفرسان ومشاة ومرّوا من امام الملكة متقبلين شكرها وثناءها وتهانيها مقرونة بعقود الازهار المنتثرة على رؤوسهم من ايدي الوف من النساء والفتيات اصطفُّوا في مواقفهم مالئين كل ذلك المربع الفسيح ما عدا فسحة منهُ في جهة طريق الاهرام حيث كانت الملكة ورعمسيس وبطانتها

وحينئذٍ تقدم رئيس كهنة أُون – رجل جليل المنظر وقور الهيئة وخاطب الامير رعمسيس بما يأْتي :

والسكوت مخيّمٌ على الجميع :

" ايها الامير وليّ العهد الخطير سيّد العالم وابن الملكة والقابض على زمام ممالك الارض لتباركك الآلهة وتمنحك عزًّا ومجدًا . وتزدك نجاحًا وسعدًا . قد زحفت بجيوش مصر الى ساحة القتال . وأبليت إبلاء صناديد الابطال . ورجعت ظافرًا بالأقران . منكلاً باهل البغي والطغيان . وواطئًا باخمصيك تاج نجاشي الحبشان . انك قد خضت غمرات الهيجاء . وفللت جيوش الاعداء . وغللت يدَي عدوّ مصر الألدّ وداهية العالم الدهماء . انظرهُ مجبلاً باغلالهِ . يرسف بقيود إذلالهِ . متعثرًا

باذيال الامتهان المحيق برجالهِ . وبما ابديتهُ من البسالة والإقدام . في ساحة الصدام . انقذتَ مصر من ورود كأس الخراب والدمار وجعلتَ الأمن والسلام في نحوها هذا ممتدَّ النطاق وذاك عامَّ الانتشار . فلتكن قوتك في العالم كالشمس في السماء . ومجدك مساوياً لمجد الآلهة في البلوغ والنماء"

فاجابهُ رعمسيس بكلمات وجيزة دلَّت على رائع ادبهِ ولين عريكتهِ وشدَّة تواضعهِ . ثم عانقتهُ الملكة امام كل الجيش الذي هتف "لتحيَ الملكة ليعش رعمسيس قائدنا" . وكان اكوريس في كل هذه المدة واقفاً بجانب المركبة المربوط اليها مطرقاً اطراق الاسد المقيَّد حتى انهُ لم يتنازل ان ينظر الى الملكة التي لم يرها قط قبل الآن

وبعد ذلك احتُفل بتقدمة الشكر في هيكل بتاه العظيم الذي غُصَّ بجماهير رؤساء الكهنة وكبار القادة والولاة واصحاب الرتب يتقدمهم الملكة ووليُّ عهدها فنُحرت الجزور وأُحرق البخور وقُدِمت السكائب . وعند الفراغ من اجراء كل هذه الطقوس والفرائض عادت العساكر راجعة الى مراكزها المتفرقة التي جُمعت منها

وأُقيمت الاسرى على الاشغال الشاقة في بناء الهياكل وحفر الترع وإقامة السدود والاسوار وغير ذلك من الاعمال العامة وبيعَ بعضهم الى الاشراف والاعيان ووُزِعت النساء منهم السود

والبيض على الأسرى والعيال الشريفة . اما العبراني فهو الاسير
او الخادم الوحيد في مصر الذي لا يُشرى ولا يُباع بل يُدفع عنهُ
الى خزينة المملكة مبلغ معيَّن وحينا تطالبهُ المملكة فعلى سيدهِ ان
يرجعهُ في الحال لانهُ ليس ملكهُ

وبعد ما طيفَ بملك الحبشة وراء مركبة غاليو أُخذ الى السجن
الملكيّ لينتظر ما يُقضى عليهِ من لدن المملكة

وربما يفديهِ شعبهُ بمبلغ عظيم من المال والأَّ فالارجح انهُ يقضي
حياتهُ في الاسر ان لم يجب ما يطالبهُ منهُ رعمسيس – تسليم
النصف الشمالي من مملكتهِ الى مصر لكي يؤْذن لهُ في العود للحكم
على النصف الآخر. لكنني ارجّح انهُ يفضّل الموت في السجن على
قبول هذا الشرط

كان بودّي ان اذيّل هذه الرسالة بذكر اجتماعي بعبراني يشبه
رعمسيس اكثر مما تشبهه مريم الكاتبة او عمرام البستاني لكني ارجئهُ
ذلك الى فرصةٍ اخرى بداعي ضيق المقام

ابنكِ المحب

سيصوستريس

الرسالة الثامنة عشرة

قصر الروضة

والدتي العزيزة

بينما كنت في احد الامساء اتمشى على شاطئ النيل الجميل انزه النفس باستنشاق نسيمهِ البابل وامتّع الطرف بمشاهدة القوارب والزوارق الماخرة على سطحهِ منها بالمجاذيف ومنها بالشراع بعضها للاصطياد والبعض الآخر للتنزه والارتياض رأيت قاربًا صغيرًا يدنو من الشاطئ وليس فيهِ سوى شخص واحد والمجذفون فيهِ اربعة عبيد نوبيين عليهم اردية من كتان ابيض

وعند اقترابهِ كان قاربٌ آخر انيق البناء باهر الزخرفة يعدو نازلاً بمزيد السرعة وفيهِ ثلاثة فتيان من اهل الشرف والرفعة كما دلّت على ذلك ملابسهم فنادى الجالس على "دفّتهِ"

داعياً من في القارب الآخر ان يسرعوا في الحيادة من طريقهِ لكنهم كما ظهر لي لم يسمعوهُ وظلَّ القارب الثاني عادياً بسرعة تسابق الرياح فصرختُ بأعلى صوتي منادياً الجالس في مؤخّر القارب الأوّل مشغولاً في تلاوة سفرٍ كان قسمٌ منهُ ملقىً عند قدميهِ غير مفتوح. فرفع نظرهُ على الفور وفي الحال رآني وباشارة من اصبعي ادرك الخطر المقبل عليهِ وقبلما استطاع ان ينذر المجذفين بهِ سمعت احد الشبان في القارب الثاني يقول للذي على الدفَّة المجتهد في تحويل القارب قليلاً عن جهة مسيرهِ

"خلِّ عنك هذا الاهتمام. انهُ عبراني ويسرُّ الآلهة اغراق الف من هذا الشعب كل يوم"

فاطاع هذا امر سيدهِ ولطم مقدَّم هذا القارب مؤخر ذاك لطمة عنيفة كادت تشقهُ الى المقدم وقذفت باثنين من مجذفيهِ الى المياه اما الكاهن العبراني (الذي عرفت رتبتهُ من لباسهِ) فنجا منها بانكبابهِ الى الامام . ثم استرجع مجلسهُ بعد اجتياز ذلك القارب بثبات وحزم ادهشاني لانهُ لم يعترهِ قط ادنى خوف عند حلول هذا الخطر الشديد واذ رأى ان احد الاثنين اللذين انقذفا الى المياه سابحاً الى البرّ والآخر لم ينهض من مسقطهِ اهاب بالاثنين الباقيين اللذين كانا قد رجعا الى مجاذفهما ان يجذفا بهِ الى الشاطئ

فقلت في نفسي :

" عبراني . حقًا انه كذلك وهو اشبه رجل برعمسيس .
عبراني . اية فلسفة بهذا الاحتقار والتعريض لاكبر الاخطار .
عبراني . اني امتهان ابداه نحوه ذلك المصري المختال . عبراني
وكاهن "

وبعد ما خرج من القارب وصعد على درج الرصيف
واضعًا درجه تحت طرف ردائهِ انحنى امامي وخاطبني بالفينيقية
بكل ادب واحتشام (لان العبرانيين مطبوعون على ذلك)

" اني مديون لك يا سيدي التاجر (ظنّني هكذا لاني كنت
متنكرًا بلباس تاجر فينيقيّ) بحياتي لان انذارك اياي مكنني من
انقاذ نفسي وان اكن قد فقدت واحدًا من اولئك الفتيان النوبيين
المنكودي الحظ فاقبل على ذلك شكري وامتناني "

فلم يسعني ان احوّل عينيّ عن النظر اليهِ لانه خلب لبّي
وسبى قلبي وتراءى لي ان رعمسيس ذاته يخاطبني ما عدا ان شعر
وليّ العهد اسود فاحم اما شعر هذا فضارب الى السمرة ولحيته ذهبية
واما في القامة وسائر الملامح والتكاوين والحركات فهما واحد حتى اني
قلت في نفسي " لو كان رعمسيس عبرانيًا او هذا العبراني مصريًا
لقلت انهما ابناء عم ان لم اقل اخوان "

سامحيني يا والدتي على هذا الكلام الذي لا يليق بشأن الامير
رعمسيس ولكنني قد استخدمت هذا التعبير لاوضح لكِ شدة المشابهة
التي بينه وبين هذا الرجل في كل شيء ما عدا لون الشعر والعينين

(لان عيني الامير سوداوان وعيني هذا كستناويتان) وكان جوابي له :

" لم افعل سوى الواجب عليّ لابن جلدتي ولكن لماذا خاطبتني بالفينيقية ؟ "

فسألني ناظرًا اليّ بتفحص وامعان :

" ألستَ تاجرًا فينيقيًا ؟ "

" اني من صور وانت عبرانيّ ؟ "

" نعم "

قال هذا مطرقًا ومشى الى جهة الهيكل فقلت له

" قف قليلاً "

فالتفت اليّ بعين الاندهاش وقد ذكّرني بمريم التي يشبهها ايضًا كثيرًا لانها حين خاطبتها رمقتني بذات النظرة . فسألته

" أتسمح لي ان اسألك لماذا ارى عبرانيًا في شعار دينيّ ؟ "

فاجابني مكملاً سؤالي :

" على حين اننا لسنا سوى عبيد مذلّين ولا نعبد آلهة مصر ؟ "

" هذا فكري وان كنت ذاهبًا في شارع ابي الهول فاني ارافقك "

" لكنك تُرى ماشيًا مع عبرانيّ يا مولاي "

" اذًا عرفتَ من انا ؟ "

" ان لغتك تظهرك والتجار لا يتكلمون هكذا فضلاً عن ان

خاتم رعمسيس في يدك بدلٌ على مقامك وقد سمعتُ وصفك
ممن لن ينسى الى الابد كلمات اللطف والاحسان التي لم يسمعها
من غيرك الاَّ من انسبائي ايها الامير وليّ عهد صور "
" من هو هذا ؟ "
" الفتى اسرائيل الذي اغثتهُ عند بئر يعقوب الراعي "
" عند عين الغرباء . ارى ان هذا الامر الزهيد عرفهُ كل
العبرانيين "
" ليس الكل ولكن سوف يعرفهُ الكل لان اصطناع
المعروف من واحدٍ لا سيما من امير غريب معدود عندنا حادثة
عجيبة ولا بدَّ انهُ في الحال يبلغ مسامع الجميع . وان اسمك ايها
الشريف سيسوسترس سوف يُرسَم على كل ذاكرة وذكرهُ يحيي
ميت الرجاء في فؤاد كل عبراني "
وبعد ما مشينا قليلاً ساكتَين سألتهُ "
" اين هذا الفتى اسرائيل ؟ "
" مع شعبهِ قرب رعمسيس "
" سوف آخذهُ اليَّ "
" وهو سيخدمك بكل امانة يا مولاي الامير . انهُ من انسبائي
وساكون مديونًا لفضل حمايتك اياهُ . اذ ليس كل كتفٍ في
اسرائيل تستطيع القيام باحمال التسخير "
" أ فأنت اذًا من عائلة مريم ؟ "

"مريم الكاتبة ؟"

"نعم خادمة لكزورا واوسيريا في ممفيس"

"هي اختي"

"هكذا ظننتُ . وهل ابوك حيٌ ؟"

"نعم وهو بستانيّ الملكة في اون"

"اعرفهُ"

"ومنهُ سمعت عنك كما من ابن اسحق واسرائيل ومريم ايضاً"

"أ فلا تجيبني على سؤالي بعد ما عُرفنا اصدقاء كلينا ولم تعد بنا حاجة للمحادثة كغريبين احدنا عن الآخر؟ فكيف حدث حتى انك وانت عبراني تصير كاهناً ؟ أ ولا تعبدون انتم العبرانيين الاله الواحد ؟"

"ان الذين بيننا لم ينساقوا الى الخرافات وعبادة الاوثان وحافظوا على معرفة اله آبائنا ابرهيم واسحق ويعقوب هم قليلون وهذه المعرفة منحصرة على الخصوص في نسل لاوي وفي البعض منهم واما الباقون فهم افضل من المصريين قليلاً"

"أ فانت واحدٌ من عائلة لاوي ؟"

"نعم ونحن مجرّدون للدرس والمطالعة وطلب المعرفة والحكمة اكثر من باقي اخوتنا العبرانيين ولهذا ترى بعضنا معفين من عمل اللبن ومُقامين على خدمة الكهنة لاننا كتبة حاذقون في صناعة القلم والتلوين ولذا تراني في خدمة الهيكل"

" ألك وقتٌ طويل في هذه الخدمة ؟ "

" من الطفولية "

" فاذا لم تشارك شعبك في حمل الاثقال ؟ "

" أُخذتُ وانا ابن اربع سنين من على شاطئ النيل بقرب جزيرة الروضة حيث وُجدتُ باكيًا بكاءً مرًّا لانّي رأيت امي وضعت اخي الطفل في سفطٍ من البرديّ والقته في الماء ولما شاهدته محمولاً بالمجرى شعرت بالخطر عليهِ فاسرعتُ راكضًا على الشاطئ باكيًا واذا بكاهن رآني على هذه الحالة ورقّ لي واذ عرف اني ولد عبراني ذهب بي معللاً اياي بقولهِ اني سوف ارى اخي .
ومن ذلك الحين لازمت الهيكل لان امي اذ نظرته ذاهبًا بي تبعته على الأثر واذ وعدها بأنه يربيني كابن له وبسمح لها ان تراني مرّةً في الاسبوع ارتضت بذلك مسرورة لان اولاد العبرانيين في ذلك الحين كانوا في خطر مبين حتى في بيوتهم بداعي الامر الملكي الصادر وقتئذٍ بقتل او اغراق كل طفل ذكر عبراني "

" وهل فقد اخوك الطفل حينئذٍ ؟ "

" بدون ريب نظير مئات من الاطفال الابرياء "

" أليس من الممكن انه يكون أُنقذ بن رقّ له نظير الكاهن الذي عطف عليك ؟ "

" ومن كان يجسر حينئذٍ ان يُنقذ ولدًا من الموت المقضيّ بهِ عليهِ من لدن الملك . لا احد يجسر على ذلك الّا ابنة الملك "

" سمعت بذلك الامر الوحشيّ الذي اصدرهُ في ذلك الوقت فرعون اميونوفيس . وما هو عملك في هذا الهيكل الجميل ؟ "

سألتهُ هذا حين اقتربنا من الهيكل وشاهدت فخامة بنائهِ ورأيت قدامهُ تمثال ابيس الاسود

" انسخ او اكتب اسفارًا من البردي للموتى واسبك تماثيل من ذهب للعجل ابيس وافسّر الهيروغليف وانسخ فرائض طقسية واتولّى نظارة الاسفار المقدسة وادرس لغات اجنبية وانسخ من كتبها أحكم القوانين وافضل طقوس العبادة وان دخلت معي الى الهيكل أُريك مسبك (مكان السبك) التماثيل المقدسة حيث اعمل في الساعات الاربع التالية "

فاجبت طلبهُ شاكرًا لطفهُ ودخلنا الهيكل مجتازين رواقهُ ودارهُ الى المسبك فوجدت هناك كثيرين من العمَلة قائمين باعمال مختلفة البعض يصهرون الذهب والبعض يزنونهُ والبعض ينفخون النار والبعض يسبكون تماثيل ابيس الصغيرة في القوالب المعدَّة لها وكان عمل رفيقي العبراني نظارة خلط الذهب بمزيج خاصّ لهُ . ثم سار بي الى غرفة كبيرة مشحونة آنية فيها كثير من المصوغات الذهبية من خواتم واقراط واساور وقلائد وافادني بأنها مرسلة من هياكل مختلفة من جهات متفرقة لتُذاب وتُسبَك تماثيل على القدر المطلوب وان عائدات هذا الهيكل تؤخذ من

عُشر الذهب المسبوك . ثم تحوّلنا الى حيث رأينا رجالاً يسحقون تمثالاً قديماً لايس من ذهب اوفير سحقاً ناعماً لانهُ وقع في ايدي الحبشان ثم استُرجع منهم وأُرسل الى هنا ليُسحق ويُعاد سبكهُ جديداً لانهُ اعتُبر منجساً وحتى يطهر جيداً يجب ان يُغسَل مسحوقهُ بماء مقدّس هو على ما قيل لي غاية في المرارة

وإذ كان قد تناهى النهار شكرت عناية هذا العبراني وهممت بالانطلاق فقال لي :

" لا تذهب الآن ايها الامير . ان هذه غرفتي وتلك التي مقابلها غرفة مربيَّ الكاهن الشيخ فادخل ودعني اغسل يديك ورجليك واضع امامك شيئاً من الاكل . لان المسافة الى القصر النازل فيهِ بعيدة فلا يجمل ان تذهب طاوياً "

فقبلت دعوتهُ رغبة في زيادة الاطّلاع منهُ على امور أُخَر ذات شأن ودخلت منزلهُ . واذا بعبدين اسودين جاءا بابريقَي ماء الواحد لغسل يديَّ والآخر معهُ طست من فضة لاجل غسل رجليَّ وعلى كتف كلٍ منهما منشفة من كتان نقيّ

ثم وُضع لي خبزٌ وسمك وشيء من الفاكهة لكن مضيفي العبراني لم يشاركني في الاكل قائلاً ان شعبهُ لايكسرون خبزاً الاّ بعضهم مع بعض وزاد على ذلك " والمصريون يعدُّون مؤاكلتنا تجديفاً "

فاجبتهُ باسماً :

" اما انا فلست في شيء من هذا التحامل "

وبعد ما فرغت من مناولة الطعام وغسلت اصابعي في اناء بلوريّ قلت لمضيفي :

" لقد سرّني جدًّا اجتماعي بك لاني كلِفٌ بأمّتك وشديد الاهتمام بشأن شعبك . لاني كنيبنيقيّ غير بعيد عنكم في نسبة الاصل وكغريبٍ لستُ في شيء مما يعاملكم به المصريون وقد ساءني جدًّا ما شاهدته من القساوة والصرامة اللتين يعاملونكم بها لانكم على ما اعلمه من تاريخكم لم تشهروا قط عليهم حربًا ولا اسأتم اليهم بشيء "

" اننا منكودو الحظ وضعفاء لا سلاح لنا والضعيف فريسة القويّ على الدوام "

" أ لستم حاقدين عليهم ؟ "

" ان عبودية مئة وسبعين سنة علمتنا الصبر وجعلت الاحتمال غريزيًّا فينا . لكنني ارى ان هذه الحال لا تدوم على هذا المنوال ولسوف يأتي وقت فيه ترى مصر ان سلامتها تقضي عليها باطلاقنا ومنحنا جميع الحقوق المدنية "

" لا بدَّ من تغيير لهذه الحال . ومن الضروري ان يكون بينكم حتى الآن رجال يصلحون ان يكونوا قادةً ورؤساء "

ولكن ليس فينا احدٌ مدرّبًا على القتال والحرب لاننا منذ ثلاثة اجيال عادمو الاسلحة ليس بين ايدينا سوى ادوات العمل فان نبغ احدٌ منا بشيء فذلك يكون عرضًا او لحسن حظ وفائدة مستخدميه . وقد كنا قبلما سيق اكثرنا الى حقول اللبن نعمل في

صناعات مختلفة فحسدنا الصناع المصريون وسعوا فينا الى الولاة فارسلوا الوفا الى عمل اللبن ممن لم يتعودوا قط عملاً شاقاً كهذا وعليه ترى مئات يذهبون ضحايا هذا الظلم وشبان كثيرون كالفتى اسرائيل يرزحون كل ساعة تحت احمالهم التي لا يستطاع حملها"

"ألا آلهة لكم؟ ألا أذن تسمع صراخكم؟ أما لكم طريقة عبادة؟ بلغني ان لا مذبح ولا هيكل عندكم"

"يعتقد قليلون منا بوجود اله واحد وبأنه روح وان كل الناس ذريته وانه يجب علينا ان نكون عادلين لكي نرضيه لكني اعترف لك بأنه حتى اولئك القليلين بيننا قلما يعرفون عن الله الذي نعترف بالايمان بوجوده وسوادنا يرون انه يسهل عليهم بالاكثر ان يعبدوا آلهة مصر المنظورة ويتكلوا عليها. فترى شعبنا من اعماق الشقاء يبسطون ايديهم بالدعاء الى اوسيرس وبتاه وتماثيل ايس صارخين 'خلصونا ايها الآلهة من مصر وانقذونا من عبوديتنا'. فقد صرخوا عبثاً الى اله ابرهيم غير المنظور والآن باطلاً يصرخون الى آلهة مصر — لا سامع ولا مجيب وهكذا غرقوا في لجج اليأس وعدموا كل ثقة بالله"

"أ يمكن ان يكون هذا صحيحاً؟"

"تقريباً وذلك من شدة تأثير التمثل والاقتداء وجهلنا عبادة اله آبائنا . فديانة المصريين محسوسة ونحن العبرانيين لا نعرف

عن الله اكثر من ان آباءنا كان لهم اله وقد تُركنا نحن اولادهم المنكودي الحظ رازحين تحت ثقل نير العبودية . أفعجبٌ ان كان حتى حكماؤنا يلتفتون الى آلهة مصر؟ وان كان المصريون ناعمين في ظلال السعادة وبحبوحة الرجاء ويموتون بسلام فحسبنا ان نكون مثلهم ولتكن آلهتهم آلهتنا . هذا لسان حال شعبنا"

وقد نطق بكل هذا على اسلوب ترجم عن كآبة نفسهِ ومرارة قلبهِ . ثم نهضت وودعتهُ وانصرفت وبي ارتياح شديد الى الوقوف على تاريخ هذا الشعب العجيب

ابنكِ المحب

سيسوسترس



الرسالة التاسعة عشرة

قصر امنس   جزيرة الروضة

والدتي العزيزة

انني بتأثر وانفعال لا استطيع التغلُّب عليها اعود الى مكاتبتكِ بعد انقطاعي عنها اسابيع عديدة وليت شعري لست ادري كيف اصف لكِ وامثّل لعينيكِ الحوادث الخارقة التي عرضت في خلال هذه المدّة . وسوف ابذل جهدي في اثبات هذه الحوادث المنقطعة النظير مسرودة على نظام وقوعها وامكّنكِ من استمرار الوقوف على هذه المسألة الغامضة الآخذة من نفسها في الوضوح والجلاء

ففي احدى رسائلي للاميرة ثامونطا ذكرت اقتراب عيد ميلاد رعمسيس — او بلوغهُ الخامسة والثلاثين من العمر — وان

الملكة عزمت ان تخلع في ذاك اليوم تاجي مصر وتتخلى له عن الصولجان وتعتزل الى قصر جميل اكملت بناءه مؤخرًا على السفح الشرقي من جبال ليبية غربي الاهرام

وقد أطلعت الملكة رعمسيس على عزمها هذا بعد رجوعهِ من حملة الحبشان بثلاثة اسابيع ولم اكن حاضرًا ساعة اجتماعها بهِ لكنني اورد لكِ تفاصيل ذلك نقلاً عن رعمسيس الذي يثق بي ثقة الاخ باخيهِ ولا يخفي عني خافية من امورهِ

وتفصيل ذاك اني بعد رجوعي صباح يوم من زيارةٍ في غربي ممفيس وبلوغي جزيرة الروضة لقيني خادمي اسرائيل الذي تربيةً الآن عندي ناعمًا في ظلال الهناء والرخاء باسمًا عن ثغر الشكر والاعتراف بالجميل وقال لي:

"ان وليّ العهد يريد ان يراك يا مولاي في غرفتهِ الخاصّة وقد امرني بأن اطلب منك الاسراع في الذهاب اليهِ"

ولما بلغت الغرفة وجدتهُ يتمشى في عرضها جئةً وذهابًا مصفرّ الوجه منطّب الجبهة وحين دخلت دنا مني واخذ يدي بيديهِ وشدّها الى صدرهِ وقال:

"يسرّني رجوعك الآن يا صديقي بل اخي سيسوسترس . تعال واجلس بجانبي مقابل الشباك فان عندي للكلام شيئًا كثيرًا — كثيرًا واحتاج الى مشورتك"

"من اين لمثلي ان يشير على رجل حكيم عظيم نظيرك ؟"

"تقول هذا من شدّة تواضعك ووفرة ادبك ولكن ينبغي لي ان اقصّ عليك جميع ما حدث فارعني سمعك وبعد ذلك تكون قادرًا على امدادي بنصحك ومشورتك. فلبس يخافي عليك الغمّ المستولي على والدتي في هذه الايام الاخيرة فانها على الدوام مشرّدة الفكر مضطربة الذهن مسلوبة الراحة ولك قد لاحظت هذا اذ تكلمنا في شأنهِ قبل الآن متعجبين من حالتها الراهنة التي لم يفوّ-ببب انتصارها على الحبشان ونجاح مملكتها وسلام تخومها ومحبة شعبها لها وتعبُّدي انا لجلالتها على تحويلها عنها ولم تؤثّر في قشع سُحُب سودائها ألحان العود ولا نغمات المغنين والمغنيات"

"فاذًا تظنُّ ان هذا التشويش الذهني الطارئ عليها له علاقة بمرضها حين تناول النائب مريس الطعام منا؟"

فذعر رعمسيس وحملق نظرهُ فيّ وقال:

"ماذا حملك على الافتكار بهذه الحادثة؟"

"لان الملكة من ذلك اليوم لم تنل صحة تامة وسرورًا كاملاً"

"ماذا تظن في الامير مريس؟ تكلّم بجلاء"

"انهُ رجل متكبر طمّاع عديم المبادئ"

"أَ تظنهُ يحبني؟"

"لا اظنّ"

" اصبت ولكن اسمع ما اقصُّ عليك . منذ ثلاث ساعات استدعتني امي فوجدتها امام ذخيرة اوسيرس تصلي . وحين دخلت كانت جاثية على ركبتيها ووجهها نحو الاله وعيناها مغرورقتان بالدموع كأنها تخترق بهما حُجُب السماوات تفتيشاً عن قوّة حيّة تستطيع ان تسمعها وتستجيب صلواتها ولم تنظرني عند دخولي وقد سمعتها تقول :

" إحمِ أبنَنا . لا تسمح بذبوع سرّي وقدّر له الجلوس على عرش مصر . يا اوسيرس الخالد الشفوق . اسمعني يا اسيس . يا إلاهة القدس المقدسة وام هورس اسمعيني . هبيني قوّة على العمل وحكمة للتصرُّف في حيرتي العظيمة "

فدنوت منها وجثوت بجانبها واسندت رأسها على صدري وقلت :

" ليستجب لكِ اله الآلهة غير المحدود يا أمي . ما هذا الذي كنتِ تتضرّعين لاجلهِ بمزيد التهطر والجزع ؟ "

فنهضت صارخةً :

" وهل سمعتني ؟ ماذا سمعت ؟ كلاّ . ألم أبح بسرّ ؟ "

" لم تبوحي بشيء على الاطلاق . وانما اشرتِ الى ما ازعجكِ كثيراً "

ثم توكأت عليّ وسرتُ بهـا الى معزلٍ فيهِ ذخيرة اثور فخاطبتني :

" اجلس يا رعمسيس – يا ابني رعمسيس وأصغِ الى ما اروم بثهُ لك . ان في فؤادي همًا غير منقطع فلا تسلني ما هو . ان هذا السرّ سوف يبقى كما ارجو الى الابد مكتومًا عنك . فلا تسل – لا تحاول معرفته . فلربما تنجح في محاولة استجلاء ما هو مدفون في طيّ الهرم العظيم ومحجوب عن عيون البشر اكثر من محاولتك ابتلاء سرّي المدفون في اعماق قلبي . لانهُ سوف يُحنط معي ويصحبني الى العالم الاسفل "

فقلت لها :

" انكِ مريضة يا امي فدعيني احضر لكِ طبيبكِ "

" كلاّ – كلاّ . لستُ مريضةً . عما قليل يسكن روعي ويزول اضطرابي . فيدك يا رعمسيس مقلاد سعادتي ومفتاح صحتي "

" اذًا ادفعها اليكِ "

" أصغِ الى كلماتي يا ابني رعمسيس أولستَ انت ابني يا رعمسيس الشريف ؟ "

" اني ابنكِ بمحبة خالدة "

" هل ارتبتَ مرّةً يا رعمسيس في محبتي ؟ "

" ابدًا ابدًا لم أرتب "

" ألم اكن لك امًا مخلصة الحب صادقة الحنوّ ؟ "

" لماذا تزعجين نفسكِ بسؤالات كهذه عديمة الفائدة ؟ "

"هل اهملت شيئاً من واجبات الوالدة نحوك ؟"

"على الدوام كنتِ لي ما تستطيع ان تكونهُ الوالدة"

"هل تظن ان الوالدة تستطيع ان تحب ابنها أكثر مما احببتك ؟"

"كلاَّ يا امي"

"وانت يا رعمسيس هل تحبني ؟"

"هل ترتابين في هذا ؟"

"كلاَّ . بل اودُّ ان اسمعك تقول احبكِ يا امي فوق كل شيءٍ تحت السماء"

فابتسمت مكرّرًا الكلمات وموجسًا خوف إلمام عارضٍ بعقلها باعثٍ بهِ على التشويش والاختلال . ثم قالت :

"اني الآن يا ابني رعمسيس متقدمة في الايام فقد اجتزت الحادية والخمسين من عمري ومللت حمل الصولجان فأودُّ ان اراك ملك مصر وانا حيَّة . اروم ان اشاهد عظمة ملكك وبهاءهُ واقرَّ عينًا برؤْية مجدك وقدرتك لاني بعد ما أُوضع في ناووسي تحت العمود الهرمي الذي اعددت تحتهُ لنفسي لا اعود قادرة على رؤْية شيءٍ من هذا . فنيتي الآن ان اهبك سلطنة مصر وبعد ما اراك مستويًا على عرشها لابسًا تاجها وقابضًا على صولجانها اعتزل الى قصري في سفح جبال ليبية ومن هناك اتأمل في عظمتك واملك ثانيةً فيك"

فاجبتها :

" ان ذالك بعيدٌ عني يا أُمي الملكة . انكِ لا تزالين في ريعان العمر وميعة الاقبال وغلواء الجمال وبالجهد أرى للمشيب اثرًا في شعركِ الحالك السواد فانتِ صبيةٌ بعد أسأل رب ملوك الارض ان يطيل بقاءكِ ويبقيكِ على عرش ملككِ بيد العزة والمنعة . فلا اقبل منكِ التاج الاَّ حين ينقلهُ اوسيرس نفسهُ عن رأس جلالتكِ الى رأسي "

" كلاَّ يا رعمسيس ان مشيئتي شريعةٌ ولم يُخالف لي امرٌ قبل الآن "

" ولكن هذا فوق طوري اطاعتهُ "

" اني غير متحولة عن عزمي . وعمَّا قليل يكون عيد مولدك وبلوغك الخامسة والثلاثين وفي هذا العمر تتوَّج هورس ابن ايسيس فاروم ان استعدَّ لتتويجك واحتفل بجميع الطقوس والفرائض التي تقضي بها ديانة مصر وشرائعها في جلوس وليّ عهدٍ نظيرك على عرش الفراعنة "

" أُمي يا أُمي العزيزة الجليلة . عفوًا منكِ لا استطيع قبول العرش الذي لا تزالين مستويةً عليهِ . انكِ مضطربة الفكر بداعي حزنٍ مخفيّ عني قد أناخ عليكِ . ولم يكن التقدم في العمر الباعث على عرضكِ عليَّ عرشًا لا اتمكن بعد لحداثتي وقلة حكمتي من الاستيلاء عليهِ بل السبب لذلك مكتوم عني والتمس منكِ

ان تُطلعيني عليهِ"

"وهل تجيب طلبي اذا مكّنتك من سرّي وتقبل التاج ؟"

"اذا وجدت ان الضرورة تقضي بقبول التاج قبل الاوان لا أتأخر عن ذلك"

فاجابتني والدموع ملء اجفانها :

"ان لم تضطرّك دواعي الضرورة التي تراها الى قبول طلبي فلتكن محبتي وسعادتي وطمأنينتي قاضية عليك بهِ"

"ارجوكِ ان تُطلعيني على الباعث بكِ على طلب شيء خارقٍ"

"ليس خارقًا فقد طالعت سفر مُلك الفراعنة الذي في مكتبة هيكل ثوث فوجدت ان في مدّة الفي سنة تنازل نحو سبعة ملوك وثلاث ملكات عن الملك لاولادهم او للذين تبنّوهم . وتاج مصر هو لي بحق شرعي من الآلهة ووراثي من آبائي وما كنت لانتظر اله الموت ان ينقلها مني بل بيدي اروم ان اضعها على رأسك ويجب ان يتمّ ذلك حالاً – الآن . والاّ لم يعد احدٌ منا كلينا قادرًا على الملك في مصر وقتًا طويلاً"

فتوسلت اليها ان توضح لي هذا الكلام الغامض فقالت :

"تعال اجلس بجانبي . سكّن روعك يا رعمسيس . وأصغِ اليّ بما اعهدهُ فيك من الطاعة والاحتفال بكلامي حين اتكلم"

فاطعتها وقالت :

" انك تعرف ابن عمك مربس وشدّة طمعهِ ولجاجتهِ وكبريائهِ وميلهِ الى السيادة الذي زادهُ تعطشاً اليها توليهِ نيابة ثيبة — وتعلم ايضاً شدَّة بغضهِ وحسدهِ لك . لا شيء من هذا مخفيٌّ عنك . هذا الامير الذي عاملتهُ احسن معاملة وجعلتهُ ثانياً لي في ثيبة يحاول اهلاكك وخراب عرشي "

" ما هو دليلك على هذا ؟ "

" أصغِ اليَّ . ان الامير مربس مطَّلعٌ على سرّ (لا تسلني عنهُ) مكّنهُ من التسلط عليَّ الى درجة مخطرة مخيفة وقد توصّل اليهِ بطريقة لا اعلمها وجعل في يدهِ قوّة ترتعد فرائصي تحتها . لا تسلني عنها . انها سرٌّ يصحبني الى القبر . ومع ذلك اقول ان مربس هذا الوافر الغنى والدهاء والكثير الطمع الساقط المبادئ والشرس الاخلاق بيدهِ زمام سعادتي "

" ولماذا ولَّيتهُ نيابة ثيبة ؟ "

" تهدّدني بافشاء السرّ واضطرَّني ان أُوليهُ اعمال ثيبة ترضية ورشوة "

" ولماذا قلّدتهُ امارة عمارة النيل ؟ "

" رشوةً اخرى عند تهديد آخر بأنهُ يخبرك "

" يخبرني انا ؟ "

" هل قلتُ انتَ . كلاَّ . كلاَّ . بل حين تهدّدني باذاعة السرّ "

"ولكن من يهمهُ إذاعة هذا السرّ ؟"

"ان اذاعتهُ تضرّ مَن – مَن أُحبهُ – تعدمني سعادتي وتلاشي آمالي – وتفيد مربس نفسهُ"

"اذًا لماذا لا تسحقين رأس هذه الحية الخبيثة ؟"

"لا اجسر على ذلك لانهُ بكلمة واحدة ولو كان راسفًا باثقل القيود يُعلن كل ما حرصتُ كل حياتي على كتمهِ وينال الانتقام الذي ترتاح اليهِ نفسهُ الاثيمة . كلاَّ . كلاَّ . لا يمكن اغضاب مربس . بل من الضرورة ان يُجارى في سبيل مطامعهِ"

وما هي تلك المطامع ؟

فسألتهُ بعد ما عاد الى مجلسهِ بجانبي وتغلَّب على الانفعال الذي اقامهُ واقعدهُ كثيرًا :

"أما ظننت شيئًا ايها الامير رعمسيس من جهة هذا السرّ ؟"

"كلاَّ يا عزيزي سيسوستريس ولا اعلم ما هو الاَّ اذا –"

وانقطع عن الكلام متوردًا ومتشوّشًا فسألتهُ :

"أكمل جملتك"

"الاَّ اذا كان مربس ابن امير ثيبة وانا ابن اخي فرعون او بكلمة اخرى . مربس ورعمسيس متبادلان ومربس يعلم هذا الامر"

"ان هذا فكر خارق" . قلت هذا لكنني في الوقت نفسهِ تذكرت يا والدتي العزيزة ما اشرتُ اليهِ سابقًا في رسائلي

لكِ من جهة عدم وجود ادنى مشابهة بين رعمسيس ووالدتهِ امنس فقلت :

" ماذا بعثك على الافتكار بهذا الامر الغريب ؟ "

" لخصتهُ من ملاحظات متعددة وعلى الخصوص من اهتمام والدتي في اقناعي بشدَّة محبتها لي ومحاولتها بدون داعٍ ان تقتنع بمحبتي الشديدة لها حتى اني عند افتكاري بهذا الامر سألتها صارخًا :

" لماذا لا يجب اغضاب مريس ؟ لماذ لا يُصدُّ عن اساءتهِ اليكِ ؟ "

" قد اخبرتك بالسبب . لكنني اراك في هياج ينذرني بخطر يتهدَّدنا نحن الثلاثة "

" ينبغي ان اقاومهُ وان مسَّت الضرورة اهلكهُ ولا ادعهُ يسلب والدتي سلامها "

" نعم اني امك وانت ابني . واني عالمة بأنك تذود عني ولا تدعهُ يحول دون مرامنا "

" ليس لهُ حقٌ في العرش فهو اقصر من ان يناله في حياتكِ وحين استوي عليهِ اعرف كيف اصونهُ منهُ فلا تخافي جانبهُ ودعيهِ يموت وسرُّهُ "

" وانت ايضًا يا رعمسيس "

فسألتها وقد زدت اشتباهًا واستولى عليَّ الخوف والجزع :

" انا يا امي اي والدتي الملكة امنس لقد داخلني ارتياب مخيف فقولي لي أَ ما انا ابنكِ ؟ "

وما بلغت مسمعها هذه الكلمات حتى صرخت بأعلى صوتها وهوت الى الامام وكادت تخرُّ على الارض صريعة لولا اني في الحال استلقيتها بذراعيَّ وقبّلت جبينها المغشيّ بصفرة الموت محاولاً انعاشها بالاستعطاف والاستغفار ولما استفاقت قليلاً شخصت فيَّ وهي ملقاةٌ على صدري بعينين غائرتين وقالت :

" رعمسيس . من — مَن قال — مَن قال هكذا ؟ "

" لا لا لا احد يا والدتي العزيزة وانما هي شبهة عرضت لي لاني لم ادرك هذا السرّ الذي بينكِ وبين مريس فتوهمت بحدوث (ما حدث سابقًا في مصر) مبادلة بيني وبينه . فهل مريس ابنكِ وانا ابن اخي اميونوفيس ؟ "

واذ ذاك سُرِّيَ عنها فأنهضت رأسها ضاحكةً مسرورة واجابت :

" فاذًا هذا كل ما تخشاهُ . فلا حاجة الى القلق لان مريس ليس ابني وما هو الاّ احد انسبائي . أ ويمكنك الظن في ان ذلك الامير الرديء من ذريتي "

" فاذًا انا ابنكِ بالرغم عن مريس ؟ "

" هل عرفت قط امًّا سواي ؟ كن مطمئنًا . فمريس ليس بابني ولا مطمع لهُ في الملك . على انهُ سعى مرَّةً في اهلاكي ويوم

تناول الطعام عندنا ومرضتُ رشا ـ اقيَّ ليدسّ لي سمًا في الكأس واكرههُ على ذلك متهددًا اياهُ لكنـهُ حين ناولني الخمر ضغط خنصري عامدًا فنظرت في عينيهِ علامة الانذار لي فلم اشرب مدّعية بأني منحرفة الصحة وخرجت من الوليمة ودعوت ساقيَّ فاعترف بما فعل . ولما علمت بمكيدة مريس استولى عليَّ اليأس فاستدعيتهُ في اليوم التالي وكان اجتماعنا قصيرًا لكنهُ مخيفٌ الى الغاية لانهُ صرَّح بمحاولتهِ اعدامي لاني ابيت عليهِ تاج مصر العليا ولم اعطهِ نصف مملكتي . وهدَّدني بافشاء السرّ او امنحهُ تاج ثيبة الابيض فحاولتهُ وماطلتهُ وتولّى امارة العمارة ولم اجسر على ردعهِ ولم أرد ان أُطلعك على ذلك ووعدتهُ بأنهُ اذا دخل عاصمة الحبشة في ستة اشهر اجعلهُ ملكًا على ثيبة"

"وهو الآن ذاهبٌ في حملتهِ وزاحفٌ بقوَّاتهِ"

"نعم وذلك ليس رغبةً في اخضاع الحبشة بل باغتصاب احد تاجي مصر"

"وهل انتِ مصرَّة على انجاز وعدكِ لهُ ؟"

"كيف لا وقد استحلفني باعظم الآلهة بأني اذا فتح عاصمة الحبشان . وبقي من جهة ذلك السرّ محافظًا على الكتمان . امنحهُ من عن رأسي تاج مصر العليا الابيض الرفيع الشأن"

"اذًا ما هذا السرّ الذي حبًا بكتمانهِ سمحتِ بأحد تاجيكِ ؟ بوحي لي بهِ . ألا تثقين بي ؟ ألا استحق الاطلاع على سرّ لا يكتمهُ

مريس الاَّ بالرشوة ؟"

"رعمسيس — يجب — يجب — يجب انك لا تطَّلع عليهِ . لا تَسَل – لا ترتب في شيءٍ . لا تشكَّ فيَّ والاَّ تقتلني . قبِّلني يا رعمسيس . قبّلني يا ابني . ألستَ ابني ؟ اني احبك واعلم انك تحبني . وهذا يكفي . يجب ان تصير ملكاً . ينبغي ان تلبس التاج وتقبض على كلا الصولجانين . وعليهِ يجب ان تكون ملكاً منذ الآن أفهمت قصدي ؟ ينبغي ان لا يزحف مريس على الحبشان . من الضرورة ان يكون من يسود على ذلك الشرير ويقطع شافة شرهِ . ويردّ كيدهُ في نحرهِ . اما انا فغير مستطيعة على ذلك . وعليك من الآن ان تقوم عني بتولّي السيادة حرصاً على سلامة مصر وصيانة عرشك وتاجك"

"امتثالاً لامركِ واطاعةً لارادتكِ وحرصاً على حفظ راحتكِ وسعادتكِ وتنكيلاً بمريس ونكايةً لهُ وصوناً لحقوقكِ المقدسة من ان يعبث بها وغدٌ كنودٌ كهذا أرضخ لمشورتكِ واذعن لارادتكِ واقبل الصولجان الذي ترغبين في نقلهِ الى يدي الضعيفة واني مستعدٌ ان يحتفل بتتويجي حسب العادة المقدسة المرعية وفي كل ذلك ابقى لكِ ابناً محبّاً مطيعاً ومتأهباً لان اجعل مريس يذهب فريسة مطامعهِ ومكايدهِ"

"وحينئذٍ أُفعم فؤادها فرحاً وسروراً فودَّعتها مستأذناً في الانصراف حبّاً بالانفراد المتأمل في كل ما حدث من الامور

الغريبة . واستدعيتك اليَّ"

هذا ما قصة عليَّ الامير رعمسيس ومن يعلم يا والدتي العزيزة ما سيكون وراء هذا السرّ العظيم من النتائج ذات الشأن

وليكن مسك ختام هذه الرسالة عابقًا بذكر شدَّة تعلقي وتعبُّدي لشخصكِ المحبوب ابنها الوالدة العزيزة وَقتكِ الآلهة من مثل هذا السرّ وصانتكِ من رجلٍ كمريس مملوء كل اثم ومكر . وخبث وشرّ . وخيانة وغدر

ابنكِ المحب

سيصوسترس

الرسالة العشرون

جزيرة الروضة قصر الملكة

والدتي العزيزة

في رسالتي السابقة اطلعتكِ على تفاصيل الحوادث الطارئة من جهة عزم الملكة على التنازل عن التاج والصولجان للامير رعمسيس وامتثالهِ اخيراً لاشارتها

والآن اصبح من الضروري عملاً بنواميس المملكة ان يُعدّ رعمسيس للعرش باتمام طقوس دينية معيّنة ويمكَّن من معرفة اعمق اسرار الهياكل لانهُ مع كونهِ وهو امير معدوداً بالاسم رئيس الكهنة لا يقدر ان يقدم اسمى ذبيحة على مذبح اوسيرس — (وهذا اعظم فرض ديني في الكهنوت المقدس) حتى يصير ملكاً . ومثال "كاهن" لا يُنقش الاَّ على مجانّ الملوك . وهكذا ترين ان الفراعنة

بكونهم رؤساء الكهنة يعضدون سلطتهم السياسية ويمكّنون بواسطة هذه الرتبة السامية نفوذهم واستيلاءهم وبها يجعلون الشعب يطيعونهم اكثر مما لو كانوا ملوكاً فقط لانهم بداعي رتبة رئاسة الكهنوت يُعتبرون عند الشعب الوسطاء بينهم وبين الآلهة . ومع كون الملك منهم مطلق السيادة على الشعب فهو ليس كذلك على الكهنة فلا يسودهم الاَّ برضاهم واختيارهم وليس ذلك فقط بل مضطرٌ ان يجري بموجب قانون يسنه كاهن أُون ويُنسخ له يوم تتويجهِ . وهكذا ترين الملك تحت حكم الكهنة

وهنا اتكلم عن كل ما يتعلق باعداد رعمسيس للجلوس على العرش . فكما ذكرت آنفاً ان الملك ممثّل الآلهة وعنوانه فرا او فرعون يدل على "الشمس" و"ملك" و"سيد النور" وهو مع كونهِ رئيس الديانة ليس فقط القاضي والمشترع بل هو رئيس قادة الجيوش وقائدها الى الحرب . وقد منحت هذه الرتبة الاخيرة (قيادة الجيوش) لرعمسيس من والدهِ بارادة مجلسها من عدَّة سنين . وصولجان الملك ينتقل بالوراثة الاَّ اذا لم يكن ثمَّ وارثٌ شرعيّ فللملك حينئذٍ حقٌّ ان يتبنّى ايًّا اراد من رجال الكهنوت او العسكرية لان هاتين الرتبتين ينخرط في سلكها رجال المكانة والوجاهة . اما البحرية فلم تكن قبل تولّي مريس امارتها ملحوظة بعين الرعاية والاهتمام واكثر الفراعنة كانوا من سلك العسكرية وكذا اولياء العهد من اوستراسن الى رعمسيس تقلدوا قياد الجيوش

ولكن لم يقم بينهم نظير رعمسيس في الاهلية والاقتدار على القيادة العامة بغاية التحنيك والتدريب

وقبلما يستوي وليّ العهد على العرش تفرض عليهِ الشريعة ان يدرَّب في جميع اسرار الديانة ويخرَّج في معرفة ما كان الى الآن مكتوماً عنهُ من طقوس الخدمة الدينية وشرائع البلاد وواجبات الملك كما هو مسطور في كتبهم المقدسة

ولاجل التعمق في هذه الاسرار والتمكن من هذه الشرائع والقوانين يُفرَض عليهِ ان يقضي اربعين يوماً في هياكل اوسيرس وبتاه وابيس وآثور وآلهة أُخر وان يحيي الليلة الاخيرة من هذه المدَّة في هيكل ثوث امام الاهرام متبتلاً مستمدًا بركات الآلهة ومقدمًا التقادم والسكائب . وعند انقضائها وطلوع الشمس يؤتى بهِ في موكب من الكهنة الى هيكل الشمس ليتوَّج في مشهد حافل بشرفاء مصر وولاتها وقوادها

وبناء عليهِ برح رعمسيس القصر في اليوم الثالث بعد اجتماعهِ بوالدتهِ وانقطع الى هذا التبتل المقدس في هيكل الشمس اما رؤساء الكهنة الذين جمعتهم الملكة للاستشارة فاجمعوا على قبول استقالتها بمزيد الكدر لكنهم ابدوا مزيد الارتياح والهشاشة الى تتويج رعمسيس . والكدر العام الناتج عن ذيوع خبر استقالة الملكة لا يلبث ان يتلاشى امام بشرى الاستعداد لتتويج رعمسيس حتى انهُ قال احد الصناع العاملين في بناء عمودها " لا يجب ان نحزن ما

دامت ملكتنا الصالحة حيّة اذ يمكننا ان نفرح بتولّي رعمسيس
ونظلّ نُكرم جلالة والدتهِ"

وقد رافقت رعمسيس الى دهليز الهيكل حيث استقبلهُ رئيس الكهنة في مقدمة اثني عشر كاهنًا وتقدم ثلاثة آخرون لينزعوا عنهُ ثيابهُ ويلبسوهُ ثيابًا كهنوتية مقدسة. ثم احاطوا بهِ احاطة الهالة بالقمر وتواروا بهِ عن البصر. واني الآن بالتماس منهُ ومن والدتهِ الملكة مقيم عندها في قصر الروضة

وغير مأذون لاحد ان يراهُ في مدة نسكهِ وانقطاعهِ الى ان تنتهي الاربعون يومًا . وعند ما ينتقل من هيكل الى آخر يكون ذلك نصف الليل ولا يؤذن لاحدٍ ان يجتاز في الشارع الذي يسير فيهِ موكب انتقالهِ . وقد مضى عليهِ الآن في تزهدهِ اربعة وثلاثون يومًا

وبعد ظهر امس بينما كنت اتصيد مع نخبة من الاعيان على بحيرة امنس الكبيرة ارسلت الملكة تستدعيني اليها فاستأذنت منهم وجئت مسرعًا الى جزيرة الروضة ولما بلغت المرفأ وجدت بارجة الامير مريس هناك ومجذفوها قائمون في اماكنهم على اهبة الجذف عند اوّل اشارة تُلقى عليهم وعند بوابة القصر لقيت أخريس الذي شُفي من مرضهِ الطويل كما كنت اخبرت اباهُ وقال لي ولائحة الاهتمام تلوح على وجههِ :

"يسرّني مجيئك يا مولاي لان جلالة الملكة في كآبة وغم

عظيمين "

" هل الامير مريس هنا ؟ "

" كلاَّ يا مولاي بل ان بارجنة جاءت برسول من عنده يحمل رسائل الى الملكة "

فقلت في نفسي لعلهُ صادف انكسارًا وفشلاً على تخوم الحبشة. ثم سرت داخلاً فلقيت في غرفة الانتظار رجلاً غريبًا استدللت من ملامحهِ وهيئة ملابسهِ انهُ احد كبار ثيبة فحيَّاني بابهة وانفة ولما مثلت بين يدي جلالة الملكة وجدتها وحدها تخطر ذهابًا وايابًا على قدم القلق والاضطراب ولما نظرتني دنت مني قائلة :

" أي وليّ عهد صور الامير سيسوستريس الذي هو عندي بعد رعمسيس في المكانة والاعزاز يسرّني قدومك الآن . عفوًا عن استدعائي اياك "

قالت هذا والدموع تنهلّ من اجفانها والحجة عابثة بكلامها فاجبتها :

" حسنًا فعلتِ ايتها الملكة الجليلة باستدعائي لاني اراكِ في قلق عظيم "

" بل في حالة فوق طوري احتمالها "

" هل انكسر مريس ؟ "

" مريس انكسر . كلاَّ آه كلاَّ . بل هو منتصر لكنني اتكلم ملغزةً "

"هل حدث شيء لرعمسيس في معتزلهِ المقدَّس ؟"

"كلاَّ . كلاَّ . بل هو مريس العامل على كسر قلبي وسحق نفسي"

"ماذا افعل ؟ ماذا يمكنني ان اعمل ؟"

"لا يمكنك ان تعمل شيئًا اما مريس فقد فعل كل شيء . ولكن يتعذَّر عليك فهم كلامي اذ يوجد سرٌّ مخيف ولم استدعِكَ لاعلانهِ لك — بل — لتشاركني في الشعور . انا اعلم انك تحب رعمسيس ولك امٌّ تحبها وتكرمها"

"واني ايضًا احبكِ واكرمكِ يا امي". ثم اخذتها بيدها لاجلسها على الكرسي لكنها أَبت الجلوس ورمقتني بعين حادة كأَنها تحاول اختراق نفسي والبلوغ الى اعماق قلبي ثم سأَلتني :

"هل اطلعك رعمسيس على كل ما دار بيني وبينهُ من الحديث ؟"

"نعم"

"هل اخبرك بالسر الذي كتمتهُ حتى عنهُ ؟"

"نعم وان مريس عالم بهِ ومتسلح بهِ ضدكِ"

"هل ارتاب رعمسيس في شيء من جهتهِ ؟"

"حصل عندهُ بعض ارتياب لكنكِ أَزلتِهِ من قلبهِ"

"نعم فانهُ ظنَّ ان مريس ابني الحقيقي أَفليس هذا فكرًا غريبًا ؟ ومن ذا يرتاب في ان رعمسيس ابني ؟"

"لا احد"

واذ قد رأيتها في اضطراب أوجستُ عنهُ الخوف عليها سألتها ناظراً الى الرسائل التي في يدها:

"عسى انكِ لا تكونين واقفة على أنباء مكدرة؟"

"آه مكدّرة. كلها مكدّرة كلها". ثم صرخت بغتة:

"ايها الامير سيسوستريس. يمكن الاتكال عليك والثقة بك واني في حاجة الى مشارك لي في الشعور والاهتمام ولا يمكنني توقُّع ذلك منك ان لم أُطلعك على سرّي المخيف. ولست اجهل اني استطيع الثقة بك. وان قلبي لا مندوحة لهُ عن الانسحاق ان لم أُلقِ شيئاً من حملهِ الثقيل على عاتق فؤادٍ آخر"

"بعد بضعة ايام يعود اليكِ رعمسيس و—"

"لا — لا. انهُ عتهٌ. يجب انهُ لا يطّلع ابداً على سري. انهُ يُودي بهِ ويصرعهُ على الارض ميتاً كمن اصابتهُ صعقات السماء. لا لا. فامام رعمسيس يجب ان اسكت عن هذا السرّ سكوتاً ابدياً"

"ان وجدت نعمةً في عيني جلالتكِ وكنتُ اهلاً لثقتكِ فاني بمزيد الشكر اصغي الى ما ترومين اعلانهُ لي واقاسمكِ جهدي الشعور والافتكار"

"أَتعدني بأنك تكتمهُ عن رعمسيس؟"

"نعم"

"تعال اذاً معي الى مخدعي السرّي"

وفيما انا سائرٌ وراءها اعلن لها الحاجب انتظار الرسول الجواب فاجبتهُ عنها "انها في الوقت الحاضر مشغولة فعليهِ بالانتظار" وكان ذلك الرسول الثيبي وراء الحجاب فعضّ شفته عند سماعهِ جوابي علامة السآمة والملل وقد رأيت على وجهه نفس ملامح سيتِ مربس الناطقة بالعجرفة وخبث الطوية . ولما خلوت بالملكة دفعت اليَّ رسالة مكتوبة على ورق فضّي عادة ملوك ثيبة في رسائلهم الرسمية وفي رسالتي الآتية التي ستبقى مكتومة عنكِ في الوقت الحاضر وربما الى الابد (الاّ اذا ازالت الحوادث الحجاب الحائل دون السرّ المعلن لي وفضّت ختامهُ) اثبت ملخص تلك الرسالة

والآن اختم هذه الرسالة بالابتهال الى الآلهة ان تحفظكِ من كل مكروه ويطيل رب الشمس غير المنظور عمركِ ويوّيدكِ على عرشكِ . ارجو اني قريباً اسمع عن نتيجة وفدكِ المرسل الى ملك قبرس البربري

ابنكِ المحب المطيع

سيسوسترس

الرسالة الحادية والعشرون

قصر الروضة

والدتي العزيزة

سوف ابقى ممسكاً عنكِ هذه الرسالة التي احرّرها الآن حتى يُصدَر لي امرٌ بجواز ارسالها اليكِ او بتمزيقها ولكنني حبّاً بمتابعة مجرى الحوادث الطارئة سطرتها على هذا المنوال تسهيلاً للمراجعة عند مسيس الحاجة

فالرسالة التي دفعتها الملكة اليّ مبعوثة لها من مربس رأيتها من النظر الى تاريخها قديمة العهد ولما ادركت الملكة اندهاشي قالت لي على الفور:

"اقرأ هذه اولاً . فلا اخفي عنك شيئاً . سوف تطّلع على كل شيءٍ من البداءة"

وباذن جلالتها نحثنها في ما يلي :

" قلعة بوباستس . بلزبوم دلتا "

" الى الملكة امنس " :

" اخاطب جلالتكِ بهذه الرسالة من هذه القلعة الصغيرة الحقيرة وان كانت معقلاً مجرَّبا لملكتكِ وقد جعلتِني حاكمًا عليها . نعم انها مقام شريف جدًا لمن هو دوني واما لي انا ابن اخي زوجكِ فليست سوى منفًى لاني ألستُ اميرًا من سلالة الفراعنة ؟ ولكن لندع هذا جانبًا فاني لا احصر احتجاجي او دعواي في تعلقي بالقرابة والنسبة ولا اكتم عنكِ اني تحمَّلت اساءة في مولد رعمسيس . أرى هنا انهُ قد امتقع لونكِ فخلِّي عنكِ الاصفرار يجب ان تطالعي كل هذه الرسالة قبلما يفارق الدم وجنتيكِ . أُعيد لكِ القول انهُ أُسيء اليَّ في مولد 'رعمسيس' وتربت الي اعدتُ اقتباس هاتين الكلمتين الاخيرتين . ومن هذه الرسالة تعلمين السبب :

" ان زوجكِ نائب ثبة بعد ما خرج من مقدمة الجيش مات في حومة القتال مع الحبشة وكنت انا (لانكِ كنتِ بدون عقب) وارث العرش الشرعي لاني ابن اخي زوجكِ الاصغر ومع اني لم اكن حينئذٍ سوى ابن ثلاث سنين علمتُ اني سوف اكون ملكًا عند ما ابلغ سن الرشاد . لكنكِ على الفور ادهشتِ

جميع الناس – مشيريكِ الكهنة وعظماء بلاطكِ بأن صرتِ والدة على حين لم يكن من دليل صادق يشير الى ذلك من قبل.
لا تُلقي هذه الرسالة من يدكِ بل طالعيها الى ختامها اذ من المهمّ ان تعرفي كل شيء

"فلما ادركت سن البلوغ أسرَّ اليَّ واحدٌ شيوع اتهام الملكة بأنها ادَّعت الولادة ادّعاء وقد تبنّت طفل احدى الشريفات لتحول دون انتقال العرش الى ابن اخي زوجها الوارث الشرعي. فلماذا خدعتِ مصر ومكنتِ من حقي الشرعي الطفل رعمسيس الذي هو ابن احد رجال بلاطكِ الذي لا يعرفهُ احدٌ لانكِ رشوتِهِ بمبالغ فاحشة من الذهب وابعدتِهِ الى قرطاجنة او الى غيرها من الاقطار الشاسعة؟ فالآن جلالتكِ أدرى بصدق هذا الامر وكذبهِ اما انا فاعتقد بصحتهِ واصرّح بأن رعمسيس المتعجرف المرائي ليس لهُ حق ان يدعى ابن ابنة فرعون اكثر من احد اولاد العبرانيين الادنياء او احد المصريين رعاة الخنازير. وانهُ وحق الآلهة بالنظر الى ملامحهِ لا يبعد ان يكون ابن اسرائيلي

بناء عليهِ اطلب منكِ ان تولّيني نيابة ثيبة والّا فوحق جلالتكِ امزّق الحجاب عن محيّا هذا السرّ. واذيعهُ في آذان كل اهل مصر"

ابن اخي زوجكِ الامين

الامير مريس

فلما فرغت من تلاوتها لم اقوَ على امساك نفسي عن الصراخ

"كيف تجاسر على مثل هذه الكتابة الى جلالتكِ أَوَما قبضتِ عليه في الحال . وأذقتِهِ أمرَّ النكال ؟"

فاجابتني عاضَّة شفتها وناطقةً بصوتٍ متهدّج :

"أما هو الآن متولٍّ نيابة ثيبة ؟"

"وتعنين بهذا انكِ اجبتِ طلبهُ ؟"

"نعم"

"ان في هذا منتهى العجب ؟"

"ان الكذب اسرع انتشارًا من الصدق وهب انهُ كذبٌ فانهُ يهزُّ اركان عرشي ويُعدِمُ رعمسيس حين يتولَّى بعدي ثقة السواد الاعظم من الامة . فعزمت على ملافاة هذا المحذور باعطاء مرنبس ما طلب"

فنظرت اليها بعين الحزن والاسف فقالت على الفور —

"اقرأْ هذه ايضًا منهُ"

وكانت هذه مؤرَّخة بعد الاولى بثلاث سنين وفيها طلب تولِّي امارة العمارة ورفع سلطة قائد الجيش العام عنها وغير خافٍ عليكِ يا والدتي ان قائد الجيش العام هو رعمسيس فاجابته على هذا ايضًا ولما فرغت من تلاوة هذه اعطتني رسالة ثالثة من هذا الرجل القوي قائلةً :

"هذه وردتني الآن منه . طالعها وشاركني في الراي والشعور"

من المعسكر مقابل قصر ممنونيا . ثيبة
الى الملكة امنس

"اكتب الى جلالتكِ من خيمتي المنصوبة في سفح جبال لبية . ولاحاجة لي ان انذركِ بما تتضمنه هذه الرسالة بعد ما أُحقق لكِ اني وقفتُ على خبر عزمكِ على التنازل عن العرش لرعمسيس المعدود ابنًا لكِ . ولم يدهشني هذا الخبر لاني حين كنتُ في مصر السفلى تمكنتُ من الاطلاع على داخلية سياستكِ فانتِ تقصدين بهذا ان تجعلي رعمسيس في مأمن مني وترومين ان تملكيهِ حتى اذا رفعت اصبعي في وجهه يتمكن في الحال من الايقاع بي ولكن ساء فألكِ . فانتِ ورعمسيس كلاكما في قبضة يدي. لا تكبّري هذا الكلام أصغي اليَّ قليلاً

"فاجابتكِ لطلبي وتوليتكِ اياي نيابة ثيبة منذ بضع سنين حملتني على الاعتقاد بصحة اشتباهي اي بان رعمسيس ابن احدى سيدات قصركِ وقد تبنيتِهِ . ولما وليتِني امارة العمارة اجابة لطلبتي الثانية تأكدتُ انكِ تخافين تحقيق الامر وانه يسهل اثبات ذلك بالبينات فعمدت الى البحث والتنقيب . فاستخدمت الرقباء والجواسيس وبسطت يدي بالرشوة لنفس حاشيتكِ واستعلمت عمّن كانوا من اهل بلاطكِ يوم قتل زوجكِ من

خمس وثلاثين سنة فتوفقت الى الحصول على ثلاثة رجال وامرأتين لا يزالون احياء ولهم ذاكرة ماضية حين يبهر الذهب والجواهر والمواعيد عيونهم ومنهم علمت انهُ في وقت مولد رعمسيس المزعوم جلوتِ في يوم واحد خمساً من سيدات قصركِ وامائكِ الى بلادٍ بعيدة ومع ذلك لم يكن ارسالهنَّ في سرعة زائدة حتى ان واحدة منهنَّ افشت السرَّ بان الطفل المدعوّ ابنكِ هو ابن امرأة اخرى وقد باحت بهذا السر لاخيها الذي استخدمتهُ عندي واذ كنت ذات يوم عازماً على امانتهِ لجبانتهِ في القتال وعدني بان يطلعني على سرّ يهمني اذا عفوت عنهُ فوعدتهُ بالعفو عنهُ واذ ذاك اطلعني على ما تقدم ذكرهُ وان ظئراً عبرانية عند احدى نساء قصركِ التي كانت قد ولدت حينئذٍ طفلاً ذكراً جاءتكِ بالطفل وبعدما اعتزلتِ مدة ثلاثة اشهر خرجتِ من مخباك وعرضتِ على ابصار الكهنة والشعب (ذلك الطفل العبراني) وارث عرش الفراعنة وصولجانهم وتلك الوالدة وظئرها وجميع النساء اللواتي علمنَ بهذا أُبعدنَ عن مصر

فواصلت التفتيش والبحث عنهنَّ في سفن ارسلتها الى صور وقرطاجنة وقادش وجزائر البحر واخيراً ظفرت باثنتين منهنَّ لا تزالان في قيد الحياة وهما الآن في مدينة اون وحين كنت في مصر السفلى رأيتهما وهما ثيبيا من فيشوم ونيليا من اون فانظري

جلالتكِ كم انا مدقق في البحث لعلكِ هنا ترغبين وتزبدين وتضربين الارض بصحفة البردي فان فعلتِ هذا فعودي الى ثقة تلاوتها ولا تحاولنّ عبثًا اخفاء الحق ويأبى الحق الاّ الظهور. وقد يمكنكِ ان تغمضي عينيكِ عند الظهيرة وتقولي "ليل" لكنكِ لا تستطيعين بهذا ان تحجبي الشمس في ربعانها وتخفي ما لها من ساطع النور. ولسوف يظلّ الحق حقًا ساطعًا بملء ضيائهِ. على رغم ما تأتينهُ من وسائط اطفائهِ واخفائهِ

أستُنطِقتْ هاتان المرأتان على انفراد فقرّرتا ما يأتي

" انكِ جئتِ النهر في صباح عيدٍ لايس (انظري شدة التدقيق) لكي تسخي على جاري عادتكِ عند اسفل جنان قصر الروضة حيث انتِ الآن مقيمة وبعد ما نزعت عنكِ نساؤكِ حليكِ وحللكِ وهبطتِ الدرج الى الماء رأيتِ سفطًا من البردي عائمًا على وجه الماء قريبًا منكِ واذ نظرتِ نبليا غير بعيدة عنكِ أهبتِ بها قائلة"

" انظري هذا السفط الصغير. تعالي اجذبيهِ الى الشاطئ لأرى ما فيهِ"

" فامتثلت هذه امركِ بمساعدة رفيقتها ثبيا ولما دنوتِ من السفط وفتحتِهِ وجدتِ فيهِ طفلاً جميلاً رفع نظرهُ اليكِ وبكى فحنّ قلبكِ عليهِ فوضعتِهِ في ذراعي ثبيا وقلتِ لها

" هذا الطفل مرسلٌ لي من لدن نيلس اله هذا النهر العظيم

ولسوف اتبنَّاهُ لان ليس له ابٌ سوى هذا النهر ولا امٌّ سوى السفط الذي كان فيهِ"

ثم قبَّلتهِ عدة قبلات ومن شدَّة فرحكِ بهذه اللقطة الثمينة عوَّلتِ على مغادرة النهر بسرعة واذ ذاك ازاح الهواء الملاءة التي عليهِ فعرفتِ انهُ ذكر عبراني لان المصريين لا يختنون اولادهم وقد عُرِف هذا الامر ايضاً عند نبليا وثيبيا. وكان هذا في وقت اصدار ابيكِ امرهُ المشدَّد باعدام كل ذكر عبراني يولد فحرتِ في امركِ لا تدرين ما تفعلين بهِ ولكن اخذتكِ رأفة عليهِ من جرَّاء بكائهِ وصراخهِ فقلتِ لتابعتكِ

سوف يبقى لي لكنهُ العمر سوف اربيهِ كابني ولا احد يقدر على الاطلاق ان يعرف له منبت أصلهِ

هذا الطفل يا صاحبة الجلالة هو رعمسيس وعندي على هذا حجج بالغة وادلة دامغة. والى الآن لا يزال السفط موجوداً وقد رأيتهُ بعيني

وفي هذا القدر كفاية لايضـــاح اصل موسى — رعمسيس الذي اسمهُ يدلّ على انهُ 'منتشل من الماء' وقد دعوتهِ انتِ بهِ

"كأن الآلهة قضت عليكِ بان تكوني واسطة لاقناع نفسكِ"

بناء عليهِ ان لم تعدلي عن عزمكِ في تولية هذا العبراني

الساقط عرش مصر وتبادري الى تبنيك اياي علناً ومنحي تاجَ المملكة اعد الى تشهيرك ورفع النقاب عن حقيقة رعمسيس . واني اتساهل معكِ في شأن هذا الساقط الشأن الذي لا يستحق سوى الموت والخذلان وأعدكِ باني اذا تبنيتني جهراً في مجلس شوراكِ الكهنوتي واعلنتِ اني انا وارثكِ الشرعي اجعل رعمسيس والنا على جاسان وسيد كل شعبه تحت يدي أفلست هذه مساهلة عظيمة ؟

وان رفضتِ مقترحي هذا اقدم على مصر السفلى بعمارتي وأعلن ان العرش خالٍ خاوٍ ورعمسيس عبدٌ من العبدان واقبض بيدي على الصولجان . واقبض على رعمسيس وأميته شرَّ ميتة . واقضي عليكِ بان أسجني طول حياتكِ في قلعة بوباستس

بعثتُ اليكِ برسالتي هذه مع احد ضباطي . الذين كانت شقيقتة معكِ حين وجدتِ رعمسيس . فان لم يبلغني منكِ على يد رسولي هذا الذي يبطئ عندكِ ست ساعات جواب الايجاب أسمعك قرعي بوابات الروضة بسنان رمحي

مريس
وارث ملكة مصر

فلما فرغتُ من تلاوة هذه الرسالة عبثت بي الحيرة واستولى عليَّ الانذهال ووقفتُ شاخصةً في الملكة لا ادري ماذا اقول

ولا ماذا افعل ثم اجهدتُ نفسي في الكلام وسألتها

"كيف تجاسر هذا الامير الوغد على تلفيق هذه القصة ؟"

"هب انها قصة ملفّقة فهل يمكنني ان ادعهُ يذيعها في كل ارض مصر ؟ أيمكنني ان ادعهُ يبلغها مسمع رعمسيس ؟"

"ولماذا لا يمكنكِ ذلك ؟ لانها على الفور تظهر كاذبة باطلة ولا يصدّقها احد من الناس . أوَهذه الحكاية الموضوعة والقصة الملفقة سبب تكدير صفائكِ وعزمكِ على التنازل عن العرش والاسراع في تخليصه لرعمسيس ؟"

"أوَليست سبباً كافياً"

"كلاّ ايتهـا الملكة الحكيمة . ومن رأيي على جلالتكِ ان تخذلي هذا الملوط المفتري وتُطلعي رعمسيس على هذه الرسالة ودعيه يجمع جيوشه ويصادمه في القتال . واغراق بعض السفن في النيل يحول دون نزوله بعارته وان جاء برًّا فعساكركِ بقيادة رعمسيس تقوى على دحره . ورد كيدهِ في نحرهِ"

"كلاّ كلاّ لا يمكنني ابلاغ رعمسيس الحقيقة . يجب ان تبقى هذه الرسائل مكتومة عنهُ الى الابد"

"هل يظن رعمسيس شيئاً من هذا القبيل ؟"

"كلاّ لا يعرف سواي امّاً له لكنهُ اذ سمع بهذه القصة يواصل البحث ليُظهِر لي انهُ مبرهن كذبها وفسادها"

"ذلك ما يجب عليهِ ان يفعل"

"أو تظنه قادرًا على اظهار فسادها وبطلانها ؟"

"بدون ريب"

"قلت لها هذا ولا اكتم عنكِ يا والدتي العزيزة اني في الحال انقدتُ بالرغم عني الى تذكُّر المشابهة التي بين رعمسيس والدعمه العبراني. وحينئذٍ دنت مني الملكة وقالت معرّةً اليّ بعد ما نظرت الى ما حولها لترى ان كان احدٌ يسمعها"

"لا يقدر ان يبرهن فسادها"

"تعنين بهذا انها وان لم يستطع رعمسيس ان يبرهن كذبها وهي كاذبة ؟"

"كلّا لا يمكن اثبات كذبها لانها صحيحة"

"صحيحة"

"نعم ايها الامير. لا يمكن ان اخفي عنك شيئًا فقد وعدتك اني اطلعك على كل ما يتعلق بهذه الحادثة"

"اذًا ليس رعمسيس ابنكِ"

"انه ليس ابني"

"أعبرانيٌ هو ؟"

"نعم"

"فاذًا كل ما قاله مريس في رسائله صحيح ؟"

"نعم من جهة كون رعمسيس عبرانيًا"

وليس من يستطيع يا والدتي ان يصف الحزن الذي استولى

حينئذٍ على قلبي فغطيت وجهي بيديَّ واخذت اذرف الدموع السخينة . من فؤادٍ آسفٍ ونفسٍ كئيبة حزينة . وقد مثلتُ لعينيَّ شقاء رعمسيس المتقطع الآن استعدادًا للجلوس على العرش وادركت كل ما لاحظتهُ سابقًا ولهُ علاقة بهذا السرّ الغريب العجيب . فقلت من شدَّة تحسُّري

"يا الشقاء رعمسيس"

فقالت الملكة

"يجب ان يبقى عنهُ مكتومًا"

"سوف يعرفهُ ان رفضتِ طلب مربس فانهُ يكتب اليهِ في هذا الشأن ويدلهُ على نيليا وثيبيا الشاهدتين فيعود اليكِ طالبًا منكِ الافادة الصحيحة وهَبْ انكِ اصررتِ على الانكار فلا بدَّ انهُ يولّد فيهِ اشتباهًا كافيًا لحملهِ بالنظر الى شهامتهِ على رفض عرش برتاب في شرعية وراثتهِ لهُ"

"اذًا ماذا اعمل ايها الامير؟ أشر عليَّ"

"لا اعلم بماذا اشير عليك"

وبعد سكوت استحوذ علينا مطبقًا بحجب الهواجس والافكار. والغموم والاكدار قالت لي

"اني معذورة بما فعلت اذ احببت ذلك الطفل الباكي؛ ورثيت لشقاء حالهِ وحينما رفعتهُ اليَّ تبسَّم في وجهي واخذ حسنهُ بمجامع قلبي ومن جمال رعمسيس وهو الآن رجل يمكنك

الاستدلال على حسنهِ وهو ابن ثلاثة اشهر واذ كنت حينئذٍ قد ترملتُ منذ بضعة اسابيع رأيت انهُ مرسلٌ اليَّ عزاءً وسلوانًا ولم يثنِ عزمي عنهُ انهُ كان عبرانيًّا لاني كنت على الدوام معارضة لأمر ابي الملك وظننت ان استحياء هذا الطفل يكفّر بعض التكفير عن جريمة اعدام كثيرين من بني جنسهِ الاطفال الذين ذهبوا ضحايا هذا الامر الوحشي وهكذا انقدت الى هذا العمل بثلاثة اسباب . ان انقذ الطفل واتبنّى لي ولدًا واكفّر عن المعصية"

"انها بالحق بواعث شريفة وخواطر حميدة"

"وحينئذٍ باشارة احدى اماني ارسلتُ فتاةً عبرانية كانت تنظر الينا من بعيد فاستدعت لي مرضعة من بنات جنسها اتيت بها الى القصر وامرتها بكتم السرّ واخفاء الامر . وسمحت لها ان تأخذ الطفل الى بيتها لانها كانت ساكنة في مكان غير بعيد عن القصر اذ كان ابوها بستاني الكهنة يعتني بغرس الازهار وقد سرَّني شدَّة عنايتها بالطفل حتى اني بعد ما أعلنتُ جهارًا انهُ ابني سمحت لها ان تبقيهُ عندها حتى بلغ ثلاث سنين من العمر واذ ذاك احضرتهُ الى القصر لينشأ عندي كابنٍ لي ويترعرع كوليّ عرش المملكة ووارث تاجها . وهكذا شبَّ على المحبة لي والتعلّق بي والانقياد اليَّ ولما بلغ اشدَّهُ هذبتهُ في فنون الحرب وولّيتهُ قيادة الجيش العامة وقد تخرَّج على ايدي الفلاسفة

والحكماء في الهندسة والفلك وصناعة البناء والطبيعيات والتقاليد وسائر العلوم . ومع شدّة تفرّدهِ في الفلسفة وكل حكمة المصريين تراهُ طوع بناني ورهن اشارتي ووقف محبتي وطاعتي .
آه ايها الامير لم تحب قط امٌّ ابنها كما احببته "

" اني راثٍ لحالتكِ من صميم فوادي "

" فماذا اجيب مربس ؟ "

" لا اعلم "

" اذًا انا اعلم كيف افعل . لا ارجع رسولهُ بدون جواب . ولسوف اخذلهُ وامتهنهُ "

ثم صفقت بيدها لحضر الحاجب فقالت لهُ :

" ادعُ الرسول الثيبي ليحمل الجواب "

فلما دخل ذاك مقطبًا علامة لشدة انتظارهِ قالت لهُ

" ارجع الى سيدك وقل لهُ ان امنس لا تزال ملكة مصر لابسةً تاجَي آبائها وقادرة على الذود عنها . قل لهُ اني احتقرهُ ولا ارهب جانبهُ "

فتعجب الرسول من هذا الجواب وانحنى بشيء من علامة الاحترام وخرج فقالت لي

" قُضيَ الامر لم يبقَ في القوس منزع وانتهت الكنانة الى الاهزع لم يبقَ سوى خمسة ايام لانتهاء رعمسيس من فروض نسكهِ وتبتلهِ وبعد ذلك بثلاثة ايام يتوَّج وهذا يكون قبل وصول

جوابي لمربس ويبقى لدينا وقت كافٍ للتأهب والاستعداد . في وجهِ مربس شرّ الخانة الأوغاد"

واذ ذاك ودّعتُ الملكة اذ كان قد طال وقت اجتماعي بها وخرجتُ من عندها بعدما طلبت مني ان آتي اليها في الصباح

ابنكِ المحب

سيسوستريس

الرسالة الثانية والعشرون

قصر رعمسيس • مدينة اون

والدتي العزيزة

اكتب اليكِ هذه الرسالة ايضًا وابقيها نظير الرسالة السابقة عندي لا ابعث بها اليكِ حتى يؤْذن لي في ذلك وقد يقضى عليها كليها بالاعدام هذا اذا بقيت هذه الحوادث السريّة الماثلة تحت طي الخفاء والكتمان . ولكن ذلك بعيد الاحتمال ويكاد يكون عديم الامكان

ومع ان ما دوّنته في الرسالة الماضية كان غريب الحدوث خارق الوقوع فالباقي لديَّ الآن يسموهُ غرابة ويفوقهُ ندرةً وبالجهد استطيع ان اتغلب على اضطراب نفسي واوطنها على مطاوعتي في ما اروم بسطهُ وتفصيلهُ

وبعد ما قضيت تلك الليلة ارقًا لم تذق فيها اجفاني غمضًا تقلبني على فراشي اكف الهواجس والافكار . وتتنازعني عوامل الحزن والاكتئاب على التكرار . مشخصة لي مصير صديقي رعمسيس الى التعاسة والشقاء . وباعثة اياي من جرى ذلك على النوح والبكاء . وذرف دموع احرّ من الجمر واغزر من الماء . اسفًا على نكد طالع صديقي الحميم الفيلسوف الحكيم والشريف العظيم . الامير بالطبيعة وختم جميع الآلهة ولو لم يكن بالوراثة من الفراعنة . وتحقق كونهِ من اصل عبراني لم ينقص احترامي لهُ ومحبتي اياهُ لاني منذ البداءة لم احب "الامير او ولي العهد" بل "الرجل" وهو هو باقٍ ولن يزال قدوة الادب وعنوان الكمال . وخير من رأتهم عيناي من الرجال . لكنني في اشدّ لهفٍ واعظم اسفٍ على اختناق مساعيهِ وخيبوبة آمالهِ . ومحاق بدر امانيهِ بعد ما كان في ريعان تمامهِ وغلواء كمالهِ . وسقوطهِ من اوج السلطان وذروة المجد ويفاع رفعة الشأن . الى حضيض الذل واسفل دركات الهوان

على هذا المنوال قضيت ليلتي حتى تصرّمت انفاسها وعطس انف صباحها فنهضت مستعدًا للذهاب الى الملكة امتثالاً لامرها بدعوتها لي من المساء لمناولة الغداء عندهــا . لكنني تباطأت في الذهاب لعلمي الاكيد انها قضت تلك الليلة في حالة من الارق والقلق تربي على حالتي كدرًا وانزعاجًا واشغلت نفسي

قليلاً في المطالعة . ولما هممت بالانطلاق انفتح الباب بغتة واذا بالامير رعمسيس نفسهُ واقف امامي فسررت بادئ ذي بدء بقدومهِ لكنني ذُعرتُ اذ رأيتهُ في حُؤول حال . وتعاسة لم تخطر لي ببال . ولما دنوت منهُ لاعانقهُ بادرني بهذا السؤال

"أتتنازل يا امير صور وولي عهدها الى معانقة عبراني"

"اذًا عرفت كل شيء يا صديقي"

ثم سقطت على عنقهِ ولبثنا بضع دقائق متعانقين متباكيين اخيرًا قال لي

"نعم يا سيسوستريس سمعت كل شيء وانت عالم ايضًا بالسرّ كما قالت لي والد — كلاً — نسيت — يجب ان اقول — الملكة"

"على انها لا تزال والدتي . كانت على الدوام امًّا لي لم اعرف قط امًّا سواها وسأبقى محبًّا لها فوق كل شيء ما بقيت في حياة والآن بعد ما عرفت من انا أ فلا ازال في منزلتي السابقة عندك"

"لا ازال احبك كما من قبل ايها الامير"

فاعترضني قائلاً

"لا تدعُني 'اميرًا' بل ادعني باسمي الباقي لي لكنني عبدٌ"

"كلاً . ليس عندي . انك من سلالة الملوك أوَلبس الامراء العظام ابرهيم واسحق ويعقوب اجدادك الكرام"

"بلى بلى . يجب ان اذكر هذا ومن هو عبدٌ في مصر يقدر ان يكون طليقًا عتيقًا في صور"

"ولكن هل لك ان تخبرني لماذا غادرت الهيكل وجئت الى هنا وكيف اطلعتَ على حقيقة هذا الخبر"

"تعال واجلس بجانبي فاحدثك بالتفصيل . قد قضيت كل هذه المدة بحسب ما فُرض عليَّ من التبتّل والتزهُّد الى الليلة الماضية حين سيرَ بي في موكب من الكهنة الى عبر النيل الى الشارع المؤدي الى ابي الهول الذي امام هرمي كيوبس وشفرا وهناك احاطت بي فرقة أُخرى من الكهنة عددها اثنا عشر كاهنًا ساروا على جانبيَّ ستة من هنا وستة من هناك في سكوت تام حتى اجتزنا ابا الهول ذا الوجه الاسدي فقال قائدهم

"ليكن الملك أسدًا في القوة والصولة"

فاجاب الباقون بصوت واحد

"وليكن اعداؤُهُ كخروف بين يديهِ"

"وعند الهيكل الصغير الذي بين قدمي ابي الهول وقف ثلاثة كهنة نضح احدهم رأسي بماء مقدس وغمس الثاني اصبعهُ بدم ديك ذبحهُ ومسح جبهتي واحرق الثالث امامي بخورًا وخرج من الداخل صوت انشاد وتلحين ابتهالاً الى الآلهة من اجلي

"ثم سير بي الى مدخل الهيكل العظيم الذي امام الاهرام

ولما اجتزت بوابة تركني الاثنا عشر كاهنًا وحفّ اربعة وعشرون آخرون كلهم بملابس بيض حاملون مشاعل واخذوني الى بوابة مظلمة يهبط منها كما قيل لي الى اساس الهرم الى " دهليز كل اسرار الارض "

فسألته " أليس هذا هيكل السحرة "

" نعم حيث يمارس السحرة والعرّافون سحرهم وطقوسهم السرية المخيفة من قرون طويلة فهبطت الدرج يقودني كاهنان وسرت مجتازًا تحت الارض بين الاروقة القائمة على عُمُد منحوتة من صخور صلدة كبيرة ومارًا بصفوف من الغرف المعدّة لهذه الاسرار حتى جيء بي الى بوابة هيكل عظيم كبير المساحة في وسطه مذبح من مرمر فدنونا منه واذا بلهيب نار ساطع انبثق منه وانار كل جوانب الهيكل بضياء يمثل ضياء القمر في تمامه وفي اعلاه صورة الفلك زاهرًا بالوف من الكواكب المنيرة . ثم عرض لناظري ما يدهش العقل من صور وامثلة لقوات الطبيعة وعناصرها النار والماء والتراب والهواء والنيل والثوابت والسيارة والابراج والمنازل وافلاك النجوم ودوران الاجرام الى غير ذلك ما يدهش البصائر ويحير الافهام . ثم دارت هذه القوى السماوية والاجساد العلوية حول ذلك المذبح تقوده ـ اقوى الطبيعة الخمس المار ذكرها وتقدّمتْ نحوي حيث تُرِكتُ لوحدي واخذ كلٌّ من ممثلي هذه القوى يخرّ جاثيًا امامي اشارة الى ان

قوى الطبيعة التراب والهواء والنار والماء مع النيل العظيم خاضعة لارادتي

وبعد ما عُرِضَتْ عليَّ مناظر أُخرى غير هذه كلها آية في الغرابة والعجب تُرِكتُ وحدي بجانب المذبح حيث فُرِض عليَّ ان أُواصل امداد لهيبهِ بوقيد النفط الى الصباح وهذه كانت أُولى الليالي الخمس الاخيرة التي قُضي عليَّ ان أُحييهـا هناك .

وبعد قليل جاء اليَّ سبعة سحرة من باب تراءى لي انهُ نافذٌ من تحت الهرم الثاني وهم ينشدون نشيدًا حربيًا وفي يد كلٍ منهم آلة من عدة حربٍ ملكية هذا خوذة وذاك درع وذلك رمح . فاعطوني اياها وقال لي كبيرهم يجب ان اكون قويًا شجاعًا واحارب ببسالة لاني مزمع ان أُهاجمَ بقوات الشرّ . ثم تركوني وذهبوا وانا غير عالم بخصمي العتيد ان يواقعني . لكنني سمعت بغتةً وقع خطًى ورائي فالتفتُّ واذا بساحر طويل القامة وقور المنظر جليل المهابة فسأَلتهُ كما أُمرت من قبل لاية غاية قادم أَلحرب ام للسلم فلم يجبني باكثر من قولهِ

" اتبعني "

" فأَطعتهُ ولم يدرُ في خلدي اني سوف اصادم ما هو شرٌّ من الاسد الزائر والكماة المدجَّجين

" واجتزت معهُ الهيكل الى مدخل صغير في جدار دفعهُ الساحر بطرف عكازهِ فانفتح ودخلت وسيفي في يدي ثم أُغلق

وراءنا هذا الباب الحجري وجئنا الى غرفة انيقة مرصوفة بالرخام ومزدانة بجواهر تسطع بنور من نفسهـــا اذ لم ارَ له مصدرًا آخر سواها مع انهُ ولا بدّ مستمدٌ من مصدر مخفيّ بواسطة اقتدار اولئك السحرة على اعمال كهذه

" ثم اجتزتها الى غرفة داخلية مصفحة كلها بالمرمر الصقيل اللامع وأُمرت بصوت خاطبني بهِ شخصٌ محجوب عن نظري ان اجلس فيها على كرسي حجري فأطعت ممتثلاً لانهُ من واجبات اولياء العهد في مثل هذه المدّة ان يتعلموا هذه القاعدة وهيَ من يريد ان يعرف كيف يأمر وينهى يجب ان يعرف اولاً كيف يطيع ' وحقًّا يا سيسوستريس ان جميع الطقوس والفرائض الموضوعة لهذه الغاية مع انها في الظاهر عديمة الفائدة فقد عُني بها ان تكون خير مهذب وافضل مدرّب وافعل وسيلة في منح وليّ العهد المرشح بها للملك احكم القواعد واصدق المثائل لاجل تعليمهِ كيف يسود نفسهُ ويعرف ذاتهُ اذ انهُ يعرّض لكل انواع التجارب ويوضع في كل حالة من احوال الحياة من الجوع والعطش فصاعدًا . فقد قضيت ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ في هيكل بتاه طاويًا صائمًا لكي اعرف ارثي لحال الجياع وبقيت يومين كاملين صاديًا عطشانًا لكي اشعر مع العطاش وكُلّفتُ العمل الشاق ست ساعات لكي أُدرك شقاء شعبي القائمين بالاحمال الثقيلة والاعمال الباهظة وقضيت ساعةً خادمًا وساعة أُخرى

معجونًا واُخرى ساقي رئيس الكهنة وهكذا تمرنت في كل اعمال هذه الحياة واحوالها . حتى ان الملك يكون ملمًا بكل ما يعرض على شعبهِ من الافراح والاتراح والفرج والضيق والراحة والتعب ويستطيع ان يقول لاهل كل درجة اورتبة منهم ‹لستم في حالة مجهولة عندي لان الملك جامعٌ في شخصهِ كل شعب مصر›

ولما جلست على الكرسي رأيتني وحدي وقد دنت ساعة امتحاني امتحان لم يعرض قط على احد من اولياء عهد الفراعنة . فقد قبل ان اوسرتاسن حين جلس جلستي في هذه الغرفة أُعلن له انهُ ابن الاله هرقل واما انا فأُعلن لي – أوَّاه انت تعلم ماذا وسوف تسمع فاني سمعت صوتًا يخاطبني من داخل ظلام حالك

"اي موسى – رعمسيس انك رجل حكيم وفاضل وقوي القلب فتمنطق بالقوة وتجلد لتسمع ما يعلن لك فاعلم انك لست ابن امنس ملكة مصر كما تظن . انها لم تكن قط والدة"

فاجبتهُ واثبًا على قدميَّ

"كذبت ايها الساحر الشرير فاذًا انت العدو الذي وُضع لي ان اصادمهُ واعدمهُ"

فناداني صوت آخر بلهجة السيادة

"اصمت ايها الفتى ان ما يعلن لك حق لا ريب فيهِ . فانت لست بابن ابنة فرعون وليس لك حق في عرش مصر"

فصحت خاشيًا متأثرًا من شدَّة الغيظ

"اذاً من انا"

فقال الصوت

"انت ابن امّ وابٍ عبرانيين"

فتقدمت وسيفي مسلول بيدي نحو هذين الشخصين غير المنظورين حاسباً ان هذه الاهانة من جملة ما وُضعَ لاجل امتحاني وتجربتي واذ ذاك تراءى لي الحائط مفتوحاً امامي وانا مشرفٌ على النيل في وقت الظهيرة وناظرٌ جزيرة الروضة بقصورها وجنانها وابراج اون وعمدها البعيدة كل هذه عرضت لي دانية مني قريبة اليَّ بحيث استطيع ان اتناولها بيدي فوقفت حائراً مذعوراً شاخصاً في هذا المنظر الغريب العجيب الذي تراءى لي في غرف الاهرام الحالكة الظلام وشعرت بانهُ من خوارق الطبيعة او غرائب السحر واذا بصوت ثالث خاطبني

"انظر انك ترى عمود امنس ناقصاً وقصر سيد النيل لم يوضع منهُ بعد غير اساسهِ . وهذا المنظر يمثّل لك مصر كما كانت منذ خمس وثلاثين سنة"

فتأملتُ واذا كل ذلك صحيح لاني لم ارَ النيل كما هو الآن ولا سيما من جهة ارتفاع مجراهُ عمّا هو عليهِ في الوقت الحاضر. وشاهدت بغتةً فرقة من رجال الشرطة بايديهم حرابٌ داخلين كوخاً من الاكواخ التي يسكنها الفعلة العبرانيون العاملون في بناء قصر الروضة ثم خرجوا واثنان منهم حاملٌ كلٌّ منهما طفلاً

على سنان رمحهِ النافذ في احشائهِ ووراءهم نساء صائحات نائحات . كل ذلك سمعتهُ ونظرتهُ باذني وعيني فتقدمت مدفوعًا بقوة التأثير لابطش باولئك الرجال واذا بخليج عند قدميَّ يحول دون مرامي . ثم طرح الرجلان الطفلين في النيل . ثم رأيت ثلاثة آخرين دخلوا كوخًا آخر لكنهم ما لبثوا ان نكصوا على اعقابهم وقد طاردهم عبرانيان ثارا عليهم هاجمين بمقاطع القش فقتلا اثنين منهم وهزما الثالث لكنهُ عاد مستنجدًا برفقةٍ لهُ والقوا نارًا على الكوخ المصنوع من الحلفاء او البردي واحرقوهُ بمن فيهِ . ورأيت ان النهار قد تناهى واذا برجل وفتاة عبرانيين خرجا من كوخ قريب من الماء وجمعا حزمًا من البردي ورجعا الى كوخهما . وصار المساء وارخى الظلام سدولهُ وطلعت النجوم ولكن بقوة غير مدركة بقيت قادرًا على رؤية ذلك الكوخ فشاهدت على نور مشعل من حلفاء مغموس بالقار ثلاثة من اهلهِ دائبين على عمل سفط او سلة كبيرة من البردي وبعد ما اكملوهُ طلاهُ الرجال من داخل ومن خارج بالقار او الزفت ومن حديثهم علمت انهم عملوهُ على اسلوب يمنع دخول الماء اليهِ وانهم عازمون على ايداعهِ شيئًا ثمينًا عزيزًا عندهم لكنني لم اعلم ما هو لان حديثهم عنهُ كان في منتهى الانخفاض مصحوبًا بنظرات خوف متبادلة ولا سيما من المرأتين اللتين كانتا تبكيان بدموع غزيرة ومن سياق الكلام علمت ان احداهما كانت ابنة الرجل

من امرأة سابئة ورأيت في زاوية الكوخ ولدًا يظهر انهُ ابن ثلاث سنين مضطجعًا على فراش من قش ناعمًا بنومٍ هنيءٍ ولما اكمل السفط لاحظت كل ما عملوهُ بعد ذلك

اخيرًا خرج الثلاثة ورأيت مندهشًا من قرب غياب القمر انهُ قارب الفجر . وسار اولئك الثلاثة على قدم السكوت نحو هيكل ابيس القديم الذي كان في ذلك الحين كما هو الآن اطلالاً بالية لانهُ بُني في عهد بنون احد فراعنة الفينيقيين وبقيت بلاحظا مسيرهم حتى انتهوا الى عمود سيسوسترس الاول وكانت اكبر المرأتين حاملة في ذراعيها طفلاً سطع على محياهُ الجميل ضياء القمر المائل الى المغيب برهة قصيرة فغطتهُ بملاءةٍ واسرعت بهِ مع رفيقيها الى جانب النهر وهنا وضع الرجل السفط على الشاطئ ومدَّ يديهِ ليأخذ الطفل فهمت سحبُ اجفان تلك المسكينة التي لابدَّ انها كانت ام الطفل وضمتهُ الى صدرها فخاطبها الرجل

" خلّي عنكِ البكاء يا يوكابد لا حياة للطفل الاّ بالتعجيل والاسراع أوَما بلغكِ انذار تلك المصرية التي من فضلها ساعدتكِ على اخفائهِ الى الآن ان امرهُ اصبح معروفًا وفي الصباح يبغتنا رجال الشرطة نحيجي فان اودعناهُ النيل فاله آبائنا الذي عليهِ نتكل ولسوف يعود الى انقاذنا وافتدائنا حسب وعدهِ لابينا ابرهيم بقود هذا السفط الى حيث يعدُّ للطفل

قلبًا شفوقًا يرقّ له وينقذهُ "

" فرأيت الوالدة تضم الطفل الى ثديها لتمدّهُ بالغذاء الاخير ثم وضعتهُ ودموعها تنسجم في السفط مسندة اباهُ على ذراعها وهو نائم حتى جاءتها الفتاة بوسادة من ازهار برية وورق حدقوقي جمعتها على نور فلق الصباح واذ ذاك غطاهُ الاب باعتناء وقبّلهُ قبلة حزن ارتعدت لها كل فرائصهِ وعزم على القائهِ في الماء واذا بالوالدة اخذت بذراعهِ وتوسلت اليهِ ان يسمح لها بان تزوّدهُ نظرة اخرى وعناقًا ثانيًا وقد كانت في ريعان صباها ورائع جمالها وبعد ما قبّلتهُ القبلة الاخيرة جثت بجانب الشاطئ . مصلية الى الهها وأدلى الاب السفط الى الماء . وحينئذٍ رأيت الولد الآخر الذي شاهدتهُ قبلاً نائمًا في الكوخ ماشيًا على الشاطئ تائهًا كأنهُ يفتش عن والديهِ ثم رأيت مجرى الماء ضمّ السفط اليهِ وحملهُ نازلاً حتى انتهى بهِ الى منابت الحلفاء فاشتبك بها واسرعت الوالدة خائضة اليهِ وقبّلتهُ وعزمت ان ترضعهُ ثانية فحال الوالد دون عزمها واطلق سراح السفط فعاد محمولاً في المجرى . ثم طلع النهار ورأيت في الرؤيا ان الاب بعد ما توارى السفط عن نظرهِ رجع بامرأتهِ الى الكوخ وهي لا تزال متلفتة نحو النيل . اما الفتاة التي لم يكن عمرها اكثر من اثنتي عشرة او ثلاث عشرة سنة فظلّت باشارة من امها تتبع السفط من بعيد لتعلم ما يصيبهُ . وقد شاركتها انا ايضًا في الاستمرار على

ملاحظتهِ حتى بلغ دغلاً من الحلفاء وارتكز فيهِ وحينئذٍ جاءت سيدةٌ بارعة الجمال لتستحم عند اسفل جنة قصر فرعون مصحوبةً باماءها ولأوّل نظرةٍ يا سيسوستريس عرفت أمي — اعني الملكة امنس كما كانت في شرخ صباها وغلواء جمالها . وقد رأيتها انتبهت الى السفط الذي اصبحتُ مهتمًّا بشأنهِ غير عالمٍ انهُ متعلقٌ بي وقد سمعتها تأمر تابعتها بانتشال السفط من الماء وبلغ سمعي ايضًا صراخ التعجب والاندهاش الذي ابدتهُ حين فتحت السفط ورأت الطفل الذي أجاب صوت اندهاشها ببكاء توسلٍ واستعطاف . ورأيتها تعرضهُ على ثديَيْ ثلاث مرضعاتٍ عبرانياتٍ وهو عائفٌ آبٍ غير قابل

اخيرًا تقدمت تلك الفتاة اختهُ من ابيهِ على قدم الخوف والوجل وقالت :

" هل اذهب ايتها الاميرة وادعو لكِ احدى العبرانيات لترضع هذا الطفل ؟ "

قالت " اذهبي "

فعدت تلك الفتاة كالظبي المقمر وجاءت الى أُمها صارخةً بلسان الفرح :

" اسرعي يا امي لا تبطئي ابنة فرعون وجدت اخي الصغير ونشلتهُ من الماء وارسلتني لادعو لها مرضعة من العبرانيات هلمي سريعًا قبلما تجيب غيرك "

"فرأيت تلك الوالدة استعدّت للانطلاق وذراعاها مرفوعتان الى السماء علامة الحمد والشكر واذا بالفتاة اوقفتها وقالت لها .
'سكّني روعكِ وتجلّدي لكي لا ترتاب الاميرة في امركِ . اسبلي قناعكِ وامثلي لديها كما لو كنتِ لستِ امهُ'

وذهبت وكأني بها غير مبالية بابنها الآخر الذي مع انهُ بالجهد يكون ابن اربع سنين سار على الشاطئ كأنهُ علم ما في السفط وقد رأيت كاهنًا مصريًا حنّ عليهِ وحملهُ الى بيتهِ"

وهنا صرختُ متعجبًا بصوت استمال انتباه رعمسيس لاني تذكرتُ قصة ذلك الكاهن العبراني ساكب التماثيل ورأيت الآن انهُ اخو رعمسيس وقد انجلى لي سرُّ المشابهة بينهما . لكنني لم أُبدِ شيئًا من هذا لرعمسيس فاستأنف الكلام الذي أُثبتهُ في رسالةٍ تالية

ابنكِ المحب

سيسوستريس

الرسالة الثالثة والعشرون

قصر رعمسيس مدينة اون

والدتي العزيزة

جاءني امس رسولكِ حاملاً اليّ رسالتكِ ذات الشأن التي بها تخبرينني بامتناع ملك قبرس عن قبول سفيركِ واطلاق تبعتكِ وانكِ منتظرة رجوعي حتى نشهري عليهِ الحرب وبناء عليهِ سامتثل امركِ وابرح مصر في الاسبوع القادم غير آسفٍ على عدم زيارتي مصر العليا والشلالات آملاً اني في المستقبل اتمكّن من المجيء مرةً ثانية الى هذه الديار واني مسرورٌ الآن باجابة داعي انطلاقي منها بعد ما اظلمت في عينيّ كل مناظرها على اثر هذه الحوادث الطارئة . وهنا اعود الى تتمة ما بدأت بهِ في الرسالتين السابقتين من تفصيل هذه الحوادث

وسابعث اليكِ بهذه الرسائل الثلاث لان انجلاء السرّ وظهور الامر اجازا ذلك لي فاستطرد رعمسيس كلامهُ قائلاً

" فرأيت الوالدة مائلة امام الاميرة التي بعد ما طارحتها عدة اسئلة سلمتها الطفل قائلة لها :

" اني عازمة على ان اتبنى هذا الولد . اذًا احضريهِ الى قصري كل يوم لكي اراهُ . اعتني بهِ جهدكِ كما لو كنتِ امهُ فتنالي مني فوق اجرتكِ احساني وانعامي واحرصي جدًّا على كتمان هذا الامر والاّ اخذت الطفل منكِ وعاقبتكِ عقابًا صارمًا." ما هو اسمكِ "

" يوكابد "

" واسم زوجكِ "

" عمرام "

" وقد شاهدتها بعد ما ذهبت وخلت بالولد تضمهُ الى صدرها ودموع الشكر والحمد تجري على خديها "

ثم صرخ رعمسيس بغتة

" انا هو ذلك الولد يا سيسوستريس وهذا غير مجهول عندك . وقد رأيت في رؤياي استحالة المناظر وتدرُّجها بسرعة لا تُدرَك وفيها كلها رأيت ذاتي من ابن ثلاث سنين أُخذت الى القصر من بيت امي العبرانية ونظرت كل ما مرَّ عليَّ من ابن اثنتي عشرة سنة الى ابن عشرين — الى هذا الوقت الحاضر . ثم

حال النيل وجميع مناظره على لحن موسيقي شجي وتوارى من امامي وعدت وحدي فانتهى بي كل هذا التاريخ المخيف وغادرني وحيدًا أتأمل في كل ما عرض لي"

"فنهضتُ من حيث كنتُ ورجعت الى الوراء ساقطًا على المقعد الحجري خائر القوى ولا اعلم كم بقيتُ على هذه الحالة لكنني اخيرًا أُوقظت منها بيد الساحر الذي مسّ كتفي وقال

"انك يا ابني اطلعت على تاريخ ماضيك بالتفصيل فهل تروم بعد هذا ان تكون ملك مصر"

"بأية قوة فعلت هذا وكيف عرفتهُ كلهُ"

"ألستَ مصدِّقًا"

"بلى كما لو طالعتهُ في كتاب ثوث لستُ مرتابًا في شيء"

فسألني صوت آخر

"أتريد ان تكون ملك مصر"

ثم ردَّد هذا السؤال صوتٌ ثالث حتى اصدى بهِ كل ما في تلك الاقبية والسراديب فاندفعتُ خارجًا لا اعلم اين اذهب وكأنَّ الابواب فتحت امامي بقوة سحرية واخيرًا وجدت نفسي مقودًا بالساحر الى الخارج تحت ظلام الليل وأُغلقت ورائي المصاريع الحجرية وتُرِكتُ وحدي في ساحة هيكل ثوث فعدوتُ مسرعًا مستعيرًا جناحَي طائر حتى جئتُ النهر وعبرتهُ في قارب واتيتُ القصر طالبًا مخدع امي . هل قلت أمي يا سيسوسترس

معناي الملكة فارسلت اليها حاجبًا يخبرها بقدومي ورغبتي في الاجتماع بها فخرجت بثياب النوم مندهشة من مجيء كهذا غير منتظر مني . فدخلت هادئًا بقدر استطاعتي ولم اقوَ على منعها عن تقبيلي وان كنتُ قد علمتُ باني لستُ سوى عبراني . فاغلقتُ الباب وجلستُ معييًا من شدَّة ما ألمَّ بي ولما دنت وجثت بجانبي وسألتني عما اذا كنت قد غادرت الهيكل لداعي مرض اعتراني، تغلب عليَّ عامل حنوها ولطفها ومحبتها وذكرت حينئذٍ بأني لم اعُد قادرًا بعد الآن ان ادعوها امًا وقد حُرِمتُ من الآن وصاعدًا من شواهد عواطفها الوالدية فسقطتُ على عنقها باكيًا كما بكيتُ حين كنتُ طفلاً وانا في سفطي الصغير ثم قلت لها

"يا امي اني مريض وحزين جدًا"

"لعل انقطاعك لهذه الطقوس والفرائض أثقل كاهلك وانحلك الى هذه الدرجة"

"عرَضت لي رؤيا رأيت فيها طفلاً موضوعًا امامي في سفط على وجه الماء في النيل ثم رأيت اميرةً خرجت تستحم مع جواريها وامرتهنَّ فجئنَ بهِ اليها وكان فيهِ طفلٌ عبراني تبنتهُ الاميرة اذ كانت بدون ولد وربتهُ وهذَّبتهُ وصرَّحت بانهُ ابنها ثانيًا لها في الملك وعزمت على تتويجهِ ملكًا عوضًا عنها حين —"

وهنا اخذت والدتي بيدي وصاحت

" قل لي يا رعمسيس قل لي أحلمًا رأيت هذا ام سمعتهُ من احد "

" رأيتهُ في حلم في اقبية الاهرام بواسطة مناظر سحرية مُثِّلت لي هناك "

" هل تصدّقهُ "

" أما هذا هو السرّ الذي لمريس اطلاعٌ عليهِ أليس ذلك الطفل العبراني هو الواقف امامكِ الآن " .

فصاحت وسقطت مغشيًّا عليها

" وبعد ما عالجتُ افاقتهـا قصصتُ عليهـا تفصيل ما حدَّثتكِ بهِ وفي الختام أعلنتُ لها رفضي العرش وعزمي على مزايلة مصر وبعد ما اطلعتني على الرسائل المبعوثة اليها من مريس اجبت الحاحها عليَّ بالبقاء اياماً قلائل مدبرًا الشؤون وان مسّت الحاجة وأتمّ مريس وعيدهُ بمهاجمة مصر السفلى اقود الجنود واصدُّهُ واكبح جماح تعدّيهِ وبعد ذلك أُغادر البلاط واذهب وشأني "

" أوَتذهب الى العبرانيين وتسكن بينهم "

" لا اظن . لاني لا اقدر على مساعدتهم في شيء ولا استطيع مشاركتهم في حمل نير العبودية . ولسوف افتش عن عائلتي واقربائي لان الملكة اخبرتني عنهم فانظر امي الطريحة وادعها تضم ابنها الى صدرها . ولي ايضاً اخٌ واختٌ "

فاجبتهُ

"اني اعرفها كلها" ثم قصصتُ عليهِ كل ما عرفتهُ عن اخيهِ الكاهن واختهِ مريم الكاتبة وذكرتُ امامهُ البستاني عمرام الذي لم يخطر قط ببالهِ انهُ ابوهُ فقال لي

"ساُشاهدهم جميعًا وبعد ذلك أُودّعهم ومصر الوداع الاخير — هذا اذا سمحت لي الملكة لان العبيد مرهونون لارادة سيدهم"

فعانقتهُ ساكتًا وقلت لهُ

"اني آسفٌ من كل قلبي على شقاء حالك"

"اني اعلم ذلك يقينًا . ولكن لندع هذا الحديث جانبًا . يجب عليَّ اول كل اولٍ ان اتمم ارادة والدتي — مرادي أوَّاه الملكة . فابقى بضعة ايام كما انا لكنني لن اعود الى الهيكل لان الكهنة سوف يطلبون قتلي بعد ما يعلمون اني عبراني وقد اطلعت على كل اسرارهم فمن الضروري ان ابرح مصر"

فقلت لهُ

"لتكن صور ملجأك وملاذك ايها الامير ففيها تصادف حفاوةً تليق بحكمتك وعظمتك فعدني يا رعمسيس انك تذهب معي"

فاجابني شاكرًا حامدًا من صدق ولائي واستمرار احترامي لشخصهِ الكريم وعدم تركي لهُ في ساعة حزنهِ وذلهِ وارتأى اذ

ذاك ان يذهب الى الملكة ويستميحها بأن يكتب رسالة يدعو الى مريس يخبره بواقعة الحال وانهُ اذا تمهّل متوقعاً ورائه الملكة ولم يبدِ حراكاً فبعد ثلاثة ايام من بلوغهِ جوابهُ المعلن رضاهُ بها يبرح رعمسيس مصر الى بلاد بعيدة فاستصوبت رأيهُ هذا وبعد ما خلا بالملكة ثلاث ساعات او اربعاً عاد اليّ وقال

" قضي الامر طبق المرام وأُرسِلَت الرسالة الى مريس مع رسول الملكة الخصوصي دليلاً له على ارتضائها بمصالحتهِ ولكن لا تسلني تفصيل المناظر المحزنة التي عرضت في مشهد اجتماعي بواا – بالملكة لاجل هذه الغاية "

وفيما هو يتكلم جاء حاجبٌ من لدن الملكة يدعوهُ اليها فذهب ووجدها مصابة بحمى شديدة وعند دخوله قالت له

" اي بنيّ اني عما قليل اموت لان هذه الضربة فوق ما استطيع احتمالهُ وعليهِ لا يرجى لي شفاء وكان من اعظم متمنيات قلبي ان أُخلفك مستوياً على العرش مكاني فحالت الآلهة دون ذلك فادعُ لي مجلس شوراي الكهنوتي لأُعلن لهم تبنّي لمريس حسب اشارتك "

فقال رعمسيس حينما اجتمعت بهِ بعد ذلك

" امتثلت امرها وانعقد المجلس في اليوم التالي فأعلَنتْ لهم قصدها أن تتبنّى مريس – منتو وتجعلهُ وارثاً لعرشها وبعدما وافقوها على ذلك سألوا عن السبب الداعي الى استقالتي فاعتذرت

لم برغبتي في اعتزال الاحكام والتفرُّغ الى الاسفار البعيدة ثم كتب كاتم الاسرار اعلامًا ملكيًا وفعتهُ الملكة وأُرسِلَت منهُ نسخة الى مريس مع ساعٍ او رسول خاصّ وارفضّ المجلس فبقيت وحدي عند الملكة التي اشتدَّت عليها وطأة المرض واستحكمت فيها العلة"

وبعد ما كتبتُ هذا بخمسة ايام جاءني ناظر الحجَّاب مسرعًا يقول لي ان الملكة في حالة النزع فما لبثت ان اسرعتُ اليها ولما دخلت وجدت رعمسيس جاثيًا بجانبها مكبًا على سريرها ودموعهُ تنهلُّ على يدها الباردة المأخوذة في يدهِ. وكانت اذ ذاك في كامل وعيها لكن هالة الموت اللازوردية محدقة بعينيها ونور حياتها آخذٌ في الزوال وكان كل انتباهها مصروفًا نحو رعمسيس الذي ظلت تسرُّ اليه بصوت خائر وابتسام ضعيف.

ابني ابني يا ابني أُدعني يا أُمي"

فاجابها صارخًا "أواه يا اماه لا اقوى على فراقكِ بالحقيقة كنتِ لي امًا"

وحين دخلت التفتت اليَّ وقالت

"هذا وليّ عهد صور كنت اظن سواهُ"

فسألها رعمسيس

"من تعنين بسواهُ"

"سيأتون عما قليل. أمرت باحضارهم جميعًا لاني اريد ان

ارام قبلما اموت . ولكن اهلاً يا امير صور"

ثم تبسمت في وجهي ومدَّت اليَّ يدها الاخرى لاقبلها واذا هي باردة عديمة الحرارة فجثوت بجانبها اتأمل بعين الاسف في هيئتها التي كأني بازميل الموت يصوغ منهـــا تمثال الهٍ عظيم الجلال

واذ ذاك فُتح الباب فدخل الشيخ الجليل عمرام البستاني والكاهن ساكب التماثيل ومريم الكاتبة آخذة بذراع امرأة في سن الخامسة والخمسين وعليهـــا بقية من الجمال وسمة من رفعة الشأن ولم يصعب عليَّ ان اعرف هذه الاخيرة من هي — ام رعمسيس

وحينئذٍ صرخت الملكة باعلى صوتها مستعيدة شيئاً من القوة

" ليخرج جميع من هنا خارجاً " واشارت اليَّ بنظرها طالبة بقائي وقالت بعد هذا

" تقدَّم يا عمرام وقرّب اليَّ زوجتك . انظر يا رعمسيس اباك وامك عانقي ايتها الامّ ابنكِ بما انهُ لم يعد ممكناً ان يكون ابناً لي أُرجعهُ اليكِ ليكون لكِ وعندكِ أمد الحياة " وخنقتها الدموع فلم تعد قادرة على الكلام

وبعد ما وقعا على عنق ولدهما يقبلانهِ ويبلاّنهِ بدموع الفرح والشكر قدمت اليهِ اخاهُ واختهُ ففعلا كذلك وكان

المشهد موثرًا الى الغاية . ثم اشارت الملكة بيدها الى رعمسيس فادنى من سريرها اولاً امهُ ثم اباهُ وبعدهما اختهُ واخاهُ فوضعت يدها على راس كلٍ منهم وقد ابقتهـا طويلاً على راس الامّ قائلة لها

احبيهِ – كوني حنونة عليهِ – لم يعد لهُ امّ سواكِ احبيهِ لاجلي ولا يسعكِ الاّ ان تحبيهِ اكرامًا لهُ وان كنت اخذت طفلكِ ابنها الامّ فقد ارجعتهُ لكِ رجلاً واميرًا جديرًا بان يسود امة عظيمة وفيهِ عيناي تغضيان عن الحاضر وتنظرهُ في المستقبل قائدًا لشعبكِ – رئيس امتكِ . واذ قد وُلد ليجلس على العرش فسوف يملك رب جيوش وقائد جنود اراهم تابعين لهُ مطيعين لأمرهِ وخاضعين لعصا قوّتهِ . رعمسيس اني مائتة قبلني"

فانحنى يقبلهـا بخشوع كانهُ قائمٌ بفرض العبادة ولما رفع وجههُ لم يبقَ سوى تمثال من طين وملكة مصر باتت أثرًا بعد عين

سيسوسترس

الى هنا انتهيت في الكتابة ثاني يوم وفاة هذه الملكة الصالحة وتوقفتُ عن التتمة لاني صحبت رعمسيس في الذهاب الى رئيس المحنطين لكي يفيدهُ عن النوع المطلوب من التحنيط ويعهد اليهِ القيام بكل حاجات الجنازة واعداد جميع لوازم نقل الجثة الى عبر النيل الى الهرم الذي اخبرتكِ سابقًا عن شروع الملكة في

اعدادهِ مدفنًا لها (حسب عادة الفراعنة) منذ استوت على العرش. اما الحزن على وفاتها فهو عامّ شامل جميع سكان مصر على اختلاف درجاتهم وعلامات الحداد بادية على النساء والرجال ومخيمة على جميع اهل وادي النيل. ولقد افدتني في رسالتكِ الاخيرة ان اعداد عمارتكِ البحرية لمهاجمة قبرس يستغرق خمسة اشهر فبناء على هذا وعلى رغبة رعمسيس في ان انتظرهُ ثمانين يومًا حتى تنقضي ايام مناحة الملكة عزمت على البقاء. والآن قد مضى على دفنها في هرمها اربعة ايام والامير مريس كان المتقدم في موكب جنازتها ومناحتها وقد فاتني ان اذكر لكِ انهُ قَبِل بما اشترطهُ عليهِ رعمسيس في رسالتهِ ولما حمل اليهِ الرسول الثاني بلاغ تبنّي الملكة لهُ وجعلها اياهُ وارث عرشها حرّر الى رعمسيس رقيم تودُّد وصداقة لانهُ كاتي براقش يسهل عليهِ التلوُّن والتمثُّل كيف شاء. وحين بلغهُ نعي الملكة خفَّ مسرعًا الى ممفيس واجتمع برعمسيس وعاملهُ بغاية الملاطفة وعرض عليهِ نظارة او ولاية المقاطعة المقيم فيها الرعاة العبرانيون لانهُ بلغني ان في الوادي الذي بين مدينة رعمسيس وبحر العرب نحو عشرين الفًا من العبرانيين يرعون مواشي الحكومة ولهم على رعايتها عشر نتاجها

على ان رعمسيس كان قد تُرِك لهُ من الملكة ما يكفي كل عائلتهِ ويقدرهم جميعًا على العيشة براحة ورخاء وقبل وفاتها

منفيًّا هو واخاهُ هرون واختهُ مريم خوق المدينة . وفي يوم دفن الملكة استوى مريس على العرش واما تتويجهُ فلا يكون الاَّ بعد استيفائهِ مدَّة الاربعين يومًا في الترشيح على نحو ما فعل رعمسيس

والآن لابدَّ انهُ يدهشكِ يا والدتي العزيزة ان تعلمي ان اطلاع رعمسيس على اصلهِ العبراني (قد اسقط الآن رعمسيس اسمهُ هذا واعتمد اسمهُ الثاني موسى) ثمَّ بواسطة رشوات بليغة من مريس نفسهِ للسحرة وانهُ بوسيلة اخبارهِ لهم ونفوذهِ حملهم على تقبل الماضي المعلن لصناعتهم السحرية نظير المستقبل لرعمسيس وعرض كل مناظر حياتهِ امامهُ في تلك الرؤْيا

وحقًّا يا والدتي العزيزة ان اعجب شيء شاهدتهُ في هذه البلاد هو قوة اولئك السحرة والعرافين فانهم كانوا بادئ بدئهم من طغمة الكهنة لكنهم ازدادوا تعمقًا وتضلعًا في هذه الاسرار حتى اصبح كهنة جميع الهياكل يرهبون جانبهم وينكرون عليهم رتبتهم الدينية قائلين

"انهم اسرفوا في الارتفاع فوق جبل اوسيرس حتى هووا من ذرواتهِ الى مهاوي مملكة تيفون المظلمة فلاذوا باكنافهِ واستمدوا منهُ القوة والمعرفة"

ومهما يكن من مصدر صناعتهم الغريبة القوية فلا ريب في صحتها . فانهم قادرون على جعل النهار ليلاً ويستطيعون ان يملأوا الهواء بسحابة رمال او ازهار ويحوّلوا عصيهم كرومًا حاملة

عنبًا ويمشون متوكّئين على افاعٍ حيّةٍ كانها عصيّ من لوز او سنط وقادرون ايضًا ان يمثّلوا للطالب الوجه او المنظر الذي يريده ولو كان في بلادٍ بعيدة ولهم استطاعة على اجتراح آيات متنوعة وعجائب مختلفة كلها غاية في الغرابة والدلالة على استعدادهم ولا ريب سرّ هذه القوة من الروح الشرير

هذه آخر رسالة اكتبها اليكِ من مصر . وغدًا اسير مع رعمسيس في بارجتي الى بلوزيوم وسوف يرافقنا صديقي امير البحر باثرومنس الى مصبّ النيل الشرقي . ويجب ان اذكر هنا ان الملك مريس — المرشح ليكون فرعون مصر ابدى لي كل ملاطفة وطلب ان تستمرّ الصلات بين البلادين وثيقة العرى وشديدة الالتحام وساحمل منه رسالة الى جلالتكِ لتكون عنوان احترامه لكِ ورغبته في البقاء على المحالفة والمصادقة . لكنني لا اكتم عنكِ انني لا احب هذا الانسان وان استطعت فلسوف أُعِدُّ جيشًا في فينيقية — بعد ما أُوقع بملك قبرس — وأُولّي رعمسيس قيادته واهاجم به مصر وادعو العبرانيين ان يثوروا معي فاقلب عرش مريس وأُولّي صديقي مكانه . أَوَما تنبأتِ الملكة المائتة عنه بانه وُلد لكي يسود وعلى مصر سوف يُعلن سلطانه ويحمل صولجانه وسوف ابذل جهدي في اتمام هذه النبوءة

بلّغي مزيد اشواقي للاميرة ثامونذا وحقّقي لها اني سوف الخ

في حماتي على قبرس لاني خارجٌ عليها بقلب مقترن بقلب من هي موضوع حبي . ومالكة قلبي . اخبريها اني حين رجوعي سوف اطلب الاقتران بها وسيكون رعمسيس "اشيني" وفي مقدمة مدعويّ وهو الآن يشترك في السلام والاحترام لجلالتكِ

مع ابنكِ

سيسوستريس

(انتهت رسائل ولي عهد صور الى والدتو الملكة ايبفيا)

القسم الثاني

رسائل متبادلة بين رعمسيس او موسى واشخاص آخرين

الرسالة الاولى

من رعمسيس الى هرون العبراني

مدينة صور . فينيقية . شهر اثير

اخي الحبيب العزيز

بعواطف جديدة أحييها في العلاقات الاخوية التي كانت سابقاً مجهولة عندي اجلس الآن لاكتب اليك وحسبي دليلاً على شدَّة شعوري واحتفالي بها افتتاحي الحديث معك استلذاذاً بقولي "اخي". وحقاً ان ما فقدته قد تعوَّض بما ربحته من محبة

اهلي وانسبائي الذين كنت اجهل وجودهم من قبل

بعد ما ودّعتنا في ظاهر ممفيس أقلعنا في بارجة الامير سيسوسترس وقبل الظهر بلغنا اطلال بوباستس التي تبنى عليها الآن فيثوم احدى مدن المخازن وهناك تنفستُ الصعداء من قلب كئيب لاني رأيت على اسوارها الوفًا من بني شعبي يشقون بالعمل نظير العبيد النوبيين تحت سياط مسخريهم ولكن ليت شعري ماذا استطيع ان اعمل وانا نفسي طريد من مصر فعسى ان تتم تلك النبوءة التي توجد عند شعبك (شعبي) وقد اخبرتني بها قبل سفري فلا يمكن ان تطول شقة هذه العبودية اذ ليس في مصر مكان لأمتين

وفي بلوزيوم وجدنا عمارة الامير تنتظرنا فاقلعنا فيها وبعد سبعة ايام بلغنا ثغر صور

وقد قوبلتُ من ام سيسوسترس باعظم اكرام. على ان سرورها بقدوم ابنها افاض سحب اجفاني لاني تذكرت مسرة وا — (كنت مزمعًا ان اقول والدتي) — الملكة امنس عند ما كنت اجتمع بها ولو بعد فراق قصير

ولكن عليّ ان اتناسى الماضي جهدي

يعاملني الامير سيسوسترس كأني نظيرهُ في الرتبة والمقام ولو كنت باقيًا الامير رعمسيس وليّ عهد مصر لما استطاع ان يزيد شيئًا على الاكرام الحاضر الذي يبديهِ لي. وقد مضى عليّ

الآن في صور شهر شاهدت فيها اشياء كثيرة ومناظر مختلفة كلها ذات شأن ولكن حزني الخالد على وفاة الملكة المحبوبة التي كانت لي اعظم من والدة — يجعلني على الدوام قليل الاحتفال بهذه الامور. على اني باذلٌ جهدي في الاهتمام بكل ما يتعلق بوليّ العهد الذي انا ضيفهُ وهو الآن مصروف العناية نحو التأهب للحرب ولذا ترى في ميناء صور المراكب والسفن تزداد تجمعًا وكل يوم تستعرض الجيوش في سهل خارج المدينة. وسوف تقلع العمارة بعد شهر

دمشق. فينيقية — ارام

بعد كتابة ما تقدّم جئت الى هذه المدينة الجميلة الواقعة في بقعة خصيبة يخرقها نهرا ابانا وفرفر ويجعلانها بالحقيقة كما تدعى "جنة الارض" وقد جئت اليها مع وليّ العهد المزمع ان يقترن باميرتها الحسناء ثامونذا. وعما قليل يُحتفَل بزفافها اليهِ. فارجو لهما قرانًا سعيدًا مباركًا

وقد لقيت في هذه المدينة امير عوص الجليل راجعًا الى بلادهِ وحينما بلغهُ ما صرت اليهِ تأثر جدًا وقد قضيت معهُ وقتًا طويلاً في الحديث عن وحدانية الله وقد وعدتهُ اجابة لدعوتهِ باني ازورهُ بعد رجوعي من قبرس حيث ارافق وليّ العهد وزوجتهُ

قصر اميرة دمشق

تزوَّج صديقي المحبوب سيسوستريس وكان الاحتفال مستوفيًا دواعي المسرة واسباب البهجة وقد حضرهُ كثيرون من الملوك والامراء والعظماء. وساترك تفاصيله ووصف ما يتعلق بحفلاتهِ وولائمهِ لوليّ العهد. وبعد ثلاثة ايام نبرح دمشق راجعين الى صور في موكب عظيم

جزيرة صور

وصلنا هذه المدينة ولا تسل عن الاستقبال العظيم والاحتفاء الفائق اللذين قامت بهما الملكة ايفيا تأهيلاً بكنتها الجديدة. وبعد ثلاثة ايام تقلع العمارة الى قبرس

بلِّغ يا اخي محبتي واحترامي وسلامي لابي عمرام ووالدتي المكرمة وشقيقتي المحبوبة واقبل تحية اخوية

من اخيك

موسى العبراني

الرسالة الثانية

من رعمسيس الى اخيهِ

فينيقية

مضت عليَّ سنة حبستُ فيها قلمي عنك . وقد بلغتني رسالتك التي وجدتهــا تنتظرني في رجوعي من حملة قبرس التي لابد انك وقفت على نتيجتها ألا وهي الغلبة على ملك قبرس ووضعهِ تحت جزية الفيْ وزنة من الفضة يؤدّيهــا في عشر سنين وأخْذ قسم من شمالي الجزيرة ليكون مهجرًا فينيقيًا ورجوع سيسوسترس الى وطنهِ ظافرًا منصورًا

واني الآن مسافر في انحاء فينيقية وسأُواصل سفراتي الى ارض عوص حبًا بزيادة التعمُّق في معرفة الاله الواحد القادر على كل شيء على يد امير عوص الذي حين لقيتهُ في العام الماضي

في دمشق اخبرتهُ باني آخذٌ في تدوين حوادث حياتهِ العجيبة لكنني لما قرأت لهُ ما بدأت بهِ وسمعت بعد ذلك حديثهُ عن الله الذي يعبدهُ وجدت نفسي اني كنت في تدوينها اجهل من طفل واني أقدمت على عمل يستحيل عليَّ اتمامهُ اتكالاً على مجرَّد حكمتي المصرية . وقد قال لي

"انك لست بعيدًا يا ابني عن معرفة القادر على كل شيءٍ وأرى نفسك تائقة الى الله الحقيقي فتعال معي الى بلادي لانك سائحٌ في الارض فاعلمك معرفة القدوس"

وبناءً عليهِ انا ذاهبٌ الآن يا اخي لكي اجلس عند قدمي رجل الله هذا الذي حكمتهُ البسيطة افادتني اكثر من حكمة مصر بل تراني مستعدًّا بكل فرح ان انسى كل ما تعلمتهُ في مصر واتعلم عوضًا عنهُ معرفة ومخافة ومحبة "القدوس" — الله القادر على كل شيءٍ — من امير عوص . ومما يستحق الملاحظة على الخصوص ان كلامهُ عن الاله غير المنظور اشبه شيءٍ بما علمتنيهِ انتَ وقلتَ لي انهُ كان من مبادئ رؤساء شعبنا

وارى اننا كلينا تائقان الى معرفة الله وأُفقُ نفسينا مغشيٌّ بسبب اساطير مصر المظلمة . فلتتشجع يا اخي فلا بدَّ من نور وحق ومعرفة في مكانٍ ما على الارض واني ذاهبٌ الى امير عوص لاتعلَّم منهُ وعندما اجلس عند قدميهِ سوف أُفرغ نفسي من كل حكمة مصر الكاذبة الساقطة واقول لهُ

"اني جاهل – علمني اهدني الى معرفة الملك لاني اعلم انهُ الاله الذي تشتاق نفسي اليهِ ولا تعرف ام الارض عنهُ شيئاً"

ذكرت لي في رسالتك عن قوة فرعون وقساوتهِ واني متوقعٌ ان اسمع عن اسرافهِ في زيادة اثقال شعبنا . ولسوف تكون بحيرة امنس التي قلت لي انهُ ساعٍ في تكبيرها وجعلها بحرًا داخليًا سببًا لاهلاك الوف من العبرانيين الذين يرغمهم على عملٍ في الماء لم يتعوَّدوهُ قبلاً . وارجو انهُ لا يُمدّ يد الابلاء نحوك ونحو كل بيت ابي . الوداع

اخوك

موسى

الرسالة الثالثة

من موسى الى هرون

قصر امير عوص

اخي العزيز

مضت عليّ سنة كاملة عند هذا الامير الخطير والشيخ الحكيم الجليل وهو يبدي لي اعزازًا والديًا وانا برًّا بفضلهِ ومعروفهِ أدأب على تمكينهِ من تاريخ مصر ومعارف أُخر لانهُ مع شدّة حكمتهِ يطلب على الدوام ان يزداد علمًا ومعرفة وهو حجة في علم الفلك والطبيعيات والهندسة وكل الفنون ولكن حكمتهُ الفائقة هي في معرفة القادر على كل شيء. فاسرار الله في قلب هذا الانسان ولعيني تقواهُ الالهية ترى ذلك الاله غير المنظور ظاهرًا كما هو. وقد كلم رب السماء وجهًا لوجه وهو يخاطبهُ

كما يخاطب الخادم سيدهُ

وهو ساكن في مدينة بناها لنفسهِ وفيها يحكم في غاية البساطة كاغنى واحكم كل امراء المشرق وحول هذه المدينة مدن شوح وتيمان ونعمات وغيرهم من الامراء الذين هم دونهم في المقام ومعهم في الاجماع على اكرام واجلال كبيرهم امير عوص وعندهُ في سهولهِ وجبالهِ مواشٍ وقطعان لا يحصى لها عدد ومخازن فضة وذهب لا تدرك لها قيمة . ولهُ سبعة بنين كلهم امراء في مقاطعات عديدة وثلاث بنات أُعطيت اصغرهنّ قرن هفوك زوجةً لامير مديان وهنّ آية في الجمال والحسن

والآن قد فرغت من كتاب تاريخ هذا الرجل الجليل لا كما بدأتهُ في مصر بافكار ناقصة عن اله السماء الذي هو خادمهُ بل تلقنت من فيهِ كل ما قررتهُ مما تراهُ واصلاً لك وبعد مطالعتهِ تقف على معرفة القادر على كل شيء الذي اسمهُ ومجدهُ وكونهُ وجودهُ وعدلهُ ومحبتهُ ظاهرة في كل صفحة منهُ . وفيما انت تطالعهُ تذكر ان اله امير عوص هو ايضاً الهي والاله الذي عبدهُ آباؤُنا قبل نزولهم الى مصر. فخلِّ عنك يا هرون كل آلهة مصر كلها اكاذيب واباطيل . وما اوسيرس وايسس سوى بعض مخترعات الكهنة وكل عباداتهم تناقض الديانة الحقيقية وجميع عبدة الاصنام والاوثان هم عبدة الشيطان

وعليهِ اصبحت الآن نظير امير عوص عابداً الاله الواحد

الذي اسمهُ القادر على كل شيء والقدوس الذي بمعرفتهِ يحمي شعبنا ولو كانوا في العبودية على فرعون ومصر

اخوك المحب

موسى

الرسالة الرابعة

من رعمسيس الى مريم

صور فينيقية

اختي العزيزة

اخذتُ رسالتكِ التي بعثتِ بها اليَّ من بوباستس ولقد ساءني جدًّا نبأ تمادي الملك مريس في تشديد وطأة الاثقال على شعبنا وسوقهِ جميع من كانوا منهم خدامًا في القصور والمنازل الى حقول العمل والجيرة التي دعاها باسمهِ فانهم غير متعوّدين التعرُّض لحرارة الشمس ولهذا سوف يكابدون تباريح العذاب

ولقد تلوت نسخة امره الصادر بمنع استخدام العبرانيين في البيوت وعلمتُ غايته من كل ذلك فانه موجسٌ خوفًا من تكاثرهم وازدياد عددهم ويروم بهذه الواسطة تقليلهم بتعريض الوف منهم للموت في سبيل تحمل المشاقّ الباهظة التي لا يقوون عليها . وان فؤادي ليذوب حزنًا واسفًا على هذه الحالة الواهنة . ولكن يوجد اله عادل يا اختي مريم — الاله القدوس الذي عبدهُ آباؤنا فلا ينسى شعبهُ الى الابد بل لا بدَّ انهُ في الوقت المعيَّن يخرجهم من سجن عبوديتهم . أوَلم يطلعكِ هرون على التقليد الذي عند شعبنا — انهم يخدمون فرعون سنين معينة وقد بقي منها احدى واربعون سنة وقد ارسل لي نسخة منهُ فاذا هو اعلان من ابينا ابرهيم — ان ذريتهُ تستعبد لفرعون اربع مئة سنة وحسب ما تبين لهرون بعد الفحص والتدقيق يكون قد اقترب قيام منقذ من قبل الله يقود بني يعقوب الى ارض جديدة

فان كان هذا الوعد يا اختي من القادر على كل شيء فلا بدَّ انهُ يتمهُ لانهُ ليس انسانًا فيكذب اذًا علينا ان ننتظر ونرجو ونطلب من اله آبائنا ان يذكر وعدهُ وينزل من سمائهِ بذراع ممدودة لانقاذنا . يسرّني خبر سلامة والديَّ . بلّغيهما مزيد احترامي ومحبتي . ومن اطلاعكِ على ما كتبتهُ الى هرون تعلمين اني توفقت الى معرفة الاله الحقيقي الذي كنتِ انتِ وهرون مؤمنين بهِ على حين كنت انا غارقًا في لج عبادة آلهة مصر

الكاذبة ولكن هانذا من جودهِ تعالى ومجرّد نعمتهِ ناعمٌ بغبطة ادراك مجدهِ وجلالهِ وتسلطهِ على الكون وذلك بواسطة جلوسي عند قدمي حكيم عوص حتى فتنتكِ وهرون في هذه المعرفة. لا اقول هذا افتخارًا بل بلسان ناطق بحمد من جعلني واسطة لانارة ذهنكِ ومنحكِ ثقة اعظم وايمانًا اسمى بالاله الذي هو اله ابرهيم واله امير عوص

وقد مضى عليّ الآن خمس سنين متغربًا فيها عن مصر. وان فؤادي ليحنّ شوقًا الى اخوتي الراسفين باغلال الاذلال والرازحين تحت كلال العبودية واثقل الاحمال. وارى انهُ لا يليق بي ان ابقى ناعمًا في ظلال الراحة والرغد في بلاط سيسوسترس الذي توّج ملكًا منذ سنتين بعد وفاة والدتهِ الملكة التي كتبت عنها الى والدتي في حينها. واشتاق جدًّا ان أُعلن لرؤساء العبرانيين المعرفة الحنيفية عن اله آبائنا التي بلغتهم ممزوجة بالخرافات ولو كانت متخلصة من شوائب عبادة مصر الوثنية. اروم ان اقف على عبوديتهم التي كنت سابقًا انظر اليها من مقام سامٍ اذ كنت وليّ عهد مصر. والآن ارغب في مخالطتهم لاعرفهم واكون واحدًا منهم. لاني يا شقيقتي افضّل بالاحرى ان اكون عبدًا موثقًا الى عجلة فرعون مريس وانا حاصل على هذه المعرفة الحاضرة عن القدوس القادر على كل شيء — التي كل حكمة مصر في جنبها حماقة وجهالة — على ان

اكون ملك مصر جاهلاً معرفتهُ تعالى وغائصاً في حمأة عبادة اوسيرس وايسيس

اخوكِ الاصغر

موسى

الرسالة الخامسة

من رعمسيس الى والدتهِ

قصر سيسوسترس . ملك صور

والدتي المحبوبة المكرمة

في رسالةٍ سابقة بعثت بها منذ بضعة ايام اشرت الى رغبتي (التي تزداد يوماً بعد يوم) الى تفقد اخوتي في اثقالهم . نعم لا اقدر ان افيدهم بشيء لاني واحدٌ ومريض بسرٍّ ولا ريب في القبض عليَّ حين يبلغهُ خبر وجودي في مملكتهِ لكنني عزمت على مطاوعة هذه الرغبة وفي الشهر الآتي اسافر في سفينة تقلع الى

مصر لجلب الابنوس والعاج وهكذا بعد ما يتلو هرون على مسمعكِ هذه الرسالة بوقت قصير تضمّين الى صدركِ وتعانقين ابنكِ الاصغر الذي كان غائبًا عنكِ وقتًا طويلاً . ومن المعلوم اني اذهب متنكرًا لاني اروم ان انظر في اثقال الشعب العبراني بدون ان أُعرَف من انا . وغاية ما ارومهُ ان أُبلغ روساء الشعب وشيوخهُ المعرفة الحقيقية عن الاله الواحد رب السماء الكلي القداسة والقدرة ومن امير عوص الحكيم القدوس علمتُ ليس هذا فقط بل اشياء أُخر كثيرة سامية الشأن عظيمة الفائدة . عرفها كلها كما من صوت الله — عن خلق العالم في ستة ايام وخلق الرجل والمرأة ووضعهما في جنة باهرة وتسليطهما على كل المخلوقات لكنني سوف اتلو على مسمعكِ يا والدتي تفصيل كل هذا مكتوبًا بقلم امير عوص ونبيهــا الذي أُعلنت له قبل كل الناس معرفة العلي والاسرار التي كانت غامضة منذ الازل . وان الصفحات المكتوبة عن صبر هذا الرجل على امتحان الله له تشهد بانهُ لم يقم في الارض قبلهُ رجلٌ حصل على مثل هذه الاستنارة من النور الالهي وان لغتهُ التي مستخدمها عند كلامهِ عن الله والتي بها كتبت سفر تاريخهِ لا تنال الاّ بوحي من الله . وهو يتكلم عن الله كانهُ جلس عند قدميهِ تعالى وشاهد يوميًّا جلال مجدهِ الاسمى وسمع صوتهُ مزلزلاً السموات العلى . ومنهُ تعلمت حكمة الماضي وان في داخلي صوتًا رهيبًا يسرُّ اليَّ رجاء وطيدًا في اني اذا سلكتُ

باستقامة والتمست وجهه عزَّ وجلَّ واتكلتُ عليهِ فهو سبحانهُ
يقترب مني منعماً ويعلن مجدهُ ويكلمني وجهاً لوجه كما كلم عبدهُ
القدوس امير عوص وان نفسي تتوق الى الفوز بنعمتهِ الالهية
لاكون من لدنهُ تعالى رسولاً يظهر ارادتهُ ويعلن نواميسهُ للناس
وهذا الرجاء انعلَّلُ بهِ بغاية الوداعة والاتضاع والطريق الى
ادراك رضاهُ تعالى هو كما علمني امير عوص الصلاة . ولهذا سبع
مرَّات في النهار اجثو راكعاً امام القدوس القادر على كل شيءٍ
الرب اله الجنود واشعر بان نفسي تزداد اقتراباً منهُ وكل يوم
ارى المسافة غير المحدودة التي بين الارض والسماء آخذة في
القصر وسأبقى بلا انقطاع مزاولاً الصلاة والابتهال اليهِ تعالى
حتى اسمع صوتهُ يناجي نفسي واشعر بوجودهِ تعالى معي وحينئذٍ
ابلغ ذرى الانسانية اعني اتحاد المخلوق بخالقهِ وردَّ مثالهِ الالهي
الى نفسهِ واستحالة حياتهِ الى حياة خالدة مجيدة

قد ساء صديقي الملك سيسوسترس خبر عزمي على السفر
لانهُ لم يكفَّ عن مواصلتي بعائد الاعزاز والاكرام ولقد دعا ابنهُ
الجميل البالغ الآن اربع سنين باسمي رعمسيس . والملكة ثاموندا
تعدّ هدايا كثيرة لآخذها معي لكِ ولأختي لانهما تحبكما ولو لم
تركما . وهنا يا والدتي ليس شيءٌ من العبودية والاذلال اللذين
يسومها شعبنا في مصر . بل نحن في عيون اهل هذه البلاد
احرار وانسباء ينظرون الينا بعين الرعاية والولاء

الوداع يا والدتي . بعد ايام قليلة اعانقكِ

ابنكِ المحب

موسى

الرسالة السادسة

من رعمسيس في مصر الى سيسوسترس في فينيقية

رعمسيس . مدينة المخازن

بحولهِ تعالى بلغت ايها العزيز سيسوسترس مصر سالمًا بعد مقاساة اخطار بحرية هائلة تفوق حدّ الوصف . واني لمسرورٌ جدًّا ايها الملك بانك قبلت الحقائق التي اسعدني الحظ بان اعلمها لك يوم كنت متشرفًا في بلاطك وقد سلمت بوجود الاله الواحد القادر على كل شيء واصبحت لا تعبد في السرّ سواهُ فارجو ان يقرب ذلك الوقت الذي فيهِ يمدك سبحانهُ بقوّةٍ من عندهِ تمكنك من اعلان عبادتهِ المقدسة في كل بلادك لان الملك نائب الله على الارض وان استخدم قوتهُ — ليس كالفراعنة الذين يملكون كانهم آلهة — بل في اجراء العدل والحكم

والاعتراف بخشية واتضاع بمصدر القوة غير المحدود فلك الملوك ورب الارباب يباركهُ وبمجدهُ . وحين يعترف الملك بان قوتهُ مستمدَّة من رب القوى . وانهُ مسؤول عن احسانهِ واساءته لاستخدامها عند الهوِ فقد ادرك اسمى حكمة على الارض . اسمعَ اذاً ايها الملك وراء هذه الحكمة

ولقد بقينا ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ تائهين في البحر لا نرى شاطئاً وفيما نحن نرجو ان نقبل على مصب النيل هبَّت علينا ريح زوبعية من الجنوب فاظلم الجو بالسحب واقبل الليل وسرنا نخبط في ديجور الحيرة واليأس لانعلم اين نذهب

فاستحوذ اليأس والجزع على جميع الركاب والبحارة واخذوا كلهم يتوقعون الذهاب فرائس في الامواج العاجَّة المنقضَّة علينا لابتلاعنا ورفعوا اصوات الاستغاثة بآلهتهم فالفينيقيون استغاثوا بهرقل والصوريون بادونيس وابو وغيرهم بآمون والمصريون بايس واوسيرس وثوث والربَّان باله البحر وجميع الآلهة التي خطرت ببالهِ

واذ ذاك شعرت بقوة وسموّ ايماني بالله وتأثرت جداً من شدَّة حماقة وفساد وبطل ديانة جميع الذين هم معي . فاضطرمت فيَّ نار الايمان. وتمثَّلت لي عناية الله القادر على كل شيء والحاضر في كل مكان . ورفعت كفَّ التضرُّع والسؤال . وقلت بلسان الابتهال

" ايها الرب الاله القدوس القادر على كل شيء خالق جميع الاشياء دعني اجد نعمة في عينيك . واستجب طلبتي هذه الحقيرة التي ارفعها اليك . اعلن حضورك بيننا واظهر قوتك فينا انقذنا نحن المشرفين على الهلاك . وليس منقذٌ غيرك ولا معين سواك . هؤلاء دعوا آلهتهم الاوثان والاصنام . اما انا فاياك ادعو ايها الرب الاله اله آبائنا من سالف الايام . فاحمنا من خطر الغرق او الاصطدام . واوصلنا الى الميناء بسلام "

واذ ذاك كفَّ الجميع عن الاستغاثة باوثانهم واصنامهم وحولوا ابصارهم واسماعهم نحوي وقد استطاعوا ان يروني جيدًا على نور البرق الدائم الايماض المستمرّ الاستعار . فتصور ايها العزيز سيسوستريس عظم اندهاشي حين سكنت العواصف بغتة وهدأ العجّ وانخفضت الامواج وانقطعت عن الهياج وتبدَّدت السحب منفرجة عن قمر انارنا بساطع اشراقه . فاذهلني هذا التغيير الفجائي العجيب دليلاً على بلوغ صلاتي أُذني من رفعتها بكل خشية وثقة اليه . فرفعت عينيَّ ويديَّ ثانية وقلت

" لك ايها الرب القادر على كل شيء لك ينبغي التسبيح والمجد . لك يجب الشكر والحمد . من قبل ومن بعد . لانك سامع الصلاة ومستجيب الدعاء . ومحب لكل خلائقك بلا استثناء وانت وحدك صاحب القوة في السماء وعلى الارض والبحر . ولا يخفى عليك شيءٌ ولا يغرب عنك امر . ان الظلمة لا تظلم امام

عينيك. والليل كالنهار يضيء لديك . اني اشكرك لاجل اعلان
حضورك في كل مكان . وانعامك بما زادني رسوخاً في الايمان.
فاجعل ايضاً هولاء الوثنيين يجدونك بالقلب واللسان . لانك
من اجلهم ايضاً عملت ما عملته الآن "

ولما فرغتُ من صلاة الحمد والشكر ابصرت جمعاً غفيراً
من جميع الامم حولي خارّين ساجدين وتحوّل الربان عن الهو
اليّ مجثراً امامي . فرجعت الى الوراء مرتعداً من فظاعة عملهم
وأشرت اليهم بالتنحي قائلاً " قوموا انهضوا ايها الرجال على
ارجلكم فليس لي لبس لي بل لله رب السماء والارض فقدموا الحمد
والشكر على نجاتكم "

ثم اعلنت لهم معرفة الاله الحقيقي وحثثتهم على ترك اوثانهم
الباطلة والمواظبة على عبادته تعالى بالروح والحقّ . ولولا شدّة
استيائي وغيظي لكانوا ذبحوا لي خروفاً كاني هرقل

وبعد بضع ساعات بلغنا بلوز بوم ومنها ذهبت سرّاً الى
بوباستس قبلما يذيع امري بواسطة قصّ هذه العجيبة الالهية
وبعد ما تفقدت متنكراً عشرات الالوف من اخوتي المستخدمين
في بناء الاسوار والمخازن انطلقت منها سرّاً في قارب الى عائلتي
وقد مضى عليّ الآن عندهم عدّة ايام وهم جميعاً في صحة تامة ولكن
الضيق والصرامة مخيّمان على كل بني شعبي وهما كل يوم في
ازدياد وكثيرون من بني جنسي يذهبون يومياً فرائس هذه

القساوة الوحشية وتُطرَح جثثهم في خنادق تحفر لهذه الغاية ويهال عليها التراب وفي غالب الاحيان يكون نصيب الذين يحفرونها ان يسكنوها قبل سواهم لان العمل متواصل اناء الليل واطراف النهار. ومنذ شهر أُصدِر امرٌ جديد في كل ارض مصر مآله ان ليس مأذونًا لاحد من المصريين ان يساعد عبرانيًا وان كل عبراني يسقط تحت حملهِ او يقصر معييًا في عملهِ لا يسمح لهُ بالبقاء منفصلاً عن حملهِ او منقطعًا عن عملهِ بل يجب ان يكرَه على مزاولتهِ حتى يسقط السقوط الاخير الذي لا يعود يمكنهُ النهوض منهُ

ولا يُعطى خبزًا ولا ماءً بل يُترَك في هاته الحال حتى يُورِّد حتفهُ ويجرَّع غصص الوبال

مع كل هذا المبذول من الملك لتقليل عدد العبرانيين تراهم يزدادون ويتكاثرون الى حد لا يصدَّق وأرى ان هذا جارٍ بقصد الهي يحمل مصر اخيرًا على اطلاق العبرانيين منها . ولا بدَّ من اتمام تلك النبوءة المأثورة بين شيوخنا بانهُ بعد مضي اربع مئة سنة من ايام ابرهيم يخرج نسلهُ من مصر امة عظيمة . وهذا الوقت المعين آخذٌ في الاقتراب والله القادر على الانقاذ من العاصفة يقدران ينقذ من يد فرعون اولئك الذين يتكلون عليهِ ويستمدون مساعدة يدهِ القادرة على كل شيء

ممفيس . بيت هرون

بعد كتابة ما تقدم اليك ايها العزيز سيسوسترس — هكذا اعتدت ان أُلقبك على اختلافنا في الرتبة والمقام لانك تنازلت متكرمًا بالاجازة لي في ذلك — بعد كتابة ما تقدم عنيت بمراجعة تقاليد آبائنا العبرانيين القدماء فعثرت فيها على النبوة الآتية وفيها ترى ذكرًا صريحًا للاله القادر على كل شيء واقرارًا واضحًا بوحدانيتهِ وحنانيتهِ

" ان ابانا ابرهيم اذ قد وُلد في مملكة الكلدانيين العظيمة عبد الاوثان نظير جميع الناس — اذ كانت معرفة الاله الواحد في ذلك الحين محجوبة تحت برقع تكثير الآلهة . واذ كان ابرام هذا رجلًا مستقيمًا محرزًا لاسمى الفضائل التي يرتفع بها شأن الانسان حسُنَ في عيني الاله القدير الواحد — الذي خلق كل الاشياء في السماء من فوق وعلى الارض من تحت وفي الماء من تحت الارض — وسرّ ان يعلِن ذاتهُ لهُ حين كان ذات يوم يصلّي الى الشمس . فرأى بغتة يدًا ممدودة على الشمس حجبت نورها فغشي الارض ظلام ليل دامس واذ تعجّب ابرام وارتعد من هذا الحادث ارتفعت تلك اليد القديرة عن الشمس فانقشع الظلام وزال وعاد النهار كما كان في معظم الكمال . واذا بصوت من فوق الشمس يدعو

" ايهـا الانسان ابن الانسان الترابي أتعبد الخالق ولا تعرفه اني انا خالق الشمس والسماوات والارض والانسان الذي على الارض فأباي اعبد لاني انا وحدي قادرٌ ان اخلق النور واجعل الظلام انا الله ولا اعطي مجدي لمخلوق فما الشمس الاّ من طين وما انت ايها الانسان الاّ كذلك اعطني قلبك واعبدني انا خالق الشمس والانسان كليهما "

ثم نظر ابرام اليد حجبت الشمس مرّة ثانية واطفأت نورها ولكن عوضاً عن انطباق الظلام استنار الكون بنور تلك اليد التي اضاءت ببهـاء الف شمس حتى سقط ابونا على وجههِ كأنهُ مائت امام سنائهـا الرهيب . ولما نهض رأى الشمس مضيئة كعادتها فجثا على الارض وقال

" ايها الرب اله الشمس وخالق كل الاشياء ما هو الانسان حتى تعلن له مجدك وذاتك اني كدودة امامك فعلمني ماذا تريد ان اعمل "

فاجابهُ صوت منخفض هادئ

" قم اخرج من ارض الكلدانيين هذه الى ارض تفيض لبنًا وعسلاً أُريك اياها وهناك اجعلك أُمة عظيمة تحمل اسمي لاني سوف اجعل اسمك عظيمًا وبركة لجميع الناس فابارك مباركيك ولاعنيك العنهم وفيك تتبارك كل قبائل الارض "

ثم يُذكَر في هذا التقليد الشهير ايها العزيز سيسوسترس

ان ابرام بادر الى اطاعة الله وذهب الى مدينة حاران حيث
سكن وجمع كل ماله واخذ امرأته وابن اخيهِ وكل خدامهِ وانطلق
وهو ابن خمس وسبعين سنة واجتاز الرب الاله امامهُ حتى عبر
نهر ملك سدوم الى ارض فلسطين حيث اصعدهُ الله الى جبل
عال واراهُ كل الارض من وادي سدوم وعمورة الى البحر العظيم
غربًا من لبنان شمالاً الى بادية العرب جنوبًا قائلاً

"ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي انت فيهِ شمالاً
وجنوبًا وشرقًا وغربًا لان جميع الارض التي انت ترى لك
اعطيها ولنسلك ثم امشِ في الارض طولها وعرضها لاني لك
اعطيها لان الارض كلها لي"

وفيما هما ينظران من الجبل الى الليل فقال الرب الاله
لابينا انظر الى السماء وعدّ النجوم ان استطعت ان تعدّها . هكذا
يكون نسلك . ولكن اعلم يقينًا انك انت وابنك وابن ابنك
تتغرّبون في هذه الارض واما نسلك فسيكون غريبًا في ارض
ليست لهم فيذلونهم اربع مئة سنة وتلك الامة التي يستعبدون لها
انا اديبها . وبعد ذلك يخرج شعبك امة قديرة باملاك جزيلة
ومن أقبية منفذًا لم سوف يعودهم الى هذه الارض فيدخلونها
ويتملكونها ويكثرون حتى يكونوا كالرمل الذي على شاطئ
البحر"

فآمن ابرام بالله . ونحن يا سهسوسترس نسله . ألسنا في

الكثيرة كنجوم السماء ورمال البحران الاربع مئة سنة قاربت النهاية ومن أتمّ جزءًا من نبوته أفلا يتمّ الجزء الثاني لهذا اتوقع بملء الرجاء خلاصنا قبل ان يمضي جيل آخر . ومن يعيش لينظر هذا من يسعده الحظ بان يرى ذلك المنقذ الذي يقودهم خارجًا بهم الى ارض الموعد

حقًا ان هذه النبوة انعشت نفسي واحيت فيَّ ميت الرجاء وقد حاولت ان انشط بها هم شيوخنا واشدّد عزائمهم مذكرًا اياهم بان لشعبنا بلادًا محفوظة بعناية الله آبائنا . لكنهم انغضوا رؤوسهم ولم تحيهم هذه التعلِة فتيلاً لانهم رزحوا منذ وقت طويل تحت ثقل اليأس واستسلموا للقنوط . ومع كل ذلك لانفتأ انا واخي هرون عاملَين على تنشيطهم وتشجيعهم ممثلين امام عيونهم صورة ذلك المستقبل السعيد . وبهاء ذلك الوقت المجيد لكن واحدًا منهم اجابني

”انك تقول ان تلك الارض غاصة بالسكان الذين كلهم رجال حرب وذوو بأس . منذ امس واول من أمس. فكيف نقدر يا ابن ابنة فرعون ؟—هكذا لقبني من شدّة غيظه

”نحن العبرانيين الذين يجهلون الحرب والكفاح . ولا يعرفون السهام من الرماح . والذين عبث بهم الذل ولعِب . وأكل عليهم الشقاء وشرب . كيف نقوى ونحن في هذا الحالة من الذل والاستعباد . ان نتغلب على سكان تلك البلاد . وان

كان اله آبائنا اعطانا اياها ملكاً الى الآباد "

قال شيخ آخر يدعى اوري — الذي ابنه امهر واحذق صانع في مصر بعمل الذهب والفضة والحجارة الكريمة مخاطباً رفقاءهُ

"أليست تلك البلاد التي يتكلم عنها هذا العبراني الغريب واقعة وراء بلاد العرب وفي طريقها ملوك كثيرون اقوياء منهم الادوميون والحثيون والفلسطينيون وغيرهم فهب ان فرعون اجاز لنا غداً ان نذهب الى بلاد المنا الذي نفتخر به أفنحن قادرون على اجتياز البادية بل هل لنا استطاعة على محاربة الامم في طريقنا والاستظهار على سكان تلك البلاد الاشداء الاقوياء فاليكم عن الاصغاء الى وساوس هذا العبراني المصري الذي يغرينا على ترك مصر. لكي نسقط جميعنا في حد السيف هذا اذا لم نهلك في القفر. وعندي انهُ مبعوث من لدن فرعون صديقهِ القديم ليخاطبنا في هذا الشأن حتى يستريح منا او يتمكن من اهلاكنا دفعة واحدة"

على هذا المنوال يا عزيزي سيسوسترس كان يُرَدُّ لي الكلام ومع ذلك ساظلّ باذلاً جهدي مخلياً ذرعي في اقناع اخوتي بوجوب الرجاء والنظر بعين التوقع والتيقظ والانتباه الى خلاص ذراع الله

الوداع يا سيسوسترس ليعطِكَ الاله القادر على كل شيء

روحهُ الالهي ويملأ قلبك حكمة وعدلاً لكي تمجده كملك الملوك وتسود شعبك بيد الرحمة على طريق النجاح . بلغ الملكة المحبوبة ثاموندا افضل تحية واسمى احترام . وابلغ شكر على تسميتها ابنتك بالاسم العزيز الكريم "امنس" راجياً انها تشب على فضائل تلك الملكة الصالحة ولا ينالها شيءٌ من مكارمها واكدارها بلّغ شوق قلبي ومحبة نفسي لسيّ الجميل المحبوب ابنك رعمسيس وقل له اني ارجو انه حينما يبلغ اشدَّهُ ويأتي مصر نظير كثيرين من الامراء اولياء العهد لايجد امة العبرانيين بعد في العبودية وانه حين يسأل عن شعب الحقير صديق ابيه يجاب

"اخرجهم الههم بيد قوية وذراع ممدودة الى ارض أُعطيت لهم ميراثاً وهم الآن يسكنونها آمنين" آه يا سيسوسترس هل تحقق هذه المنى وتصحُّ هذه الاحلام قل لرعمسيس ان ينوب عني بوضع طوق من الازهار على ضريح الملكة ايفيا التي لها في فؤادي اجمل الذكر . ولن انسى معروفها مدى العمر . الوداع مرة ثانية من

خِدنك الحميم وصديقك القديم

رعمسيس



الرسالة السابعة

من هرون الى الملك سيسوسترس

مدينة رعمسيس . مصر

الى سيسوسترس ملك صور من هرون العبراني سلام

بعدما يطلع جلالة الملك على هذه الرسالة يصفح عن عبده الذي تجاسر على رفعها اليه

فاعلم ايها الملك ان اخي صديقك المحبوب الذي كتب اليك الرسالة التي سابعث بها حي هذه الى ناديك (والتي كان من عزمه ان يرسلها اليك لو لم يحُل دون ذلك ما سوف اذكرهُ) فرَّ هاربًا من مصر تطاردهُ قوة فرعون الطاغية جادّة في اثرهِ لتوقع به شر الانتقام لاسباب ابسطها لجلالتك بوجيز الكلام

فانهُ ثاني يوم فراغهِ من كتابة الرسالة قال لي " اني خارجٌ لارى اخوتي العاملين في بحيرة مريس واخاطب شيوخهم وفتيانهم في ما ينشط قلوبهم ويقوّي رجاءهم " . وهكذا انطلق وعبر النهر متنكرًا في زيّ مصري — اذ ليس من عبراني الآن يجسر ان يمشي وحدهُ خوفًا من العساكر المبثّين للحراسة والمراقبة في كل ناحية — وجاء الى شاطئ بحيرة امنس (المدعوة الآن بحيرة مريس) حيث وجد الملك مريس في مركبتهِ جائلاً هناك يصدر الاوامر لنظار العمل فسار اخي غير ظاهر لهُ يلاحظ اثقال اخوتهِ الباهظة وفي مدّة الثلاث الساعات التي قضاها هناك رأى ثلاثة رجال منهم غاصوا في المستنقعات وماتوا ثم جاء الى حيث وجد كثيرين منهم شيوخًا وشبّانًا يقاسون منتهى القساوة والصرامة فاغتمّ قلبهُ وصلى الى الله طالبًا تقصير ايام الاربع مئة سنة واسراعهِ تعالى الى انقاذهم واذ لم يعد قادرًا على مشاهدة مثل هذه الفظائع تحوّل منطلقًا آسف القلب كاسف البال . من جرّاء سوء هاتهِ الاحوال . غائصًا في لجج التأملات والافكار . حائرًا في عناية الله ومقاصدهِ المحفوفة بغوامض الاسرار . حتى بلغ مضيقًا في كثيف رمل بين سورين فافاق من ذهولهِ على صراخ متألم مصحوبًا بصوت ضربات عصًا قوية فنظر واذا باحد المسخّرين المصريين يجرُّ فتى عبرانيًا محبوبًا عند اخي من شعرهِ وهو موشكٌ ان يميتهُ

فاغتاظ اخي من جرَّاء هذا المنظر المؤثر وامر ذاك المصري ان يتنحَّى عن الفتى فلعنهُ بآلهتهِ وجرَّد خنجرهُ وهمَّ ان يغمدهُ في احشاء الفتى نكاية باخي لولم يبادر موسى الى الاخذ بيدهِ وتخليص الفتى منهُ وعند عزم المصري على الايقاع باخي الذي نظر الى هنا وهناك واذ لم يجد احدًا ابتدرهُ بضربة من يدهِ باسم الله ابرهيم المنتقم لشعبهِ غادرتهُ صريعًا عادم الحياة ثم طمرهُ في الرمل ورجع الى البيت وقصَّ عليَّ كل ما حدث

فقلت لهُ متعجبًا

"انك يا اخي اوَّل عبراني أودى بمصري . ولا بدَّ انك انقدت الى هذا بمحرك الهي فعسى ان تكون انت المزمع ان يُقام من الله مخلصًا لشعبهِ"

فاجابني بما يعهد فيهِ من الوداعة والاتضاع

"لا تخاطبني بكلام كهذا يغريني على الافتخار فلست انا . لست انا يا اخي بل قد شعرت باني منساق الى عمل ما عملت بقوة الله"

وفي اليوم التالي خرج ايضًا الى البحيرة ليجتمع هناك ببعض شيوخ شعبهِ المعروفين بالحكمة والصلاح ليعلن نفسهُ لهم . وفي طريقهِ رأى رجلين عبرانيين يختصمان وقد ابتدر احدهما الآخر بضربة من اداة عملهِ كادت تعجل اخترامهُ فقال لهما

" لماذا يا سيدَيَّ تختصمان ألا تعلمان انكما اخوان "

ثم قال للمذنب

" لماذا ايها الصديق اسأت هكذا الى من هو اخوك عبراني مثلك " . فرمقه هذا شذرًا ونظر اليه محازرًا وقال

" انك رعمسيس العبراني – ابن ابنة فرعون وقد تذكرتك الآن

فهل تظن انك باقٍ وليّ عهد مصر . صاحب النهي والامر . ساء فألك ايها التعس . ان ملكنا الآن مريض . اما انت فمن جعلك علينا مقام القاضي او الرئيس . أ وَنسيت وما اخالك ناسيًا انك عبدٌ نظير الباقين منا . وغير ممتاز في شيء عنا . أمفتكرٌ انت بقتلي وتقصير عمري . كما قتلت امس المصري "

واذ ذاك أُنذرَ اخي بخوف العاقبة ورأى ان قد برح الخفاء وعُرِف الامر واتجهت نحوهُ عيون كثيرين من المصريين والعبرانيين ونظر عدة رجال اسرعوا الى ناظر كبير عند الملك كانهم يقصّون عليه ما جرى وهذا انطلق على الفور في مركبته كانه يطلب مريس الذي عرف اخي انه لم يكن بعيدًا من هناك وحينئذٍ لم يبطئ موسى ان هرب الينا ولما اطلعنا على ما حدث وان مريس سوف يسمع بالخبر أشرت عليه انا وامه بالهرب من مصر في الحال . فقال بعدما اوضح لنا توقّعه مبادرة الملك الى

القبض عليهِ وقتلهِ

"لكنني لا اخشى غضب فرعون وان دُفعتُ الى يدهِ فاني حينئذٍ اما أُنكر او اعتذر او التمس العفو واني لقادر على التنصُّل عن تبعة ما اقترفتهُ لان الظالم يستحق الموت ولا بدَّ ان الله يوماً ما يهلك فرعون وكل جندهِ بيد عبراني"

قال هذا وقد اشرق محيَّاهُ الجميل بنور النبوَّة كانهُ يتكلم بوحي

ولما دخل ابوهُ عمرام وسمع بما جرى قال

"ليتمجد اله يعقوب فانهُ اعطى قوة وشجاعة لاسرائيلي فانتقم من ظالم شعبهِ اهرب يا ابني اهرب . اهرب — ليس خوفاً . لانك شجاع ورجل بأس ومتعوّد الحرب والقتال — بل اهرب حرصاً على حياة تناجيني نفسي بانها سوف تكون عزيزة عند شعبنا"

فقال موسى بلسان الحزن

"اني موقنٌ يا ابي ان شعبي سوف يعلمون ان الله معي ويعترفون باني أُرسلت لاكون صديقهم . فسأهرب . وهناك في ارض غريبة اخدم شعبي على الاقل بالصلاة والابتهال الى الله لاجلهم وبانقاذ حياتي من يد فرعون"

ثم البساهُ ثياب رجل مصري وزوَّداهُ بما يحتاج اليهِ وبعد ما عانقنا جميعاً خرج منطلقاً وامي تبكي وتنوح قائلة

اني مرة ثانية اكرهت على مفارقة ابني خوفاً عليهِ من سيف

فرعون – في المرة الاولى دفعته الى اليمّ . والآن الى رمال البادية في القفر”

فاجابها ابي

“ومياه اليمّ ايتها المرأة قذفته ليكن وليّ عهد مصر . ومن رمال القفر يقدر الله ان يدعوهُ ليملك على اسرائيل بالعزّ والنصر”

فنظرت الى وجه ابي الشيخ الذي وُهب له في هذه السنين الاخيرة النطق باعلانات نبوية فوجدت عينيهِ تسطعان بنور فائق وبهاء خارق . ثم عاد اخي راجعاً بضع خطوات وعانق والدته مرة ثانية وانحنى امام ابيهِ ليتزوَّد ببركته وسار في طريقهِ شرقاً وقد رافقته مسافة ساعة ثم تعانقنا وافترقنا وذهب هو في طريقهِ نحو مديان لان يثرون امير تلك البلاد (التي سكنها مديان بن ابرام من قطورة) الذي لقيته على مائدة صديقك رعمسيس ايها الملك حين كنت في مصر دعا اخي الى زيارتهِ

وبعد رجوعي الى البيت علمت من والدتي ان فرقة من العساكر أُرسلت من عند فرعون للقبض على اخي . فلو ابطأَ ساعة واحدة كانوا قبضوا عليهِ

وبالتماس من والدي حرَّرت اليك هذه الرسالة وطيها رسالة موسى

وبعد دخولي البيت وجدت والديّ واختي يستعدُّون

للهرب من وجه الملك خوفًا من انتقامه حين يبلغه خبر هرب موسى كتبها في مصر عبدك

هرون العبراني

(ان الرسائل التي في القسم الثاني تستغرق مدة خمس سنين والتي في القسم الثالث كتبها الامير رعمسيس امير صور ودمشق الذي زار مصر بعد مضي اربعين سنة من تاريخ الرسالة المتقدمة)

القسم الثالث

رسائل من رعمسيس ولي عهد صور ودمشق الى سيسوسترس ملك فينيقية

الرسالة الاولى

قصر فرعون . بحيرة مريس

ابي الملك العزيز المحبوب

ان وجودي الآن محفوفاً بالمناظر والمشاهد التي رأيتها عيناك حين جئت الى مصر في عهد صباك منذ ست واربعين سنة يبعثني على احساس غريب وشعور فائق . فكلما شاهدت

منظرًا او نظرت مشهدًا اقول في نفسي متذكرًا "وهذا ايضًا ابي رآهُ وهذا الموضع وطئتهُ قدماهُ . وهنا تمشّى عند ما زار مصر في عهد صباهُ"

والرسائل التي كتبتها من مصر في عهد الملكة امنس الحكيمة وبعثت بها الى جدّتي الملكة وهي الآن عندي مثلت لذهني منذ نعومة اظفاري هذه البلاد العجيبة وهي الآن دليلي ومرشدي. وعليها اعتمد وبها اهتدي

على انهُ طرأ على مصر بعض التغيير. فان فرعون مريس الذي توُفي من زمان طويل وابنهُ ميفرا- توثمس وحفيدهُ توثمسيس وتوثمسيس الرابع الملك الحالي جميع هولاء كرَّسوا جلوسهم على العرش بمباشرة بناء هياكل وقصور واهرام ورمموا خرابات ابنية من مثل هذه . فمريس رمم هيكل توث القديم في جزيرة الروضة حيث خُتِنَ وليُّ العهد رعمسيس ثلاثة اشهر وقد امتاز هذا الملك (مريس) مع انهُ كان ظالمًا باصلاحات عديدة اتاها في الصنائع والفنون والعلوم . وهرمهُ شائق البناء فائق الاحكام ممتازة زواياهُ بان على كلٍ منها مسلّة. وبحيرتهُ اعظم اثر ابقاهُ في الارض

هذه البحيرة أُنشئت من زمان طويل وعُني بتكبيرها في عهد الملكة امنس لكي تسع فضلات مياه النيل عند ما يطفو فائضًا فوق الحاجة كما يحدث بعض الاوقات فيغمر الحقول

المزروعة واذ لم تكن كافية لسدّ هذه الحاجة سعى الملك مريس في تكبيرها وتوسيعها مسخرًا العبرانيين لهذا العمل العظيم الذي قيل انهُ اهلك ثلاث مئة الف منهم قبلما أُكمل . وهي الآن في عرض وعمق كافيين لخزن فضلات النيل وتعدّ من عجائب الدنيا مطاولة الاهرام في العظمة والفخامة . وفي وسط هذا البحر البرّي العظيم هرمان باذخان على قمة كلٍ منها التي علوها ثلاث مئة قدم وثماني اقدام تمثال على عرش في صورة مركبة احدهما لتوث والآخر لمريس وعلى الاول مرسوم: "الاله أنجح وسهّل" وعلى الثاني "فرعون بنى وكمّل" وتحت هذا مكتوب

"ان محيط دائرة هذه البحيرة ثلاث مئة واربعون ميلاً وعمقها مئة وخمسون قدمًا . وهي تسع مياه كل انهار الارض"

ومن جملة المشروعات العظيمة التي قام بها مريس على جوانب هذا البحر الكبير هيكل واسع المساحة ضخم البناء انشأهُ لسيرابيس وشرع في مدّ صفٍّ من اعمدة ابي الهول من البحيرة الى الهيكل وقد أُكملت مؤخرًا بعناية ثوتمسيس الرابع الذي دعاني في الاسبوع الماضي الى حفلة تدشينها . فشاقني جدًّا ذلك الموكب العظيم الحافل برؤساء الكهنة والعساكر والاشراف والاعيان وجميع كبراء المملكة . ولما بلغوا الهيكل اقاموا فيهِ الصلوات واصعدوا الضحايا والقرابين امام الاله

ولقد تعجبت جدًّا يا ابي العزيز من ان موضوع كل هذه

الفرائض العظيمة لم يكن سوى ثور اسود وغاية كل هذا المجد
حيوان مذخور في صدر الهيكل قُدِّمت له كل هذه العبادة كما
لله فطوبى لي يا ابي الحكيم الصالح لاني منذ الصغر تهذبت بمعرفة
الاله الحقيقي

وفي مدَّة هذه الستة الاسابيع التي قضيتها في مصر زرت مناظر
عديدة ومشاهد مختلفة كلهـا آية الغرابة والعجب لكنني اطوي
كشحًا عن اطالة الكلام في وصفها لانها كلها معروفة عندك
معلومة لديك الاَّ اذا زرت المدينة ذات المئة بوابة التي لم تسمح
لك الفرصة بزيارتها

واظنك لم تنسَ اكُوربس الاسير ملك الحبشة . فهو باقٍ
حيًا وقد اشتعل رأسهُ شيبًا وانحنى ظهرهُ تحت ثقل كرور الاعوام
ولا يزال اسيرًا اذ كان كل ملك يخلف هذا الاسير الخطير لمن
يملك بعدهُ

ولقد عنيت جدًّا بملاحظة احوال العبرانيين الذين يهمك
جدًّا الوقوف على اخبارهم . وقد نموا وكثروا جدًّا في مدَّة هذه
الاربعين سنة على رغم شدَّة اهتمام الفراعنة باهلاكهم وتقليل
عددهم بتكليفهم الاعمال الباهظة المميتة وهم الآن يبلغون ثلاثة
ملايين ونصف مليون من النفوس وذلك ثلث سكان مصر .
وهذا التكاثر البليغ مقلقٌ لافكار تُوتمسيس الرابع حتى انهُ اعلن
لي خوفهُ على العرش من جرَّاء هذا الامر

لم اصف لك بعد هذا الملك . فحين مثلت امامهُ ورفعت اليهِ رسائلك اكرم وفادتي محتفيًا بي احتفاء لائقًا وسألني عنك ولما استعلم مني عن عمرك وقلت لهُ انك ابن ثلاثٍ وسبعين سنة قال انهُ لم يعرف ملكًا في هذا السنّ الأ يثرون ملك مديان . وقد سألني لماذا تأخرت عن المجيء الى مصر حتى بلغت الثانية والاربعين (لاني اخبرتهُ بعمري الموافق عمرهُ تمامًا) فاعلمتهُ اني كنت مشغولاً في ادارة شؤون مملكة دمشق التي ورثتها من امي ومنهمكًا في ترميمها واصلاحها من التدمير الذي ألمّ بها من الصابئين الذين غزوها ثلاث مرّات وانا بعد يافعٌ غير بالغ . اما هذا الملك فهو غرٌّ ساذج ضعيف العزم ميّال الى الخرافات وعدم الثبات في الامور وسهل الانقياد الى عمل الشر ومع شدّة جبانتهِ تراهُ ارعن على جانب عظيم من الطياشة ومع شدّة مباهاتهِ بحكمتهِ تجدهُ كثير الخرافات وافر الحمق ومع فرط تعبُّدهِ لآلهتهِ تراهُ عبد رقّ لافظع الرذائل واقبح المعاصي . ومع شدّة حرصهِ على حقوقهِ تراهُ لداعي ضعف قلبهِ مغضيًا عنها ومغادرًا اياها مدوسة تحت اقدام شعبهِ والحكام الخاضعين لهُ . وانهُ لسرعة تقلبهِ يبني في برهة وجيزة من الزمان ما اوجبهُ ويوجب ما سلبهُ ويقضي في الصباح باعدام من عفا عنهُ في المساء فلو كان صديقي لارتبتُ فيهِ ولو كان عدوي لما تأخرت عن جعل البحر حائلاً بيني وبين سيوفهِ

ع

ولما ترى حالة العبرانيين في عهده سيئة الى الغاية وشراً منها في عهد الفراعنة السالفين فهو لخوفه منهم مضاعفٌ اثقالهم ومؤتمرٌ على اهلاكهم وكان قد سعى في الايقاع بهم دفعةً واحدة لولا الاحتساب من تعذر دفن ملايين كهذه وفتك الوباء الناشئ عن جثثهم بباقي السكان

وهكذا ترى العبرانيين باقين رهن الخوف والذل والضيق وقد طفت بينهم ممتثلاً امرك في السؤال والبحث عن موسى العبراني الحكيم. وانهم الآن ارقى شأناً في المعرفة منهم في عهد مجيئك الى مصر. ولم تعد معرفة الله بينهم غامضة كما كانت قبلاً وقد زادوا توقعاً لمجيء منقذ او مخلص . وقلَّ من الشيوخ مَن تذكَّر رعمسيس او موسى وليس فيهم من يعرف اين هو وهم يذهبون الى انه مات من زمان طويل. على اني سأُواصل البحث عنه جهدي

بلِّغ تحيتي لاختي امنس ولزوجها سيسربس ملك صيداء ودمشق

لابنك المحب والمطيع

رعمسيس

الي العزيز

فضضتُ ختام هذه الرسالة لاخبرك بأني بعد ما طويتها وابقيتها ثلاثة ايام منتظراً اقلاع سفينة الامير ساريتا بُلّغتُ ان صديقك رعمسيس باقٍ حيّاً في مديان كما ظننت. هذا كل ما اقدر ان افيدك بهِ الآن . لان الريح موافقة والسفينة على اهبة السفر

ابنك الامين

رعمسيس

الرسالة الثانية

من رعمبس ولي عهد دمشق الى ايو سبوسترس
ملك فينيقية

مدينة اون . مصر

بما انهُ قد تهيأ لي يا ابي العزيز ان أُرسل اليك هذه الرسالة بعد غدٍ رأيت ان أُطلعك على كيفية وقوفي على الخبر بان صديقك القديم رعمبس باقٍ حيًّا في مديان حيث هرب اليها من وجه الملك مريس

فانهُ قد بلغني امس خبر قدوم قافلة من عصيون جابر (او العقبة) عبرت النيل الى ضواحي مدينة اون حيث نزلت القافلة واجتمعت برئيس التجار معلنًا لهُ ذاتي بأني امير غريب متغرّب لاجل اكتساب المعرفة والاطلاع على المشاهد الغريبة .

فاستقبلني باكرام يليق بي وطارحتهُ كثيرًا من السؤَّالات عن بلادهِ وسفرهِ وعما جاء بهِ من السلع والامتعة حتى استأنس بي فسألتهُ اذا كان يعرف بلاد مديان فقال انهُ هو نفسهُ مدياني وانهُ برحها منذ عشرين يومًا ليصحب القافلة التي كان جانب عظيم منها ليثرون ملك تلك البلاد وكاهنها. ولما سمعت هذا الاسم تذكرت انهُ اسم الملك الذي ذكرهُ هرون في رسالتهِ الاخيرة قائلاً انهُ كان قد دعا موسى من قبل الى زيارة بلادهِ فسألتهُ

"هل تعرف يثرون"

"وقد جلست عند قدميهِ — وكثيرًا ما رُفعت يدهُ على رأسي حين كنت ولدًا"

"انكم تدعونهُ كاهنًا فما هي ديانتهُ"

"انهُ يدين بديانة ابينا ابرام"

"ان العبرانيين نسل ابرام"

"نعم من سارة زوجتهِ الاولى واما المديانيون فهم بنو مديان ابن ابرام من قطورة التي اتخذها زوجةً لهُ بعد وفاة سارة ومُدن عيفة وعفر وحنوك التي في مديان بناها بنو مديان احفاد ابرام"

"هل تعبدون اله ابرام — او ابرهيم كما يدعوهُ نسلهُ العبرانيون"

"وهل بلغك ايها الامير اننا عبدة اوثان او نار او اننا

نصلي للثيران والوحوش والزحافات نظير المصريين اننا نعبد الاله الواحد – رب السماء – الخالق القادر على كل شيء الذي اعلن نفسهُ لابينا ابرام"

وحينما اخبرتهُ بأني انا ايضاً اعبد الاله ذاتهُ أخذ يدي وقبلها بكل احترام وقال

"ليس الاَّ اله واحد"

"كيف تقوم ديانتكم التي ملككم كاهنٌ لها"

"بالذبائح . ففي الصباح والمساء يقدم الكهنة لله بخوراً وقرابين وذبائح حملان ولذا نحن اغنياء جدًّا بالمواشي والقطعان وفي الاعياد العظيمة يكهن الملك نفسهُ ويضع يدهُ على راس الذبيحة ويسأل القادر على كل شيء ان يقبل حياة هذه الذبيحة عوضاً عن الشعب ويحوّل اليها الغضب الذي استحقتهُ المملكة"

"هل قرَّب ابرام لله هكذا"

"ليس ابرام فقط بل نوح الاب الاول وكل آباء العالم القديم . اذًا تكون عبادتنا ايها الامير عبارة عن تقديم حياة الذبيحة في سبيل حفظ حياتنا"

"نعم اذا كان رب السماء العظيم يقبلها على هذا الاسلوب لانهُ من يستطيع ان يعادل حياة الانسان بحياة خروف من الضأن"

"لا احد غير الله الذي من مجرّد جودهِ ومجدهِ اراد ان

يكون هذا الامر هكذا"

"هل سمعت في مديان برجل عبراني يدعى موسى"

"أ تعني بهِ موسى المصري"

"هذب في مصر وظن انهُ ابن ابنة فرعون لكنهُ لم يكن الاَّ متبنَّاها وحين عُرِف انهُ عبراني برح مصر"

"ان هذا الرجل موسى الذي كان يدعى قبلاً رعمسيس هو الآن في مديان حيث مضى عليهِ اربعون سنة وهو صهر ملكنا الذي ولاَّهُ على كل جماعات الرعاة في الكورة الواقعة بين مدينة قطورة والبحر الى ما وراء البرية حيث يرعى قطعانهُ على جانبي جبل حوريب . وهو منقطع للتأمل والكتابة في كهف – لانهُ واسع العلم ومعدود في مديان شيخ الفلاسفة وكبير الحكماء . وقد تزوج ابنة رعوئيل يثرون ورُزق منها عدة بنين مات اكثرهم ولم يبقَ منهم في قيد الحياة سوى اثنين . واي رجل في مديان لا يعرف موسى راعي حوريب الحكيم"

فسررت جدًّا يا والدي العزيز بهذه البشرى ومثلتُ لنفسي عظم الابتهاج الذي يخامرك عند وقوفك عليها . ثم سألت هذا المدياني الفاضل عن وقت رجوعهِ فقال انهُ ينطلق بعد سبعة ايام وانهُ يقتضي لهُ احد عشر يومًا حتى يصل الى حيث موسى مقيم ولهذا بعد ما ألقيت عليهِ بعض اسئلة من جهة الطريق عزمت على ان اصحبهُ لعلمي انك تحتفل جدًّا برسالةٍ مني أتبعك

فيها اني رأيت صديقك وخاطبته وجهاً لوجه وتؤثرها على عدّة رسائل اكتبها اليك من ثيبة المدينة ذات المئة بوابة . وبعد ذلك اوافيك بتفاصيل سفري واجتماعي بصديقك في منفاهُ الطويل سائلاً اله ابرهيم وموسى ان يحفظك بعنايته المقدسة ويبقيك سالماً لابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة الثالثة

من موسى الى سيسوستريس

ارض مديان

ايها الصديق الحميم والملك الجليل العظيم

اني لعاجزٌ عن وصف عواطف المسرة واحساسات الابتهاج التي اختلجت في فؤادي حين عانقت ابنك المحبوب الامير رعمسيس فالشكر لله على هذه السعادة التي منحتها في

الحادية والثمانين من عمري اذ أُتيح لي ان اسمع عنك من فم ابنك وقد فرحت جدًّا بنبإ سلامتك ونجاح ملكك . واحيا فيَّ منظر الشاب رعمسيس ذكرى الماضي وشاهدت في وجهه بعين المسرة جميع ملامحك وابتساماتك الحلوة وانهُ متأسٌ لك في الفضائل والمحامد ومتعلمٌ منك معرفة الله الاله الحيّ الحقيقي وقد تعزيت جدًّا وشكرت نعمة اقدامهِ على اجتياز القفار ومكابدة مشاق الاسفار لكي يراني وهذا حقق لي انهُ وارثٌ منك محبتي مشاركٌ لك في حفظ مودتي منذ القدم "ومن يشابه أبهُ فما ظَلَمَ" ان حياتي ايها الصديق كانت منذ هربت من مصر خالية من الحوادث الخليقة بالذكر . وكنت من وقت الى آخر اسمع عنك وعن نجاح ملكك من تجار غرباء وبقيت حتى شاهدت ابنك ظانًّا اني ذاهبٌ نسيًا منسيًا ولسوف أُبقي رعمسيس عندي مدة اقامتهِ هنا . اما طريقة حياتي فهي على نوعٍ ما بسيطة دنيئة لاننا هنا شعب رعاية وعملي عبارة عن عمل راعٍ لاني مع كوني رئيس رعاة الارض لا استنكف قيادة قطعاني ورعايتها على الجبال — حيث انقطع للتأمل في الله والافتكار بشقاء اخوتي المستعبدين في مصر . لانهُ قام اربعة ملوك وانقرضوا وبنو يعقوب باقون يُسامُون ذلاً وهوانًا . ويجرعون العبودية صنوفًا والوانًا . ويكابدون ما يذيب الحديد . ويشيب الوليد . وكل يوم يُنذَرون عن مضاعفة الاثقال القديمة بحديث جديد لكن يوم

النجاة قريب غير بعيد . ولم يبقَ من الاربع مئة سنة الاَّ شيء زهيد وكلما جاءت قافلة من مصر اتوقَّع منها قيام منقذ عظيم . يرفع راية اله ابرهيم . ويدعو اسرائيل الى الاجتماع حولها والالتئام . والانتظام في سلك التآلف والانضمام . وان يطبعوا ادوات العمل سيوفًا ورماحًا . ويجاهدوا في سبيل العتق جهادًا يكتسح فرعون وقواته اكتساحًا . ويجتاح جنودهُ اجتياحًا . فمن يكون ذلك القائد مختار الله من يُخَصُّ بشرف اخراج أُمتنا الى ارض السعادة والرفاه . والخلاص والنجاه

ومن التفاصيل المحزنة التى قصَّها عليَّ ابنك عن حالة شعبي في مصر أرى ان كأس العبودية أُترِعَت دهاقًا — وكأس مصر ايضًا امتلأَت طفاحًا — لانهُ في نفس النبوة التي تنبئُ بنجاتهم بعد اربع مئة سنة بقال "والامة التي يستعبدون لها انا ادينها"

وهكذا تراني ايها الملك انوقع بذاهب الصبر . تحطيم ذراع مصر . وارسال الله ملاكهُ لينقذ اسرائيل من العبودية ويطلقهُ من الاسر

وفي اية بسالة وحكمة وصبر وحلم وايمان وشهامة وتقوى يجب ان يكون ذلك الذي يقود اسرائيل من العبودية اي انسان على الارض اهلٌ لهذا المقام الخطير اي انسان في كل مصر بين العبرانيين اقامهُ الله ممتازًا بهذه الصفات أَوَّاه اني لا اعرف احدًا لانهم جميعًا اسرى الضيق والاذلال منكسرو القلوب

موتى النفوس ولكن ما يريدهُ تعالى يفعلهُ وهو وحدهُ قادرٌ ان يؤيد اضعف آلة في يدهِ باشدّ قوة فلنتكل عليهِ لانهُ بذراعهِ يخلّص وبيدهِ يُنقذ وينجّي

اني في مدّة منفاي أعدت كتابة سفر حياة امير عوص باعتناء شديد ونصيب وافر من حكمةٍ أُوتيتها من الله وفي الوقت نفسهِ هذّبت كثيرين من المديانيين بمعرفة الحقائق الالهية وقد تهيأ لي بالهام من القادر على كل شيء ان اكتب تاريخ أعمال الخليقة من البدء حين خلق الله السماوات والارض الى موت الامير يوسف وقد نسخت زوجتي صفورة نسخة من هذا السفر سوف ابعث بها اليك مع ابنك آملاً انها تحوز نعمة القبول لديك

وفي الختام اقبل تحيات الصداقة الخالصة المقدسة ايها الملك سبسوسترس من عبدك وصديقك موسى

العبراني

الرسالة الرابعة

من رعمسيس دمشق الى ايبو الملك

مغارة حوريب . برية مديان

ابي العزيز الملك الجليل

اني الآن منذ اسبوعين ضيف عند صديقك المحترم موسى العبراني وقد كان سفري في عرض البادية مصحوبًا بالراحة ومحفوفًا بمشاهدة غير مألوفة عندي بعثتني على الارتياح واللذة . فبعد ما برحنا ارض مصر واصلنا المسير شرقًا مسافة خمسة ايام اكثرها في القفر والعراء في بادية العرب وفي اليوم السادس بعد ما درنا حول راس بحر العرب الغربي اتجهنا جنوبًا الى برية شور واجتزناها الى سفح تلال وهضاب بينها وادٍ خصيب ريّان عامر بالقرى والقطعان وبعد ثلاثة ايام بلغنا كورة جبلية

والبحر عن يميننا ومنها اقبلنا على جبل عالٍ فقال لي رئيس القافلة

" هذا جبل حوريب . فهو في ارض مديان مع انهُ بعيد عن مدينة الملك وفي هذا الجبل ترعى قطعانهُ وهناك تجد صديق ابيك موسى العبراني اما مع الرعاة والمواشي او في معتزلهِ في الكهف "

وفي ذلك المساء دخلنا وادي جبل حوريب وبعد مسيرة يوم رأيتُ من على ظهر ناقتي راعياً واقفاً على صخر متوكئاً على عصاهُ – وقطيعهُ يرعى بجانبهِ وكان رجلاً طويل القامة يكللهُ الوقار والمهابة وقد وخط الشيب جدائلهُ السود وعلى صدرهِ تتدلَّى لحيةٌ بيضاء كالثلج والقت الشمس عند مغيبها اشعتها البهارية على صورتهِ البادية بهيبة الملوك فلاح لعينيَّ على ذلك كانهُ تمثال اله ذلك المضيق

فناجاني قلبي " ان هذا موسى "

وقال التاجر " أُنظر هناك صهر يثرون "

وفي الحال أنخت ناقتي وترجّلت عنها بسرعة زائدة وفرح لا يوصف وبعد هنيهة كنت منحنياً امام صديقك يا ابي العزيز صارخاً بعواطف الخشية والاحترام

" اني رعمسيس بن سيسوستريس صديقك باركني ايها الاب المحترم لاني حامل اسمك "

وبعد ما تفرّس فيّ بعين الانذهال اقامني وعانقني وقال ومحياهُ ساطع بنور محبة مقدس

"اني فيك ارى اباك واسمع صوتهُ فاهلاً بك يا ابني كيف حال ابيك الصالح وكيف اقدمت على اجتياز البيداء محاولاً ان ترى العبراني المنفي في القفر والعراء ان منظرك مثّل لعينيّ كل الماضي"

وقد خنقت صوتهُ عوامل التأثير والانفعال على اني رأيت في لسانهِ حبسةً خلقيةً طبيعية فأخبرتهُ بداعي قدومي وابلغتهُ رسالة محبتك . ثم ادخلني الى مغارتهِ او كهفهِ الذي هو اشبه بكهوف كهنة لبنان وحلّت القافلة قريباً منا لتبيت ليلتها . وقضيت معهُ ساعات عديدة نتحادث عنك وعن صور وعن جدّتي وعن الملكة امنس وعن العبرانيين في مصر ورجائهِ الوطيد في قرب وقت انقاذهم

اما عن سرورهِ باستماع انبائك والوقوف على اخبارك فحدّث ولا حرج فما اكرم واقدس هذه الصداقة التي بينكما انها لا تزال بعدما كرّت عليها الاعوام والسنون في ريعان النضارة وتوثق العرى كأنها في غلواء الصبا وميعة الشبيبة

وفي اليوم التالي ذهب بي الى عاصمة مديان فشاهدت زوجتهُ صفورة وابنيهِ اللذين احدهما في سن السادسة عشرة والآخر في الثامنة عشرة ثم مثلت بين يدي الملك يثرون وهو

الآن ابن مئة سنة وسنة لكنهُ باقٍ في عزم الشيبة وقد ذكر لي بالتفصيل كيفية اجتماعهِ بموسى منذ اربعين سنة . قال

" كانت بناتي السبع مع رعاتي عند البئر قريبًا من المدينة لاستقاء الماء للقطعان . لان رئيس الجبل اذ نفذت من عندهِ المياه ارسل رعاتهُ ثلاث مرات ليستقوا من البئر على حين ترى ماءها بالجهد يكفي مواشينا . فارسلت بناتي قائلاً لعلهم يهابون جانبي لكن الرعاة الجبليين لم يبالوا بهنّ وهمُّوا بطردهنّ واذا برجل غريب كان جالسًا عند البئر نهض واقتصّ من المعتدين ببسالة فائقة ومع انهم كانوا كثيري العدد هربوا من امامهِ بخوف عظيم . اما هو فبعد ما طرد اولئك الرعاة عاد الى البئر واعان بناتي على سقاية القطعان

" ولما رجعنَ اليَّ مسرعات اكثر مما كنت اتوقع سألتهنّ عن السبب فاجبنني قائلات

" ان رجلاً مصريًّا عظيم القوة انقذنا من يد الرعاة وساعدنا في الاستقاء لمواشينا "

فسألتهنّ

" اين هو لماذا تركتنّ هذا الغريب الباسل عند البئر "

فاجبنَ

" انهُ مصريٌّ . لانهنّ ظننّهُ هكذا من لباسهِ وكلامهِ واذ ذاك ارسلت ابنتي صفورة تدعوهُ لكي يأتي اليَّ ويأكل خبزًا ومن

ذلك الحين التحمت بيننا اسباب الصداقة ولما علمت انهُ عبراني ومثلي من نسل ابرام اعطيتهُ صفورة زوجةً وارتضى ان يقيم في الارض وهو الآن اعظم واحكم رجل لان الله معهُ"

وفي الاسبوع التالي رجعت مع موسى الى الجبال وهنا اقضي ايامي مصغيًا الى تعاليمهِ السامية التي من دونها كل حكمة مصر وعلومها فكل اسرار الطبيعة وغوامض الخليقة معلنة لهُ ومن عادتهِ انهُ يقضي كل يوم ساعتين في الصلاة على الجبل مخاطبًا الله كأنهُ كبير كهنة الارض وحوريب مذبحهُ والكون هيكلهُ وموضوعهُ العبرانيون في مصر وحقًا يا ابي العزيز اذا كان الله مزمعًا ان ينقذ اسرائيل من مصر على يد انسان فقلبي يحدثني بان موسى سوف يكون ذلك الرجل لان اي انسان آخر على الارض حاملٌ في قلبهِ ثقل شقائهم ويتضرع لاجلهم على الدوام نعم انهُ شيخ متقدم في الايام لكنهُ لا ينقصهُ شيء من شدة العزم ومضاء الهمة فكانهُ بعد في عنفوان الشبيبة

وقد نسيت ان اخبرك ان صديقك هرون العالم الفصيح اخا موسى كان من عهد قريب في مديان . وبقي مدة يساعد في الرتبة الكهنوتية بتقديم الذبائح في المدينة لكنهُ رجع الآن الى جاسان حيث تزوج من سنين عديدة . اختهُ مريم هنا عند موسى وهي ذات جلال لم ارَ لهُ مشبهًا في النساء ومع انها الآن في الرابعة والتسعين من عمرها تراها منتصبة القامة شديدة

العزم كانها بعد في شرخ صبوتها وانها في شعرها الابيض الثلجي وعينيها السوداوين الحادّتين وجلالها الملكي اشبه شيء بكاهنة الشمس الجليلة في بعل فغور. وام موسى ايضاً في مديان ولكن اظن ان اباهُ مات في بادية العرب حيث هربوا من مصر قبلما اتوا الى مديان

الوداع يا ابي . لا اعجب من محبتك لموسى . لانهُ قد اخذ بمجامع قلب ابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة الخامسة

من رعمسيس دمشق الى سيصوستريس

رعمسيس . مدينة المخازن . مصر

ابي المحبوب

من عنوان هذه الرسالة يتضح لك أني عدت الى مصر. واني الآن محفوف بحوادث عجيبة مدهشة فان رعمسيس – اي موسى خادم الله العلي – هنا ايضاً . واني اكتب اليك وانا بالجهد متمكّن من ضبط اناملي لتقبض على اليراع وذلك من جرّاء تأثير هذه الحوادث فيّ . فان راعي حوريب الحكيم ثاني يوم كتابتي رسالتي الاخيرة اليك من مغارتهِ قاد قسماً من قطيعهِ الى وادٍ منفردٍ في سفح جبل حوريب بعيداً عن البحر واذ توقعتُ قدومهُ خرجت الى ملاقاتهِ وانحدرت في ممرٍّ موعرٍ واذا بهِ

قادم امام رعاتهِ بقود قطيعهُ صاعدًا بهِ فتقدمهم وانفرد لوحده
واذا بي رأيت لهيبًا صاعدًا من جانبهِ مكتنفًا عليقة رأيتها تشتعل
بدون احتراق ولا دخان . واذ ذاك ابصرت موسى التفت
وتقدَّم نحو النار الملتهبة وفي طرفة عين غاب عن ناظري واحيط
باللهيب . فاسرعت نازلاً مندهشًا وخائفًا مما ابصرتُ واذ كانت
الطريقة متعرّجة اقتضى لي عدَّة دقائق قبلما هبطت الوادي
حيث توقَّعت ان ارى الحكيم الجليل ملتهبًا باللهيب الذي تراءى
لي محدقًا بهِ

ولما بلغت الوادي رأيت الرعاة ساقطين على وجوهم
ورجل الله واقفًا امام العليقة المشتعلة ووجههُ كالشمس وثيابهُ
تسطع بنور فائق الطبيعة فأخذتني خشية لا يعبَّر عنها من جرى
هذا المنظر ورأيت رجل الله خالعًا نعلهُ من رجليهِ وكأنهُ واقف
في حضرة الله في معظم الخشية والوقار . فتربَّصت في مكاني غير
مستطيع حراكًا وسقطت على وجهي عند ما شاهدت هذه الرؤيا
الباهرة شاعرًا بحضور القادر على كل شيء هناك . ثم سمعت صوتًا
فاه بالكلمات الآتية من وسط العليقة من داخل النار التي رأيت
فيها شبه انسان ساطع ببهاء مجدٍ يفوق ضياء الشمس

"انا اله ابيك اله ابرهيم واله اسحق واله يعقوب"

وحينئذٍ تراءى لي ان الارض ارتجفت مرتعدة من وقوف
الخالق عليها فتطلعت بعين الخشية والخوف واذا موسى واقف

ووجههُ مغطَّى لانهُ خاف ان ينظر الى الله فذاب قلبي فيَّ واخذتني غيبةٌ اشبهت فيها الموتى

ولما استفقت من غيبوبتي سمعت (بدون ان ارفع وجهي) موسى يخاطب الملاك القدير في اللهيب الذي كان عبارة عن بهاء تلك الحضرة الالهية الفائقة المجد والجلال . فخاطبهُ الصوت من ذلك اللهيب البهي

" اني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من اجل مسخريهم اني علمت اوجاعهم فنزلت لانقذهم من ايدي المصريين واصعدهم من تلك الارض الى ارض جيدة وواسعة . الى ارض تفيض لبنًا وعسلاً . الى مكان الكنعانيين والاموريين والآن هوذا صراخ بني اسرائيل قد اتى اليَّ ورأيت ايضًا الضيقة التي يضايقهم بها المصريون . فالآن هلمَّ فأُرسلك الى فرعون وتخرج شعبي بني اسرائيل من مصر "

ولما فرغ الصوت الالهي المقدَّس من الكلام بلغت كلماتهُ اعماق قلبي فقلت في نفسي . قد نزل اخيرًا اله العبرانيين القدير من السماء لينقذ شعبهُ وينجز وعدهُ لابرام ويجعل موسى خادم قوتهِ

ثم تكلم موسى بما لا مزيد عليهِ من الخشية والاتضاع

" من انا حتى اذهب الى فرعون وحتى أُخرج بني اسرائيل من مصر "

فاجابهُ الصوت

"اني اكون معك وهذه تكون لك العلامة اني ارسلتك . انظر حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل"

فقال موسى

"ها انا آتي الى بني اسرائيل واقول لهم اله آبائكم ارسلني اليكم فاذا قالوا لي ما اسمهُ فماذا اقول لهم"

فاجابهُ

"أهيه الذي أهيه هكذا تقول لبني اسرائيل أهيه ارسلني اليكم"

وبعد سكوت يسير سقط موسى في اثنائهِ على وجههِ وسجد كلمهُ ذلك الصوت الرهيب ثانيةً

هكذا تقول لبني اسرائيل الرب اله آبائكم اله ابرهيم واله اسحق واله يعقوب ارسلني اليكم. هذا اسمي الى الابد وهذا ذكري الى دور فدور اذهب واجمع شيوخ اسرائيل وقل لهم الرب اله آبائكم اله ابرهيم واله اسحق واله يعقوب ظهر لي قائلاً

"اني قد افتقدتكم وما صُنع بكم في مصر فقلت أُصعدكم من مذلة مصر الى ارض الكنعانيين الى ارض تفيض لبنًا وعسلاً فاذا سمعوا لقولك تدخل انت وشيوخ بني اسرائيل الى ملك مصر وتقولون لهُ . الرب اله العبرانيين التقانا فالآن نمضي سفر ثلاثة ايام في البرية ونذبح للرب الهنا . ولكنني اعلم ان ملك

مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية فامدُّ يدي واضرب مصر بكل عجائبي التي اصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم واعطي نعمةً لهذا الشعب في عيون المصريين فيكون حينما تمضون انكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها امتعة فضة وامتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين"

فاجاب موسى بفائق الحشمة والاحترام

"ولكن ها هم لا يصدّقونني ولا يسمعون لقولي بل يقولون لم يظهر لك الرب"

وعلى رغم تصريحه بعدم اهليته وذلك لشدّة تواضعه اجابه الصوت الالهي

"ما هذه في يدك"

فاجاب موسى "عصًا"

فأمرهُ الصوت "اطرحها الى الارض"

ولما اطاع موسى سمعت صوت العصا على الارض لكنني في الحال سمعت فحيح افعى فرفعت وجهي من حيث كنت ساقطا فابصرت حيّة تنساب وموسى هارب منها ثم خاطبه الصوت

"مدَّ يدك وامسك بذنبها"

فاطاع موسى وفعل خائفًا واذا بها صارت عصًا في يده فقال له الصوت

" هذه تكون علامة لهم لكي يصدقوا انهُ قد ظهر لك الرب اله آبائهم اله ابرهيم واله اسحق واله يعقوب "

ثم خاطبهُ الصوت

" ادخل يدك في عبك " فامتثل موسى واخرجها واذا هي برصاه كالثلج ثم امرهُ الرب ان يردّها الى عبهِ ففعل واخرجها فاذا هي قد عادت مثل جسدهِ . وخاطبهُ بعد هذا "

" فيكون اذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الاولى انهم يصدقون صوت الآية الاخيرة ويكون اذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك انك تأخذ من ماء النهر وتسكب على اليابسة فيصير الماء الذي تأخذهُ من النهر دمًا على اليابسة "

فاجاب موسى مضطربًا

" لست انا صاحب كلام منذ امس ولا اول من امس ولا من حين كلمت عبدك بل انا ثقيل الفم واللسان "

فقال لهُ الرب

" من صنع للانسان فمًا او من يصنع اخرس او أصمّ او بصيرًا او اعمى أما هو انا الرب فالآن اذهب وانا اكون مع فمك واعلمك ما تتكلم بهِ "

فقال موسى

" استمع ايها السيد . ارسل بيد من ترسل "

نحوي غضب الرب على موسى وقال

"أليس هرون اللاوي اخاك انا اعلم انهُ هو يتكلم وايضاً ها هو خارج لاستقبالك فحينما يراك يفرح بقلبهِ. فتكلمهُ وتضع الكلمات في فمهِ وانا اكون مع فمك ومع فمهِ واعلمكما ماذا تصنعان وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فماً وانت تكون لهُ الهاً وتأخذ في يدك هذه العصا التي تصنع بها الآيات"

فنهض موسى عن الارض خاضعاً مطيعاً لصوت الرب ثم رفع عينيهِ نحو السماء وقال

"ايها الرب الاله من مثلك بين الآلهة من مثلك في المجد ايها الاله المخوف الصانع العجائب الرب يملك الى الابد عظيم القوة والقداسة هو الهي فاحمدهُ. اله ابي فاعظّم اسمهُ الى الدهر ذكر عهدهُ لابرهيم وانتقامهُ من الامة التي ضايقت شعبهُ"

وحينئذٍ رأيت هرون قادماً يجتاز المضيق وحين ابصر موسى الذي كان لا يزال ساطعاً بما بقي عليهِ من مجد الحضرة خفَّ اليهِ وقبَّلهُ قائلاً

"هكذا رأيتك في الرؤيا يا اخي"

"هل رأيت الله ايضاً وجهاً لوجه حتى جئت مسرعاً من مصر"

كنتُ منذ اربعة عشر يوماً اصلّي في جاسان فرأيت شخصاً واقفاً امامي — شبيهاً ولا ريب بمن رآهُ ابونا ابرهيم"



فقال لي

" اذهب الى البرية لملاقاة موسى ثم رأيتك في الرؤيا واقفنا على جبل الله ومجد الرب مضيء عليك وانت تتكلم مع من تراءى لي انهُ ملاك الله وعلمت انك أُقمتَ منهُ تعالى منقذًا لاسرائيل من مصر ولهذا جئت اليك غير متباطئ امتثالاً لامر ملاك الرب . وقد سرَّ قلبي بمشاهدتك فتكلم الآن يا اخي لان الملاك قال لي هو يخبرك بكلام الرب وبالعلامات التي اوصاهُ بها "

وعندئذٍ قص عليهِ موسى كل ما حدث واراهُ العلامتين تحويل العصا حية وآية برص يدهِ وارجاعها كما كانتا فقال لهُ هرون —

" انك سوف تنقذ اسرائيل وانا اكون خادمك واحمل عصاك امامك "

ثم دنوت منها باشارة من موسى ومشيت بجانبها ومع كوني اميرًا شعرت بشدَّة انحطاطي عنها واني انال شرفًا باذخًا اذا صرت خادمًا لها

ثم سار ذانك الاخوان الجليلان — احدها ابن ثمانين سنة والآخر ابن ثلاثٍ وثمانين — نحو مغارة الراعي في جانب الجبل يتحدثان بهذه الامور العجيبة السارَّة وبخلاص اسرائيل الموعود بهِ وبعزمهِ تعالى على اتمامهِ

وفي اليوم التالي رجع موسى الى يثرون وقال له

"اتوسّل اليك ان تسمح لي بالرجوع الى شعبي في مصر لانظر كيف هم وهل اخوتي من سبط لاوي بعد احياء — لان الرب اراني انهُ قد مات جميع الذين يطلبون حياتي"

فاجابهُ حموهُ

"اذهب بسلام"

وبعد ثلاثة ايام ودّع موسى حماهُ وبرح مديان مصحوبًا بزوجتهِ وابنهِ واخيهِ وانا معهم وفي اليوم التالي لقينا قافلة من الشرق جئنا معها الى مصر ولما اشرفنا على اون انفصل عني موسى ليذهب بمن معهُ الى ارض جاسان حيث يسكن سبطهُ

وبعد نزولي في قصر والي اون جلست لاكتب اليك هذه الحوادث العجيبة والآن يُعنى هذان الاخوان القديران بجمع شيوخ الشعب يدعوانهم سرًّا باسم اله ابرهيم الى الاجتماع ليلتين عند اطلال عين يعقوب وساكون حاضرًا معهم باذن موسى. ولسوف تصدر عن هذا المجتمع الليلي نتائج خطيرة ذات شأن على ان فرعون ثوتمس اموسيس الذي يدعو نفسهُ (مقتديًا لكبريائهِ بامينوفيس الكبير) — "ضابط العالم" و"رب تاج السماء" و"حبيب الشمس" — يجهل ما اعدَّهُ لهُ من الانتقام من هو اقدر منهُ — ضابط الكل ورب السماء والارض وخالق الشمس — جزاء استعبادهِ العبرانيين وقد مثلت بين يديهِ في هذا الصباح (لانهُ

الآن في قصره في اون) فوجدته فرحًا مسرورًا بما بلغه من ان "ناظر المعادن" اكتشف معدن فضة في الجبال الجنوبية على تخوم الحبشة فقال لي

"سوف أرسل مئة الف من هولاء العبرانيين للعمل في هذا المعدن الجديد وغدًا أصدر الاوامر الى جميع الولاة وكبار القادة والضباط المقامين عليهم لينتخبوا منهم الاشداء والاقوياء ويجمعوهم الوفًا الوفًا ويسيروا بهم الى ثيبة وحق الآلهة اني عزمت أمس على اصدار امر جديد باهلاك جميع اولادهم ذكورًا واناثًا لكن اكتشاف المعادن سهّل لي الطريق من وجه آخر"

وهكذا ترى هذا الملك المتعجرف الضعيف واثقًا بقوّته وهو جالسٌ على عرشه كاله غير معترف بقوة فوق قوته الحلمية وسيادته الوهمية

الوداع يا ابي العزيز. لا ريب في ان رسالتي الآتية تحمل اليك انباء غريبة وحوادث عجيبة

ابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة السادسة

من رعمسيس دمشق الى الملك سيصوسترس

مدينة اون . مصر

ابي العزيز

التأمت في الليل الماضي جمعية الشيوخ السرية في مكان منفرد بعيد عن نظر الحراس والعساكر وقد حضرتها متنكرًا في زي عبراني واقمت بجانب هرون وكان الوقت بعد نصف الليل والمكان عند بئر او عين يعقوب حيث تحدثت مع رعمسيس (الذي هو الآن موسى) بشأن العبرانيين والعساكر المصريون لا يجسرون بسبب ما هم عليه من الاستمساك بذبول الخرافات على الدنو من هذا المكان المهجور ليلاً . لانه على ما في تقليدهم يقود الى العالم السفلي وفي الليل تأوي اليه ارواح شريرة



تحت اطباق الظلام وتجذب الى اعماق الارض كل من يجتازهُ .

اما العبرانيون فليس عندهم شيء من هذه الخرافة اوانهم تغلبوا على مخاوفهم انتهازًا لهذه الفرصة السانحة وقد اختار هرون هذه البقعة لعلمهِ انهم يأمنون فيها مراقبة المصريين

وانهُ ليشوق الناظر ان يرى لا اقل من اربع مئة وثمانين شيخًا من العبرانيين (اربعين شيخًا من كل سبط) مجتمعين تحت شجر النخل القديم الايام المظلِّل العين حيث جلس يعقوب وبنوهُ حولهُ آمنين

وبعد ما انتظم عقد الجلوس وساد السكون نهض هرون وضياء القمر ساطعٌ على اقنومهِ الجليل الوقور وقال

" ايها الرجال الاخوة بني ابينا ابرهيم اصغوا اليَّ فاخبركم لماذا دعوتكم الى هذا الاجتماع الغريب اذ لم تسبق لنا قط عادة ان نجتمع هكذا وان حضوركم هنا وتلبيتكم الدعوة واقدامكم على المجيء واجتماعكم في الوقت المعين — كل هذا دليل واضح يعلن لي يد الله الممدودة وقوتهُ غير المحدودة "

ثم فاه على مسامعهم بخطاب اخذ بناصية البلاغة وامتلك عنان البيان واسترعى الاذهان قبل الآذان بسط لهم فيهِ تاريخ اصل امتهم وَوَعْدَ الله لابرهيم وابناءهُ بعبوديتهم وانقاذهم ووعدهُ باعطائهِ اياهم ارض الكنعانيين وهم جميعًا قلوبٌ واعية وآذانٌ صاغية وقال لهم

"قد دنت ساعة العتق من الاسترقاق . وذكر الله وعدهُ وأنّهُ للانقاذ والاطلاق" ثم ذكر لهم هذا الخطيب المصقع بفصاحة باهرة. وبلاغة خالبة ساحرة حادثة العليقة المشتعلة في حوريب وفي الختام قدَّم اخاهُ موسى الى الشيوخ فاقتبلوهُ بضجيج الاقتناع لكن بعضهم ارتابوا وآخرين تذكروا انهُ تربى مصريًّا وصرَّحوا بانهم يخافون ان يكون هذا المشروع مطوّحًا بهم الى اتيان ما يمهد لفرعون عذرًا في اهلاكهم على بكرة ابيهم وقال واحدٌ منهم

"لننظر اولاً عجائبهُ فان كان الله قد ارسلهُ فلتصر عصاهُ حية امام عيوننا"

فاجابهُ موسى وقد اخذ عصاهُ من يد هرون

"سوف ترى وتؤْمن"

ثم القاها على الارض واذا بهـا صارت حية تتقد كالنار وانسابت بفحيح مخيف نحو ذاك المرتاب رافعة رأسهـا فوق رأسهِ حتى عمَّ صراخ الخوف والانذار وسقط ذاك الجاحد على وجههِ الى الارض فتقدَّم موسى وامسكها بذنبها واذا بها صارت عصاً في يدهِ واذ ذاك اقتنع الجميع بان موسى مرسلٌ من الله الاَّ واحدًا اعترض وقال

"ان هذا سحرٌ مبين لان موسى كان كاهنًا مصريًّا وهو عالم باسرار المصريين"

فاجابهُ موسى

" عرفتك يا فورح نعم اني تعلمت كمصري لكنني لم اعرف قط شيئًا من اسرار سحرهم . ولكني أُريك اني اعمل هذا بقوة الله ادخل يدك الى عبك "

فاطاعهُ الرجل وادخلها . ثم قال له موسى

" اخرجها "

واذا بها برصاء كالثلج وقد ظهرت لعيون الجميع على ضياء القمر فصرخ فورح خائفًا مرتاعًا فقال له موسى

" لا تكن غير مؤمن . ادخل يدك الى عبك ثانية "

فادخلها ولما اخرجها عادت كالاخرى وحينئذٍ نهض هذا وذاك الذي ارتاب اولاً وكلاهما اعترفا بقوة الله وسلطة موسى الذي لم يلبث ان اعلن للمشيخة ارسالة من قبل الله ليطلب من فرعون اطلاقهم وان الملك سوف يأبى في البداءة لكنهُ اخيرًا بعد ما يرى قوة الله يذعن مطيعًا ويطلقهم الى الارض الجيدة الموعود بها لابرهيم ولنسلهِ الى الابد . وفي الختام قال لهم بلهجة الآمر المتسلط

" ارجعوا الآن ايها الشيوخ الاخوة الى اماكنكم واعمالكم وانتظروا خلاص الله . لانهُ سوف يعلن مجدهُ وقوتهُ فلا ترتابوا في اقتراب خلاصكم . وليطلع كل اسرائيل على بشرى افتقاد الله وانهُ قد مدَّ ذراعهُ على مصر . ليكسر نير الرق والاسر "

ثم ارفضت الجمعية وذهب كل واحد الى مكانهِ وذهب

موسى وهرون الى بيت ابن حمي هرون حيث بتنت معهما الى الصباح . وقد قال موسى انه سوف يذهب في اليوم التالي الى فرعون

الوداع يا ابي . بعد ثلاثة ايام اكتب اليك

رعمسيس

دمشق

الرسالة السابعة

من رعمسيس دمشق الى سيسوسترس

مدينة اون . مصر

ابي العزيز

مثل موسى امام فرعون وخاطبه وجهًا لوجه طالبًا منه اطلاق الامة العبرانية وقد كان ذلك في قاعة العرش وعلى اسلوب مدهش شائق الى الغاية وسأجتهد الآن في تمثيله لك

فني ذلك اليوم اعلن الملك قبوله الطالبين مقابلته في قاعة العرش وحسب العادة لم يُمنَع احدٌ ولو كان فقيرًا حقيرًا عن تقديم طلبتهِ امام الملك . وفي الساعة المعينة جاء من مدينة رعمسيس موسى واخوهُ هرون يصحبهما سبعة من رؤساء الامة العبرانية ولما ابصرهم رئيس الحرس وعرف انهم عبرانيون تعجّب وحاول منعهم عن الدخول ولكن ثناهُ عن عزمهِ هذا الوقار والجلال الباديان على الاخوين الماشيَين احدهما بجانب الآخر فانزاح من امامهما حتى دخلا غير ناظرَين الى هنا ولا الى هناك واذ علمت بقدوم هذا الوفد العبراني وقفت حيث تمكنت من مشاهدتهم داخلين والاشراف والاعيان وجميع كبار البلاط يخلون لهم الطريق متوهّمين من حللهم الشبيهة بالحلل الكهنوتية انهم موكبٌ مقدّسٌ لكنهم حين علموا انهم عبرانيون رمقوهم بعين الاحتقار ومع ذلك تركوهم يمرّون حتى وقفوا امام العرش العاجي حيث استوى الملك في حلل الارجوان والذهب لابسًا التاج المضاعَف (تاجي مصر العليا والسفلى) محاطًا بكبراء دولتهِ وعظماء مملكتهِ وحرّاسه واقفون على جانبي العرش وامامهُ امرأة جاثية تطلب منهُ العفو عن ابنها الذي فوّق سهمًا عرضًا فاصاب كركيًّا وجرحهُ ولهذا حُكِمَ عليهِ بالاعدام فاجابها فرعون

"كلاّ ايتها المرأة لابدّ من اعدامهِ لو كان قتل عبدًا او عبرانيًا كنت اعفو عنهُ ولكنهُ جرح طائرًا مقدّسًا فلا مندوحة

عن موتو . اذهبي ولكن مَن هولاء الآتون"

قال هذا مخاطباً كبير حجّابهِ حين رأى الوفد العبراني يدنو منهُ فقال ابنهُ القائم بجانبهِ

"أراهم عبرانيين يا ابي"

"عبرانيين وماذا يعملون هنا وفي حلل آه . وليّ عهد صور أهلاً بك" قال هذا ملتفتاً اليَّ عند دخولي ومثولي في حضرتهِ "لقد شرفتنا في حضورك في قاعة القضاء"

واذ ذاك تقدم موسى وهرون حتى بلغا موطئ العرش او اسفلهُ وقد أُدهش الملك بجلال منظرهما ثم سألهما

"من انتما أَلستما عبرانيين" . فاجابهُ هرون

"انا عبرانيان ايها الملك . نحن أخوان . انا اسمي هرون اللاوي وهذا اخي موسى المدياني وهولاء شيوخ اسرائيل — رؤساء الشعب العبراني"

"ولماذا جئتم اليَّ ههنا مَن من ولاتي سمح لكم ان تتركوا عملكم من هو اسرائيل"

"هكذا قال الرب حاكم الكون اسرائيل ابني البكر . اطلق ابني ليعبدني وان ابيت ايها الملك ان تطلق اسرائيل فهوذا الهنا يقتل ابنك البكر" وقد قال هرون هذه الجملة الاخيرة بروح الوحي والالهام فذُعر الملك وامتقع لونهُ من شدَّة الغيظ والعجب ووثب ابنهُ امبونوفيس واضعاً يدهُ على خنجرهِ المرصَّع وصارخاً

" يقتلني اي تهديد هذا أيْ ذا اللحية الشائبة ان هذه مكيدة يا ابي "

فقال الملك

" من هو الرب حتى اسمع له واطلق اسرائيل فلا اعرف الرب ولا أُطلق اسرائيل ولا احتفل بهذا التهديد . أي رئيس الحرس اقبض على هولاء العبرانيين وخذهم الى السجن "

فتهيأ رئيس الحرس لاطاعة الامر ولم يتحرك عسكريٌّ من مكانه . لان جلال موسى حين رفع نظرهُ اليهم فلجهم ورمى اعضاءهم بالشلل وقلوبهم بالخوف والوجل فاجاب هرون فرعون :

" انه اله العبرانيين ايها الملك . رب الشمس وضابط جميع العوالم وقد التقانا وامرنا ان نذهب مسيرة ثلاثة ايام ونذبح له نظير آبائنا الاولين فان لم نسمع له يتهال علينا ويضربنا بالوباء او بالسيف. لذلك يقول اله العبرانيين لك يا ملك مصر اطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية "

فصرخ الملك نافضاً عن عرشه بجهو غضب

" وحق آلهة مصر اني احتقر اله العبرانيين فلماذا تصدّان الشعب عن العمل ارجعا انتما وهولاء الشيوخ الى احمالكم لانكم تحاولون خراب مصر. اذهبا من امامي ولولا احترامي لشيبتك يا هرون . كنت جرّعتك غصّة المنون عني بهم خارجاً "

فاجاب موسى لأوّل مرّة قائلاً

"ايها الملك ثوتمسيس ان اله العبرانيين الذي انا اعبدهُ سوف يريك قوتهُ ويعرّفك بأنهُ ليس من اله سواهُ"

فلم يجبهُ الملك بشيءٍ بل استولى عليهِ الاندهاش وقد شاهدت علامات الخوف بادية على وجههِ. ولما بلغ الوفد الدهليز أصدر وليّ العهد امرهُ الى الحراس الخارجين بالقبض عليهم لكن موسى باشارة من يدهِ بعثهم على الانحياز من طريقهِ فرجع ولي العهد حائرًا وقال لابيهِ

"ان هذين الرجلين الهان ايها الملك لان جميع الناس يخافون ان يلقوا عليهما الايدي"

فاجاب الملك

"ان عدت سمعت عنهما ارى ان كانا الهين او انسانين فوحياة اوسيرس انهما يونان وهل يريد العبرانيون ان يُضاف الى عملهم عمل آخر"

ثم جمع الملك الولاة والحكام ورؤساء التسخير وقال لهم

"لا تعودوا تعطون الشعب تبنًا لصنع اللبن كامس واول من امس. ليذهبوا هم ويجمعوا تبنًا لانفسهم. ومقدار اللبن الذي كانوا يصنعونهُ امس واول من امس تجعلونهُ عليهم لا تنقصوا منهُ فانهم متكاسلون ولذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لالهنا. ليثقل العمل على القوم يشتغلوا بهِ ولا يلتفتوا الى اكاذيب

موسى وهرون"

وهكذا ترى يا ابي العزيز ان النتيجة الاولى من مقابلة موسى لفرعون كانت زيادة ضيق شعبهِ لكن المهم فوق الكل ولسوف يعلن قوتهُ في انقاذهم

ابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة الثامنة

من رعمسيس دمشق الى سيسوسترس

مدينة اون

ابي العزيز المكرَّم

لا بدَّ انك تروم الوقوف على ما نتج من امر فرعون بزيادة اثقال العبرانيين فاقول ان المسخَّرين اطاعة للامر ذهبوا وكلَّموا الشعب بكلام الملك وامروهم بان يذهبوا هم ويأخذوا لانفسهم

تبنًا من حيث يجدون وانقطع الفعلة المصريون عن امدادهم
بالتبن الذي كانوا يحملونهُ اليهم بالعجلات والنوارب فتفرّق
اولئك المنكودو الحظ في كل ارض مصر ليجمعوا قشًا عوضًا عن
التبن. واذ كان هذا العمل الجديد يستغرق نصف وقتهم أصبح
المقدار المفروض ان يصنعوهُ يوميًا من اللبن متعذرًا عليهم
فارتفع صوت العصا والسوط في كل مكان وعلا صراخ
المضروبين في كل الارض. اخيرًا الى المدبّرون العبرانيون
الذين اقامهم المسخّرون المصريون الى فرعون حين خرج في
مركبتهِ متفقدًا وصرخوا اليهِ جاثين امامهُ "لماذا تفعل هكذا
بعبيدك وكيف يمكننا اعداد المقدار المفروض علينا من اللبن على
حين لا يعطى لنا تبنًا والمسخرون يوسعوننا ضربًا مؤلمًا والذنب
ذنبهم"

فاجابهم فرعون بغيظ

"متكاسلون انتم متكاسلون ليس عندكم عمل كافٍ ولهذا
تفتكرون ان عندكم وقتًا لتذهبوا الى البرية وتذبحوا لالهكم فالآن
اذهبوا اعملوا وتبن لا يعطى لكم ومقدار اللبن تقدمونهُ"

فذهبوا يتعثرون باذيال الخيبة وقد رأوا انفسهم في بلية.

واذ صادفوا موسى وهرون قال لهما واحدٌ منهم بغمٍّ وحنق

"ينظر الرب اليكما ويقضي لانكما بمداخلتكما مع الملك وضعتما
سيفًا في يد فرعون ليعملهُ في رقابنا"

فتكدَّر موسى وانزعج ولما انفصل عنهم رفع عينيهِ نحو السماء وقد سمعوهُ صارخًا الى الله وقائلاً

"لماذا يا سيد اسأتَ الى هذا الشعب لماذا ارسلتني فانهُ منذ دخلت الى فرعون لاتكلم باسمك اساء الى هذا الشعب . وانت لم تخلص شعبك"

واذا بصوت من السماء سمعوهُ يجيبهُ قائلاً

"سوف تنظر ما انا فاعل بفرعون فانهُ لابدَّ ان يطلقكم ويطردكم من ارضهِ . انا الرب الذي كلمك في حوريب من العليقة المشتعلة . وانا ظهرت لابرهيم واسحق ويعقوب باني الاله القادر على كل شيء . واما باسمي يَهْوَه فلم أُعرف عندهم . وانا قد سمعت أنين بني اسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدي

لذلك قل لبني اسرائيل انا الرب . وانا أُخرجكم من تحت اثقال المصريين وانقذكم من عبوديتهم واخلصكم بذراع ممدودة وباحكام عظيمة . واتخذكم لي شعبًا واكون لكم الهًا . فتعلمون اني انا الرب الهكم الذي يخرجكم من اثقال المصريين . وادخلكم الى الارض التي رفعت يدي ان اعطيها لابرهيم واسحق ويعقوب . واعطيكم اياها ميراثًا . انا الرب"

بهذه الكلمات ذهب موسى يحاول تعزية العبرانيين وتنشيطهم ولكنهم سدُّوا آذانهم دون سماعهِ ولم يحفلوا بكلامهِ لان

صغر النفس وشدّة العبودية وفرط الضيق كل هذا أناخ عليهم مشدِدًا الوطأة ساحقًا نفوسهم تحت اثقال اليأس غير مبقٍ لهم على رجاء . حتى ان كثيرين منهم رمقوهُ بعين البغضاء . وحسبوهُ علة هذا الشقاء

وقد مضى على ذلك شهر كامل كنت في اثنائهِ أشاهد موسى مطوّفًا في جاسان . عاملاً على تشجيع اخوتهِ وتنشيطهم وحثهم على الصبر والثقة والايمان . وانقطع فرعون لممارسة فرائض دينية خارقة العادة . ومباشرة جميع طقوس السجود والعبادة وذلك اما لتحقيرهِ اله اسرائيل او لخوفهِ منهُ

فانهُ بعد خروج موسى وهرون من لدنهُ بسبعة ايام ذهب في موكبهِ الى هيكل الحية المقدسة اورابوس واصعد ذبائح وقرابين الى تمثالها الذهبي مخاطبًا اياها كاله الحكمة والحذق وفي اليوم التالي خرج في موكبهِ الى النيل مقابل جزيرة الروضة حيث تمثال الاله نيلوس النحاسي بين تمثالي اوسيرس وثوث ونزل من مركبتهِ وتقدّم الى النهر وسكب من كأس مرصعة بالماس سكيبة خمر لامواجهِ وابتهل الى النهر ذاتهِ كاله خاتمًا صلاتهُ باللعنة على اله العبرانيين ثم دنا منهُ باشارتهِ رئيس الذابحين يقود صبيًا عبرانيًا ابن اربع سنين فوضعهُ على المذبح امام تمثال الذهب وذبحهُ ثم سكب دمهُ تقدمة سكيبة الى النهر وطُرِحت جثتهُ في المياه

وفي اليوم التالي ذهب فرعون الى هيكل الضفادع المقدّسة على تخوم قناة امون حيث سُكبت السكائب امام تمثال هائل له رأس ضفدع وقدّمت القرابين . والضفدع معدودة مقدسة عند المصريين لانها حسب زعمهم تطهّر المياه باغتذائها المواد السامّة فيها

ثم زار هيكل الخنفساء المقدسة المؤلّهة عندهم لانها في زعمهم تحمي الهياكل من النمل والبراغيث ومنهُ الى هيكل بعل زبوب وهو اله عندهم معدود حاميًا لهم من الذبان التي تغشي الارض بعض الاحيان اثوالاً او اسرابًا لا تحصى ولا يقدر على ازالتها (في زعمهم) غير هذا الاله . ثم ذهب الى هيكل منفيس الثور المقدس في اون فذبح وصلّى وسكب وقرّب مصحوبًا بالف كاهن لابسين افخر الحلل وجميعهم حاملون مباخر ذهبية فابتهل الى هذا الاله ملتمسًا منهُ وقاية لكل مواشي مصر وخصبًا لمزروعاتها ثم شهّر اله اسرائيل بانهُ اله غير معروف في مصر ولا مخشيّ عند سكانها وانهُ على افتراض وجودهِ ليس الاّ اله عبيد .

ثم سار الى هيكل تيفون على تخوم البادية حيث قُرِّب لاله الشر عبدٌ نوبيٌّ أوثقوهُ واحرقوهُ حيًّا . ثم جمع الكهنة رمادهُ وذرّوهُ في الملاء داعين الى الههم طالبين منهُ الوقاية من الشر لكل موضع تحمل اليهِ الرياح ذرةً من هذا الرماد . وهكذا

ترى تُوثمبس أعاد الذبائح البشرية التي نسختها الملكة امنس وابطلتها

وبعد يومين عبر النيل في موكب حافل الى هيكل سيرابيس وغير خافٍ عليك يا والدي العزيز ان الاله ايس معدود عندهم على الخصوص حامياً من الجراد واياهُ يدعون عندما تنهال اسراب الجراد على مزروعاتهم . لكن فرعون هذه المرّة بعد ما سكب وقرّب لم يتوسّل ضدّ الجراد بل ضدّ اله موسى

أ فليس كل هذا دليلاً واضحاً على ان فرعون خائف من الله الذي يحتقرهُ ومع ذلك لايعرف شيئاً بعد عن قوتهِ ولا ريب في انهُ شعر في نفسهِ بان الخادم الذي تجاسر على المثول امامهُ على نحوٍ ما مثل موسى لا بدّ ان يكون لهُ سيدٌ عظيم وقوي . ولربما يكون سمع عن اعمال اله العبرانيين في الماضي - عن حلم الامير يوسف وسبع سني الجوع وانقلاب سدوم ومدنها بنار من السماء وتبلبل الالسنة في برج بابل والطوفان العظيم الذي غمر الجبال واغرق العالم لانهُ على جانب من العلم والمعرفة وحين ذكر هرون اله العبرانيين على مسمعهِ تذكَّرهُ وارتعد

وبعد ثلاثة ايام زار هيكل الالاهة ايبس وبعد ما سكب وقرّب صلَّى اليها طالباً منها - لانهـــا القمر ومدبرة الفصول والهواء - ان ترسل مطراً على جبال الحبشة حيث مصادر النيل

لكي لا ينقص الفيضان الذي اصبح قريباً عن عادتهِ ولا يقصر عن امداد البلاد باسباب الخصب والنماء

وبعد يومين زار هيكل اوسيرس العظيم (الشمس) وهناك بعدما قام نفسهُ كعظيم الكهنة بفرائض السكائب والقرابين والذبائح صلَّى طالباً الوقاية من الظلام والرعود والبروق والعواصف والانواء

وقد لقيت هرون اليوم فقال لي انهُ وموسى اخاهُ عازمان على مقابلة فرعون غداً وطلب اطلاق العبرانيين ولسوف اكون غداً في القصر لاشاهد كل ما يحدث واكتب بهِ اليك

ابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة التاسعة

من رعمسيس دمشق الى سيسوستريس

مدينة اون

ابي العزيز

بينما كان فرعون مجتمعاً في قصرهِ في مدينة ممفيس بولاة المقاطعات يلقي اليهم الاوامر والاحكام اعلن لهُ ناظر الحجاب قدوم موسى وهرون وكنت حينئذٍ جالساً بجانب وليّ عهدهِ لاني علمت ان رجلَي الله عازمان على الاتيان الى الملك فاستشاط الملك غيظاً وانتهر ناظر حجابهِ قائلاً

"كيف تجاسرت على اعلان قدوم هذين العبرانيين"

"لم اقدر ان امنعهما ايها الملك فنكصت امامهما بدون ان اقوى على ردعهما مأخوذاً بجلال هيبتهما وها هما قادمان"

فامتقع وجه فرعون وحاول ان يصدر أمرًا مشدّدًا بخصوصهما الى مَن هم حوله فلم يطاوعهُ لسانهُ واذ ادرك ذلك ابنهُ الامير اميونوفيس صرخ باعلى صوتهِ

"مَن لي باعدام هذين الرجلين"

فلم يبدِ أحدٌ من الحضور حراكًا لان الخشية والرعدة سادتا على سائر العواطف وتقدم ذانك الاخوان ماشيين احدهما بجانب الآخر رابطَي الجاش ثابتَي الجنان حتى وقفا امام الملك وحوّما بطائر النظر عليهِ . ووجّها التفاتهما اليهِ فصرخ فرعون بصوت اجشّ متهدّج

"لماذا جئتما الآن وهل عنوت عنكما حتى تعودا وتسخرا بي في قصري"

فاجابهُ موسى وعليهِ من الابهة والجلال اضعاف ما على ملك مصر

"قد اتينا ايها الملك باسم اله العبرانيين . فانهُ قد سمع صراخهم من كل ارض مصر من اجل مسخّريهم وقد أُرسلت لآمرك باسمهِ ان تخرج بني اسرائيل من ارضك"

"أَوَ عارفٌ انا بالهك . ما هي قوتهُ ليعلن نفسهُ أَو ما هي بيّنات ارسالهِ اياك اليّ فلا اكترث لمفتراه من الله او من انسان . ما لم يروني انهم مرسلون ببالغ الحجة ودامغ البرهان . فان كنت مرسَلًا من لدن ملكٍ فأرني رسالةً او وصايةً . او من

لدن الله فارني عجيبة او آية"

"وكلم الرب موسى وهرون قائلاً . اذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبةً تقول لهرون خذ عصاك واطرحها امام فرعون فتصير ثعبانًا . فدخل موسى وهرون الى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب . طرح هرون عصاهُ امام فرعون وامام عبيدهِ فصارت ثعبانًا . فدعا فرعون ايضًا الحكماء والسحرة . ففعل عرّافو مصر ايضًا بسحرهم كذلك . طرحوا كل واحد عصاهُ فصارت العصي ثعابين . ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم . فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب"

فأخذ هرون عصا موسى بيدهِ والقاها الى الارض فصارت حية تسعى والنار تسطع من عينيها وهرب خدام الملك من امامها وارتعد فرعون في بادئ الامر لكنهُ اذ لم يشاهد منها ضررًا ولا اذى قال بلهجة الازدراء والتهكم

"ان التغرب في مديان افادك شيئًا كثيرًا يا موسى من الذكاء والدهاء هلموا ادعوا لي السحرة فأُريهُ انهم قادرون على مجاراتهِ في هذا الامر"

ثم جيء بساحرين ماهرين كلٌّ منهما حاملٌ عصًا من السنط وكانا جامبرس وجنّس من سحرة مصر المشهورين في كل الارض فوقفا بهيئة تدل على انهما فوق باقي المصريين الذين يدنون امام الملك بخشية واحترام وجثوا على الارض فقال فرعون مخاطبًا

جامبرس

"ألا تنظر هذه الحية انها من نحو نصف ساعة كانت عصاً في يد هذا الساحر العبراني فأرني آية مثلها تدل على ان لنا آلهة يستطيع خدامها ان يصنعوا عجائب مثل هذه"

فخاطبه الساحران كلاهما قائلين

"عش الى الابد ايها الملك حبيب الشمس وانظر قوة ساحريك"

ثم طرحا عصويهما الى الارض فصارتا حيتين ايضاً فقال فرعون لموسى وهرون

"انكما لستما سوى خادعين منافقين وقد صنعتما عجيبتكما بقوة آلهة مصر نظير هذين الساحرين"

فقال هرون برصانة وحزم

"ان كانت آلهة مصر اقوى من الهنا فلتبتلع هاتان الحيتان حيّتي ولكن اذا كان الهنا — اله العبرانيين الاقوى والاعظم فلتبتلع حيّتي حيتيهما"

فقال فرعون "ليكن كذلك"

وفي طرفة عين انسابت حية موسى وانقضت على حيّتي الساحرين وابتلعتهما فعمّ الصراخ وارتفع الضجيج وذُعر فرعون وتحفّز للنهوض عن العرش واذا بهرون أمسك الحية فعادت عصاً كما كانت قبلاً . اما الملك فعوضاً عن اعترافه باله موسى

احتدم غيظاً على ساحرَيهِ وطردهما من حضرتهِ وامر موسى وهرون بالانصراف قائلاً انهما ليسا سوى ساحرين أمهر من سحرتهِ وانهُ ينبغي لهما ان يرياهُ علامات اعظم من هذه قبل ان يسمح باطلاق اسرائيل وقد علمت بعد ذلك ان ذينك الساحرَين احضرا معهما حيتين حقيقيتين وخبآهما في كميهما ودخلا بهما بدون ان يمكن اكتشاف خداعهما لانهما وقفا في مكان يحجبهما عن الانظار وهكذا فعلا ما فعلا ولكن ابتلاع حية موسى لهما وعودها عصاً يكفي لاقناع فرعون بأن هذه عجيبة وليست سحراً. على ان قلبهُ تقسى فلم تفعل بهِ شيئاً هذه المؤثرات

وفي التالي أُخبر فرعون من قبل ناظر فيضان النيل ان النهر ابتدأ يفيض فخرج حسب العادة الى حيث تمثال الاله نيلوس في المكان الذي قرّب فيهِ الولد العبراني ذبيحة وسكب دمهُ على الماء. وفيما هو عازم على مباشرة الاحتفال بموسم الفيضان اذا بموسى وهرون وقفا امامهُ على شاطئ النهر وبيد هرون العصا التي صارت حية وصرخ موسى باعلى صوتهِ

"الرب اله العبرانيين ارسلني اليك قائلاً اطلق شعبي وهوذا حتى الآن لم تسمع. هكذا يقول الرب — بهذا تعرف اني انا الرب ها انا ايها الملك مزمع ان اضرب بأمرهِ بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فيتحوّل دماً"

فاجابهُ الملك بحنق وغيظ

"اني احتقرك انت والملك وموتاً تموت انت واخوك"

وحينئذٍ التفت موسى الى اخيهِ هرون وقال لهُ على مسمعي ومسمع الملك وكل شعبهِ

"خذ هذه عصا الله ومدّ يدك على مياه مصر فيكون دمٌ في كل ارض مصر في الاخشاب وفي الاحجار"

فمدّ هرون يدهُ وضرب الماء الذي في النهر امام عيني فرعون وعيون الوف من المصريين الحاضرين فتحوّل النهر الى نهر دم ومات السمك الذي فيهِ وامتلأ الهواء برائحة الدم وتصاعد صراخ الشعب من كل ناحية وركب الملك مركبتهُ وفرّ هارباً من وجه موسى وهرون وعمّ الخوف وساد الانذعار ولما رجعت في مركبتي رأيت في طريقي جميع السواقي والبرك وكل مجتمعات المياه صارت دماً وهكذا كانت مياه العيون التي في قصر الملك ومياه الجرار والاباريق وآنية الترشيح كلها تحوّلت دماً. فقلت في نفسي حقًّا ان الملك يطلق الآن اسرائيل ثم خرجت بعد الظهر فرأيت المصريين يحفرون حوالي النهر لاجل ماء. ثم سرت في مركبتي نحو جاسان ولما بلغت تلك الارض الخصيبة الجميلة حيث سكن يعقوب قديماً وحيث يسكن الآن من الاسرائيليين مئات الوف شاهدت بعين الاندهاش والابتهاج ان جميع المياه هنالك لم يخالطها شيءٌ من الدم بل هي سليمة من هذه الضربة تترقرق بمزيد الصفاء والصحة وهذه كانت عجيبة

مضاعفة . ولما رأى فرعون انه يمكن الحصول على الماء بواسطة حفر آبار غير عميقة وان ارض جاسان غير مصابة بهذه الضربة استدعى جامبرس وجنس ووعدهما بانه يعفو عنهما اذا استطاعا ان يحوّلا الماء دمًا . فباشرا التعزيم على ماء من آبار محفورة في جنانهِ (لان العجيبة تناولت كل المياه التي كانت في ذلك الوقت على سطح الارض سواء كانت في النهر ام في البيوت) . وبعد ما جرّبا مدّة ليست بطويلة حوّلا الماء الى دم فصرخ فرعون فرحًا

" انظر ان خدّام فرعون مساويان لخادمَي اله العبرانيين "

فقال له جامبرس متباهيًا

" ولو ترك لنا المشعوذ العبراني ماء النهر لكنا ايها الملك حوّلناهُ كلهُ بقوتنا "

فأجازهُ بسلسلة من ذهب وقسّى قلبهُ واحتقر موسى والههُ ولكن بعد ثلاثة ايام مات كل السمك في البحيرات ونهر مصر السفلى وتصاعد عنها وعن التماسيح والحشرات التي هلكت في النهر الدموي نتنٌ جعل السكن في مصر متعذرًا فهرب الوف الى جاسان حيث كنت انا باقيًا . وبعد سبعة ايام عاد النهر وكل مياه مصر الى ما كانت عليهِ سابقًا باذن الله لئلاَّ يذهب كل سكان مصر ضحايا قساوة قلب فرعون

ثم ظهر الله ايضاً لموسى وامرهُ ان يدخل الى فرعون ويكلمهُ بنفس الكلام السابق فذهب واخوهُ هرون معهُ لكنَّ الملك حمي غضبهُ عليهما وامرهما ان يخرجا خارجاً. فمدَّ هرون يدهُ على النهر والمجاري والقنوات والبحيرات والينابيع وفي الحال صعدت الضفادع على الشواطئ وفي الحقول والشوارع والساحات والازقة والسطوح والبساتين والآجام والهياكل ودخلت مئاتٍ والوفاً الى البيوت والمنازل والقصور والمخادع وعلى الاسرَّة والموائد والكراسي والتنانير والمعاجن وغشيت كل مكان وغطت كل الارض فاغلق الكهنة كل الهياكل حتى لا تدخلها وتموت فتنجّسها واغلق فرعون على نفسهِ في قصرهِ لينجو من نجاستها.

وفيما هو عازم ان يستدعي موسى اذا بجامبرس رئيس السحرة والعرّافين وقف امامهُ وقال

"لا تصدّق ايها الملك ان اله هذا العبراني اعظم من آلهة مصر فنحن عبيدك ايضاً قادرون على صنع هذه العجيبة"

فاجابهُ الملك

"افعلوا هكذا فيكون لك عصاً من ذهب"

فنزل هذا الساحر الى ينبوع مسيج بجدار عالٍ في القصر حيث لم تصعد الضفادع بعد واصعدها بسحرهِ. وقد قال لي رئيس السقاة الذي قصَّ عليَّ هذا الخبر "ان الملك سرَّ في بادئ الامر سروراً لا مزيد عليهِ لكنهُ ما عتم ان قال لهذا

الساحر ما صنعتهٔ بسحرك أزلهُ بسحرك ايضاً واجعل الضفادع تنقطع من الينبوع فلم يستطع الساحران الى ذلك سبيلاً واصبحت كل منازل مصر في اليوم التالي غاصّة بالضفادع حتى تعذَّر على الناس السكن فيها وجاء سادة مصر واعيانها الى فرعون فارسل ودعا موسى وهرون فلما وقفا في حضرتهِ قال لهما بلسان الاستعطاف والاستياء

"صليا الى الرب الهكما ليرفع ضربة الضفادع عني وعن شعبي وعن ارض مصر فاعترف بقوة اله العبرانيين واطلق الشعب ليذبحوا للرب"

فاجابهُ موسى

"عيّن لي ايها الملك متى اصلّي لئلاَّ تقول اني اخترت وقتاً مناسباً بواسطة استشارة النجوم. فانت عيّن وقت الصلاة لاجلك ولاجل شعبك لتقطع الضفادع عن الارض والشعب"

فقال الملك "غداً"

فقال موسى "ليكن كقولك وحين ترى ان الضربة زالت تعلم انها بقوة الله لا بسحرنا فغداً ترتفع الضفادع عنك وعن كل ارض مصر ولكنها تبقى في النهر"

لكن اي منظر ظهر في مصر في الصباح التالي كل الارض اصبحت مغطاة بالضفادع الميتة فقضى كل شعب مصر ذلك النهار والليل في جمعها وطرحها الى النهر. ولما رأى فرعون انهُ

قد حصل الفرج في الوقت المعيَّن قال
"هذا حصل بصوتي وقوتي لا بقوة اله العبرانيين" وهكذا قسّى قلبهُ واوعز الى المسخَّرين ان يزيدوا اثقال العبرانيين ولم يُنجز وعدهُ لموسى وهرون

فارسلهما الرب الى فرعون وامامهُ مدَّ هرون عصاهُ وضرب تراب الارض فصار كل تراب الارض ذا حياة وسقط على الناس والبهائم بعوضاً

فدعا فرعون ساحرَيهِ لكنهما لم يقدرا على صنع هذه الاعجوبة وصرَّحا له قائلين "هذا اصبع الله وهو فوق طورنا"

وعند ما سمع هذا طردهما وموسى وهرون من قصرهِ وفي اليوم التالي لم تُفتح الهياكل ولا قُدِّمت ذبائح في كل ارض مصر لان البعوض كان على الكهنة ولم يستطيعوا ان يكهنوا متنجسين فاغتاظ المصريون جدًّا من فرعون لكنهُ اغلق على نفسهِ في قصرهِ وابى ان يجيب طلب موسى

وبعد ثلاثة ايام لاقى موسى وهرون فرعون عند النهر وهو صاعد الى سفينتهِ فاعادا عليهِ الطلب السابق وقال موسى "قال لي الرب قف امام فرعون عند خروجهِ الى الماء وقل لهُ هكذا قال الرب اطلق شعبي والَّا فاني أُرسل عليك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبّان فتمتلئ بيوت المصريين والارض التي هم عليها ذبّانًا. ولكن أُميِّز في ذلك اليوم ارض

جاسان حيث شعبي مقيم حتى لايكون هناك ذبان لكي تعلم اني انا الرب في الارض واجعل فرقاً بين شعبي وشعبك غداً تكون هذه الآية "

فامر فرعون بلسان الغيظ والخوف ان تقلع سفينته من الشاطئ غير مكترث لكلام موسى . وفي اليوم التالي استيقظت واذا بي أرى الهواء مظلماً بسحب الذبان واطبقت على المدينة من كل ناحية وتعالى صوت طنينها كعجيج بحر غب النوء ولما اشرقت الشمس وارتفعت انقضت اسراب الذبان على المساكن والسكان. وملأت البيوت والمنازل والقصور والهياكل ودخلت كل مكان. وتزاحمت محوّمة على كل انسان حتى سكنت حركة الاعمال واصبح الاكل والنوم متعذري الامكان . واذ ذاك ركبت مركبتي وفررت هارباً الى ارض جاسان وفي طريقي صادفت كثيرين رجالاً ونساء واولاداً هاربين مثلي واذ دخلنا ارض العبرانيين لم تصحبنا قط ذبانة اليها ولم نرَ فيها شيئاً من آثار هذه الضربة الهائلة. واذ لم يعد فرعون قادراً على احتمال هذه الضربة دعا موسى وهرون في اليوم التالي وقال لهما صارخاً حين مثلا امامه

" اذهبوا اذبحوا لالهكم في هذه الارض لانه اله قدير لا يهزأ به "

فاجابه موسى

"لا يصلح ان نفعل هكذا ايها الملك ان نذبح لالهنا في ارض

مصر لاننا نحن العبرانيين نذبح ثيرانًا وكباشًا ذبائح رجسة عند المصريين لانهم يدعونها آلهتهم فان ذبحنا آلهة المصريين لالهنا امام عيونهم أَفلا يرجموننا اننا نذهب سفر ثلاثة ايام في البرية ونذبح للرب الهنا كما يقول لنا"

فأُكرِه فرعون على اجابة الطلب قائلاً

"ولكن لا تذهبوا بعيدًا اذهبا الان وصليا الى الرب لاجلي ليرفع عني هذه الضربة الهائلة" وكانت اسراب الذبَّان في اثناء حديثهِ معهما محوّمة عليهِ متزاحمة اليهِ. على رغم مساعي حَمَلَة المراوح القائمين لديهِ فاجابهُ موسى وهو خارجٌ

"غدًا يرفع الرب الذي أُصلّي اليهِ لاجلك هذه الضربة ولكن لا تَعُد تخاتل ايها الملك حتى لا تطلق الشعب"

وفي اليوم التالي لما رأى فرعون ان قد ارتفع الذبان ولم تبقَ منهُ واحدة ندم على وعدهِ وعزم على اخلافهِ. فرجع الاخوان عبدا الله الى فرعون طالبين منهُ باسم الرب اطلاق بني يعقوب متهدِّدين بوباءٍ ثقيل ويل على كل المواشي على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم واذ كان الملك قد ازداد تصلبًا أَبى عليهما الطلب واخرجهما بغيظ وغضب. متوعدًا اياهما بالاعدام وشرّ الانتقام. وحقًّا يا ابي العزيز لولا عناية الله الحافظة لهما لكان أَعدمهما فرعون من زمان طويل

وفي الصباح التالي تفشّى وباءٌ ويلٌ فتك بثيران مصر

وعجولها وبقرها وامات كل مواشي الارض . وحين تراكض كهنة منفيس الثور المقدس من الهيكل الى القصر ناعين باعلى اصواتهم موت المهم بالوباء وأسرع ايضاً نصف الليل كهنة ايس الى فرعون ينعون ويبكون رأى ان اله العبرانيين اعظم من آلهة المصريين . ولما نهض باكرًا في الصباح وسمع انهُ لم يمُت واحدٌ من مواشي بني اسرائيل اشتعل غيظهُ وعوضاً عن الندامة والخشية ازداد قلبهُ غلاظة وقساوة

فتأمل يا ابي في صبر اله العبرانيين وطول اناتهِ على مَن لا يزال مصلبًا قلبهُ ومتمرّدًا عليهِ . وتأمل في ثبات عزم موسى وهرون — وبسالتهما وشدَّة حزمهما وكيف انهما وهما اثنان منفردان تغلّبا بقوة الههما على أقوى ملوك الارض

ثم امر الله موسى ان يأْخذ من رماد ذبيحة بشرية قدَّمها فرعون ويذريهِ نحو السماء ففعل وعوضاً عن حماية ذرايها للاماكن الساقطة عليها صارت كلها دمامل طالعة في الناس والبهائم ببثور مؤلمة وحاول السحرة ان يفعلوا كذلك فلم يستطيعوا لان الدمامل طلعت فيهم ايضاً حتى لم يعودوا قادرين على الوقوف امام موسى فولّوا مدبرين مذعورين . ومع ذلك زاد فرعون غلاظة وتمادى في القساوة لان الدمامل لم تمسَّ جسدهُ

ثم بكَّر موسى وهرون في الصباح حسب امر الله ووقفا امام فرعون وهو يتمشّى مضطربًا مسلوبًا راحة الفكر من جرّاء

الدمامل التي لم يسلم احدٌ من مكابدة آلامها في كل ارضهِ ما عدا سكان جاسان . فلما ابصرهما ناداهما صارخًا

" ماذا تريدان يا مكدِّرَي مصر وعدوَّي الآلهة "

فاجابهُ موسى

" هكذا يقول الرب اله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني "

فاذًا نفس الكلام السابق فلن تنالا سؤْلكما . من هو الرب أليس مَن يريحني من موسى وهرون . ويجرعهما كأْس المنون . ولهُ جزاءٌ عظيم واجرٌ غير ممنون تكلما ماذا تريدان غير ذلك "

" هكذا يقول الرب ان كنت لا تطلق اسرائيل ارسل جميع ضرباتي الى قلبك وعلى شعبك لكي تعرف ان ليس مثلي في كل الارض . فانهُ الآن لو كنت أمد يدي واضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الارض ولكن لاجل هذا اقمتك لكي أُريك قوتي ولكي يُخبَر باسمي في كل الارض انت معاندٌ بعد لشعبي حتى لا تطلقهُ . ها انا غدًا مثل الآن امطر بَرَدًا عظيمًا جدًّا فيميت جميع الناس والبهائم فأرسل احمِ مواشيك وكل ما لك في الحقل "

وبعد بضع ساعات أُعلن هذا الاخطار في كل مكان فالذين خافوا كلمة الرب حمَوا مواشيهم وكل ما لهم في بيوت أُعدَّت لها والذين لم يعتدُّوا بهذا الاخطار تركوها في الحقل . فاذا يجيء يو الغد

وعملًا بانذار هرون هربت في الحال الى ارض جاسان

ابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة العاشرة

من رعمسيس دمشق الى سيسوسترس

مدينة الشمس

بعد ما علوت مركبتي وخرجت احثّ المسير الى ارض جاسان بلغت عين يعقوب فرأيت موسى وهرون واقفين على اطلال برجها فوثبت منها نازلًا وسلمتها للخدام وحضضتهم على الاسراع بها الى ارض العبرانيين وتقدمت نحو رجلَي الله شاعرًا بل محققًا اني في قربها اكون في امن من غوائل الضربة العتيدة ووقفت غير بعيد عنها ونظرت متوقعًا ما عندّ ان يكون .
فوقف موسى مادًا عصاهُ يديرها شرقًا وشمالًا وغربًا وهو رافع

عينيهِ نحو السماء وينطق بهذه الكلمات التي سمعت منها ما يأتي

"وليسقط عليكِ يا مصر من السماء من عند الله بَرَدٌ ونار يضربان كل ارضكِ كل ما في الحقل الناس والبهائم وكل عشب الحقل وكل شجرة ولتميَّز ارض جاسان فلا يكون فيها بَرَدٌ"

وان اللغة يا والدي العزيز لأقصرُ من ان تعبّر عن القوة والسيادة اللتين نطق بهما هذا الرجل العظيم ولما فرغ من كلامهِ صرخ هرون بصوت جهير "آمين"

فرفعت نظري نحو ارض مصر التي اخذت الرعود تدوي فوقها بدون سحاب واذا بعمود ظلام كثيف هبَّ من الشمال من البحر العظيم واندفع منقضاً بسرعة ودوي كدويّ عشرة آلاف مركبة حربية خارجة الى الحرب . واومضت منهُ بروق خاطفة ورعود قاصفة وهو آخذٌ في الامتداد وقد قيل لي ان فرعون كان مشاهداً لهُ من اعالي قصرهِ . ثم تحجَّبت الشمس عن الابصار . وتوارت مدينة اون عن الانظار . ورأيت ذلك العمود السمائي المخيف يرمي الارض بسهام النار . وسمعت صوت تساقط البرَد كعجيج البحار . يوردُ مصر وما عليها كؤوس البوار . والناس من كل فجّ هاربون نحو ارض جاسان بملء الخوف والاندعار

أخيرًا تكاثف الظلام حتى أصبح اشبه بسور فاصل بين مصر وارض جاسان من الارض الى السحاب وظلّت هذه

الارض الاخيرة ناعمة بضياء الشمس آمنة ضربة النار والبرد .
وكل ما فيها رائعٌ بظلال الدعة والطمأنينة غير خاشٍ سوءًا
ولاخائف أذًى . فما اعظم اقتدار الله وما أسعد من يتقيهِ ويخشاهُ

وقد علمت بالامس من رجلهِ موسى الذي جلست عند
قدميهِ مصغيًا الى كلامهِ في شأن هذه العجائب والآيات الشاهدة
على قوة الله والناطقة بجلال مجد رب الارض والسماوات انهُ
سبحانهُ قاصدٌ بها ثلاثة امور ذات شأن . اولاً ليبرهن
للاسرائيليين الاذلاَّء المنكسري القلوب انهُ هو المخوف في القدرة
والصانع العجائب المهم كما كان اله ابرهيم وقادرٌ ان ينقذهم من
يد فرعون وليعلمهم بأنهُ كما عاقب المصريين يعاقبهم ايضًا ان
عصوا وعملوا الشرّ . وثانيًا ليعاقب فرعون على ظلمهِ لشعبهِ
تعالى وبذل الارض التي قاسوا فيها الضيق الشديد اجيالا
طويلة ويُرِي المصريين انهُ وحدهُ الله وان آلهتهم قشٌ في يدهِ .
وثالثًا لكي ينتشر نبأُ اعمالهِ القديرة وعجائبهِ المصنوعة في مصر
الى كل الارض ويبلغ مسامع الملوك والامراء والكهنة والعظماء
وكل امة تحت السماء . معلنة لهم معرفة الاله الحي وبطل
معبوداتهم الوثنية وسيادة اله العبرانيين المطلقة على الارض
والسماء والملوك والشعوب . وزاد على هذا موسى قولهُ " ولذلك
قال لي الرب الاله حين ارسلني ولكنني اعلم ان ملك مصر
لايدعكم تمضون ولا بيدٍ قوية فامد يدي واضرب مصر بكل

عجائبي التي اصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم"

فما اعجب هذه الاسرار والغوامض يا ابي وما اعظم اقتدار هذا الاله وما اعجب وامجد جلالهُ وما هو الانسان امامهُ وفي حضرتهِ سوى تراب وغبار اني أُذلِّل نفسي قدامهُ واشعر باني دودة وما انا بانسانٍ ومع ذلك ترى ثوغمسيس كانسان مجنون يحتقر الاله الحيّ

ولم يحملهُ هول ضربة البرد والنار والبروق والرعود على اطلاق اسرائيل . بل بعد ما اشتد خطب البلاء على جميع الناس ولم يعد يمكنهُ ان يغمض عينيهِ عن رؤْية الويل والشقاء . ولا ان يسدّ أُذنيهِ دون صراخ شعبهِ الصاعد الى السماء . ارسل في اليوم الثالث وراء موسى وهرون ولولا اسرائيليسيس خادمك السابق (الذي بعد ما رجع الى مصر استخدم في البلاط ومنهُ كنت استمدّ اكثر الاخبار) لِما استطاع فرعون ان يجد الى استدعاء هذين الاخوين سبيلاً . لانهُ ارسل قبل هذا ثلاثة رسل واحداً بعد الآخر وذهبوا فرائس البرَد والنار واما ذلك العبراني فذهب آمناً مطمئناً غير مصاب باذى . وهذا في الحقيقة كافٍ لاعلان قوة الله

ولما جاء موسى وهرون ووقفا امام الملك قال لهما

"كفى يا رجلي الله كنى صليًا الى الله من اجلي ليرفع الرعود والبرَد فاطلقكم في الحال بلا امهال"

فاجابهُ موسى

" عند خروجي من المدينة ابسط يديَّ الى الرب فتنقطع الرعود ولايكون بَرَدٌ ايضاً لكي تعرف ان للرب الارض . واما انت وعبيدك ايها الملك فانا اعلم انكم لم تخشوا بعد من الرب الاله . أوَماهزئ بقوة إلهكم اسيس التي تزعمون انها متسلطة على السماوات والفصول والرياح مَن رأى قبل الان مطراً وبَرَداً في مصر في هذا الشهر أو من رأى الرياح تسوق سحاباً من البحر فالله هو الله واسيس ليست شيئاً مذكوراً والاَّ فاين قوتها

فاجابهُ فرعون بذلّ وضجر وكدر

" الله هو الله فتشفع فيَّ عندهُ "

وعند خروج موسى من مدينة اون بسط يديهِ نحو السماء الى الله فانقطع الرعد والمطر ولم يبقَ للبَرَد والبروق أثر

ولا تَسَل عما شاهدتهُ في طريقي (في اليوم التالي حينما رجعت الى مدينة اون) من مظاهر الخراب والدمار . ومناظر الهلاك والبوار فحقول الكتان والشعير . مضروبة ضربة منقطعة النظير . والاشجار متكسرة الاغصان مستأصلة الفروع والاصول . وجثث الموتى مالئة السهول والحقول . والمواشي والخيول التي كانت قد أمنت الضربة السابقة او ابتيعت من العبرانيين مطروحة هنا وهناك رهينة في ورعاتها واصحابها بيد الموت

والهلاك . والمركبات التي استخدمت عند استحواذ الضربة للهرب والنجاة . مطروحة هي وخيولها وفرسانها في الطرق والشوارع جثثاً عادمة الحياة . وهكذا ترى الموت سائداً عاماً . والخراب مستولياً طاماً

ولما دخلت المدينة رأيت العساكر ساقطين في مواقفهم وقد اودى بهم البرد والنار . والشوارع فيها من مشاهد الموتى والجرحى ومناظر الويل والشقاء ما يدهش الافكار ويذهب بالبصائر والابصار

ولما جئت قصر فرعون وجدته ورجال بلاطه في وليمة عظيمة لانهم بالجهد ذاقوا طعاماً مدة ثلاثة ايام وثلاث ليال . فجلسوا الآن لمناولة الطعام ورشف المدام وقد شاهدت وجه الملك يتقد بجمرة المسكر لانه انتهز هذه الفرصة للامن والطمأنينة فحاول ان ينسى فيها المخاوف السالفة والمكاره الغابرة وعند دخولي كان مغنوه ينشدون نشيداً لآلهته ولما فرغوا أخذ فرعون الكأس بيده ولعن الله العبرانيين

فاجتزت هذه القاعة وابيت ان ادخلها واذا بموسى وهرون قد مرّا بي داخلين الى الملك فلما نظرهما تقسّى قلبه عليهما وعلى الههما ونهض هو ورجاله على قدم الرهب والغضب وزعق بأعلى صوته معربداً

" اراكما قد دخلتما اليّ ايضاً ايها العبرانيان فلا أطاق

اسرائيل ولا يخطون من الارض قدم انسان. ولا حافر حيوان.
وحياة فرعون وحقّ آلهة مصر"

فاجابهُ موسى

"هكذا يقول الرب اله العبرانيين اطلق شعبي ليعبدوني
الى متى تأبى ان تخضع لي اطلق شعبي والاَّ فاني اجيء غدًا
بجراد على تخومك فيغطي وجه الارض ويأكل ما بقي في الحقل
ويملأُ بيوتك وبيوت جميع المصريين الامر الذي لم يُرَ على الارض
الى هذا اليوم"

فقال فرعون هازئًا

"رأينا قبل الآن ايها العبراني جرادًا في مصر فلا مخافة.
اذهب قل لالهك ان فرعون وآلهته يسخرون بك وبجرادك"

فخرج موسى من لدن فرعون لكنّ اهل بلاطهِ خافوا
وخاطبوهُ قائلين

"الى متى يكون هذا الرجل لنا فخًا منصوبًا. ولبلادنا شرًا
مرهوبًا. اطلق العبرانيين ليعبدوا الههم رب الارض والسماء.
ويريحونا من كل هذا البلاء. أَوَ لست تعلم ايها الملك ان مصر
صارت الى الدمار والخراب. واذا اصابها الجراد يجرّعها من
الدمار والتلف أمرّ صاب"

فأمر حينئذٍ بارجاع موسى وهرون اللذين لم يكونا بعد
قد بلغا بوابة القصر ولما وقفا امامهُ قال

" الى اكراماً لمولاء السادة ولاجل مصر التي كدتما تخربانها بسحركما لا خوفاً من المكما أُجيب طلبكما . فاذهبوا اعبدوا الرب المكم . ولكن مَن ومَن هم الذين يذهبون "

فاجابهُ موسى بلسان الجسارة وعدم الخلاف

" نذهب بفتياننا وشيوخنا وبنينا وبناتنا بغنمنا وبقرنا لان لنا عيداً للرب يجب ان نذهب ونذبح فيهِ لالهنا "

فقال فرعون مغتاظاً

" لينظر الرب اليكم لا اني لاجل ذبائحهِ فلا أُطلقكم هكذا لتعيّدوا لهُ انظروا لا تهيجوا غضبي لان قدام وجوهكم شراً فلا تطلبوا ان تذهبوا هكذا اذهبوا انتم الرجال واعبدوا الرب لانكم لهذا طالبون ماذا أَترومان ان تسألا شيئاً آخر اطردوهما خارج القصر "

فحاول الحرس ان يلبوا امر الملك لكنهم ما لبثوا بعد ما خطوا بضع خطوات ان وقفوا وقد اخذتهم خشية ورعدة من منظر ذينك الاخوين اللذين خرجا من القصر وبرحا المدينة وانا معهما ولما بلغنا الارباض مدَّ موسى يدهُ بعصاهُ على الارض نحو الشرق فجلب الرب عليها ريحاً شرقية شديدة هبّت كل ذلك النهار والليل وهي آخذة كل ساعة في الازدياد والاشتداد وفي الصباح اذ استيقظت على ضجيج الشعب وصراخهم تطلّعت فاذا السماء مظلمة بشيء غريب ليس هو سحابة ولا ضباباً لكنهُ

ينشئ مسرعاً كالسحاب . او كبحر عظيم متلاطم الامواج متزايد الاضطراب . وفي اقترابهِ من جهة البحر الاحمر صحبهُ طنين مختلط اشبه شيء بهبوب الريح وتعرّضها لاعلى ارز لبنان . وما عتّم ان انبسط مغطيّاً نصف السماء متكاثفاً بعضهُ فوق بعض مئات اقدام وسطحهُ الاسفل غير بعيد عن الارض وفي الحال علمت من صراخ الذين حولي ان هذه ضربة الجراد المجلوبة من الله على ارض مصر وكنت واقفاً في شباك في بيت هرون غير بعيد عن التخم الفاصل بين جاسان وباقي بلاد مصر فرأيت الجراد منهالاً انهيال الامطار على السهول والحقول والمدن والقرى حتى امتلأت الارض منهُ وتغطى كل وجهها بأثوالهِ وأسرابهِ واصدى الجوّ باصوات اجنحتهِ الحافّة . وجيوشهِ المتكاثفة . وفي اجتيازهِ فوق النيل سقطت منهُ كتائب على وجههِ فغشيتهُ وملأت الشواطئ والضفاف والسفن والقوارب وتجس الماء بهِ وقد ظلّ مع ما سقط منهُ في النهر والبر غاشياً وجه السماء حاجباً ضياء الشمس فاظلمت الارض وتعرّت بسببهِ من كل عشبٍ وثمر ونبات ولم يبقَ فيها شيءٌ اخضر على الاطلاق

وحينئذٍ تراكض الشعب الى قصر الملك وهم ينادون بالويل والثبور ومع شدّة خضوعهم المضروب بهِ المثل اضطرّوا مُحْرَجين الى الخروج عما سبق لهم من الطاعة والانقياد لان هذه الضربة أعمت أبصارهم واعدمتهم الهدى والرشاد . اذ لم يبقَ

امامهم سوى الموت جوعًا هم ونساؤهم واولادهم

وقد استولى الرعب على قلب فرعون ايضًا وهالته قوّة اله العبرانيين التي لا نهاية لها وكان منذ وقت طويل امر باعدام ساحريهِ جامبرس وجنّس لانهما قصرًا عن مجاراة موسى وهرون وعلم يقينًا ان هذه قوة الهٍ لا قبلَ له على مباراتها فأرسل يدعو اليهِ موسى وهرون بالعجلة ولما دخلا اليهِ وجداهُ مغلقًا على نفسهِ في غرفة منارة بسبعة مصابيح ذهبية غنمها اوسرتاسن من الملك نينوى لان الجراد جعل فتح الابواب والنوافذ والشبابيك مستحيلاً وغادر ضياء النهار ظلامًا دامسًا وكان فرعون ساعة دخولها مستلقيًا على متكاٍ مغشّى بارجوان من صور وعليهِ مطرّزٌ محكم الصنع ونساء قصرهِ محدقات بهِ يتوسلنَ اليهِ ان يطلق اسرائيل وكان ابنهُ وليُّ عهدهِ الامير اميونوفيس يشاركهنَّ في الالحاح عليهِ باجابة دعوة اله العبرانيين فلما أبصر موسى وهرون داخلين بابهُ وجلال الملوك نهض من متكاءِهِ وصرخ

"اني خطئتُ الى الرب الهكما واليكما . والآن اصفحا يا موسى وهرون عن خطيئتي هذه فقط وصليا الى الرب الهكما لكي يرفع عني هذا الموت فقط"

وظهر ان اعترافهُ هذه المرة كان باخلاص وتذلُّل فاجابهُ موسى

"ليغفر لك الرب حسب قلبك . واني سوف اصلّي الى

الرب ليرفع هذه الضربة عنك وعن شعبك"

فخرج موسى من لدن فرعون حتى جاء ارض جاسان وصعد الى برج عين يعقوب وصلّى الى الرب فردَّ ريحًا غربية شديدة جدًّا حملت كل الجراد وطرحتهُ الى بحر سوف ولم تبقَ منهُ جرادة واحدة في كل تخوم مصر

وحينئذٍ ارسل موسى سعاة الى كل ارض مصر يدعو بني اسرائيل ان يتركوا كل اعمالهم ويجتمعوا في ارض جاسان هم ونساؤهم واولادهم ومواشيهم وكل ما لهم وكان قد ارسل قبل الآن رجالاً الى مصر العليا والى المعادن . ومن العجيب ان العبرانيين العاملين في المعادن سمح لهم رؤساؤهم هنالك ان ينطلقوا لان خوف موسى بلغ مسامعهم فاطلقوهم بكل فرح والسعاة الذين ارسلهم موسى هذه المرة كانوا كلهم عبرانيين وقد ذهبوا الى كل مكان آمنين غير متعرّض لهم احد بشرّ بل كانوا منظورين في كل مكان بعين الخشية والاحترام كشعب اله موسى القدير واصبح السواد الاعظم من اهل مصر يكرمهم ويجلهم بعدما كانوا عرضة التحقير والاذلال . فسبحان مغيّر الاحوال

والآن يا ابي العزيز اراك متوقعًا الوقوف مني على نبإِ انجاز فرعون لوعدهِ واطلاقهِ بني اسرائيل من ارضهِ لكن ثوتمسيس الرابع رجلٌ ليس كباقي الرجال والارجح انهُ في اطوارهِ الغريبة منقطع النظير بين كل الملوك والاقيال . وحقًّا اني لم ارَ ولم اسمع

برجل مثله جامع لاضداد الصفات ومتناقضات الخصال . فمع شدة تمسكهِ باذيال الخرافات . تراهُ منتهكًا لحرمة المقدسات . وهو مع كونهِ جبانًا رعديدًا . لا يرهب جانب الموت ولا يخشى وعيدًا ويحرص على البر باقسامهِ الى آلهتهِ من كل قلبهِ . ويخلف مواعيدهُ لشعبهِ ومع انهُ نحو أُسرتهِ وحاشيتهِ وذوي قرباهُ اشدّ حنوًا من النساء . تجدهُ نحو العبرانيين أضرى واقسى وحش تحت السماء . وهو خائن خئود . غادرٌ كنود . هازئٌ لئيم . وفي كل رذيلة ونقيصة شيطانٌ رجيم . يتكلم بلسانين . ويفكر بقلبين . فيعد ساعة الخوف والخطر . ويُخلف عند الأمن وانتفاء الحذر . يخاف اعداءهُ على حين يحتقرهم ويتملّقهم فيعذرهم . يرتعد فرقًا من القضاء عند اقبالهِ . وينكر مخافتهُ حين زوالهِ . يقتنع بالحق وهو عن العمل بهِ متناعسٌ متقاعس . ويعترف بقوة الله ويظلُّ مقاومًا يرفس مناخس . ولولا ذلك كانت الآية الاولى كافية لخروج العبرانيين من ارض مصر . واطلاقهم من الاسر . ولكن كيف كانت تُعلن قوة الله في كل البلاد وتشاهدها جميع سكان الارض بملء الخشية والارتعاد فالله العالم بكل شيء اختار ان يكون فرعون الخروج على هذا المثال من تضارب الطباع وتناقض الصفات والخصال . ليعلن بواسطة غلاظة قلبهِ وتصلّبهِ اسمهُ تعالى كاله السماء والارض ومالك العزّة والقدرة والمجد والجلال . وهكذا يكون فرعون هذا الطاغية متمّمًا بقساوتهِ

مقاصد الله العظيمة ومجداً اياهُ تعالى بصبرورته وسيلة لاعلان قدرتهِ وقوتهِ وهو مع ذلك كلهِ غير متبرّئ من شيء من شرورهِ وآثامهِ لانهُ متعمدٌ في كل شيء انكار قدرة الله ومعجزاتهِ . واحتقارهُ على رغم كل ما شاهدهُ من عجائبهِ وآياتهِ

ولهذا ترى فرعون يا والدي العزيز لم يتمّم وعدهُ هذه المرّة بل نسيَ (أو تناسى) كلامهُ مع موسى وهرون وارسل يقول لهما ان يتنحيا عن اخراج العبرانيين من مصر لان الارض تكاد تكون خربة فلا يطلقهم منها قبلما يستخدمهم في التعمير والاصلاح والترميم

فظهر الرب لموسى وهو واقف مع اخيهِ هرون في مكانهما المعهود على نبع يعقوب قائلاً

"مدّ يدك نحو السماء ليكون ظلام على ارض مصر حتى يلمس الظلام"

فاطاع موسى وصعد على برج يعقوب ومدّ يدهُ نحو السماء فاحمرّ الجوّ وغابت الشمس وأطبق على الارض ظلام كثيف يُدرَك باللمس . فانقطعت الاطيار عن التغريد والغناء . وارتفعت من المواشي أصوات الخوار والثغاء . ومن الناس صراخ الويل والشقاء . حتى بلغ مسامع العبرانيين في ارض جاسان . الذين كان عندهم النور ساطع الضياء باهر اللمعان . لان الشمس ظلّت مشرقة عليهم تنير مساكنهم وتمدّ بحرارتها حقولهم وسهولهم (التي

سلمت من كل الضربات السابقة) باسباب الخصب والنماء .
ومظاهر الجمال والبهاء

وقد فاجأ هذا الظلام المدلهمّ سكان مصر في الطرق والحقول وعلى النيل وفي الشوارع والهياكل والقصور وأطبق عليهم بدياجيرهِ الحالكة حيث هم فلم يعودوا قادرين ان يتبينوا كيف يسيرون تحت تلك الحنادس المحدقة بهم متكاثفة حتى كانوا يلمسونها . ومن وقت الى آخر كنا نسمع اصوات الخابطين التائهين مستغيثين يطلبون هدايةً من داخل تلك الدياجي المطبقة والعبرانيون يجيبونهم من خارجها بأعلى اصواتهم يدعونهم الى اتباع جهة الصوت ليجدوا نورًا وهدًى . وفي اثناء الظلام كان العبرانيون بايعاز من موسى يجمعون مواشيهم ويتأهبون للانطلاق ليذبحوا لالههم وغيرُ المختونين خُتِنوا

وفي اليوم الثالث أرسل فرعون رجلين عبرانيين من عندهِ يدعوا موسى اليهِ (لان العبرانيين فقط كانوا قادرين على المسير في هذا الظلام كما في النور) وفي الحال نهض موسى وهرون واخترقا حجاب الظلام الكثيف واتيا الى فرعون فلما ابصرهما قال
" اذهبوا اعبدوا الرب غير ان غنمكم وبقركم تبقى . اولادكم ايضًا تذهب معكم "

فاجابهُ موسى

" ينبغي ان تسمح ايها الملك بذهاب غنمنا و بقرنا معنا لكي

يكون لنا ذبائح ومحرقات نقدمها للرب الهنا فتذهب مواشينا ايضاً معنا لا يبقى ظلف"

فلما سمع فرعون كلام موسى على هذا الاسلوب من الجراءة والجسارة وغير منقص شيئاً مما طلبهُ من البداءة اتقدت فيهِ نار الغضب كل الاتقاد . واعدمهُ الحنق الصواب والرشاد . فرمى الاخوين بصولجانهِ . وصرخ والغيظ حشو جنانهِ

"عني يا مخربَيِ مصر ولا تعودا تريان وجهي مدى العمر . احترز يا موسى انك يوم ترى وجهي موتاً تموت"

فاجابهُ موسى برصانة وجلال

"نعماً قلت يا فرعون . انا لا اعود ارى وجهك ايضاً ولكن اسمع كلمة الرب التي كلمني بها لاقولها لك . ضربة واحدة ايضاً اجلب على فرعون وعلى مصر . اني نحو نصف الليل اخرج في وسط مصر فيموت كل بكر في ارض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيهِ الى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة فيسجد لي كل عبيدك هؤلاء قائلين "اخرج انت وجميع الشعب الذين في اثرك وكل رجال بلاطك وقوادك وولاتك وعظائك وجميع الذين يخدمونك يترلون اليَّ ويعجلون خروجي وبعد ذلك اخرج . هذه ايها الملك كلمات الرب عليك وقد طرحت صولجانك عند قدميَّ فكما أطأهُ هكذا يطأ الرب مصر"

ثم خرج موسى من لدن فرعون بحمو الغضب وقد قال لي

هرون انهُ عند خروجهِ من القصر انطرح المصريون امامهُ على الارض يسترضونهُ والبعض صرخوا "انهُ اله لكن هذا الاله الذي هو اقوى من اوسيرس واعظم من سيرابيس المنا"

فوبخهم موسى بصرامة وحزن وتذلل من جرَّاء هذه الخطية العظيمة وحضهم على عبادة الله رب السماء الذي لم يكن هو سوى عبدهِ وخادمهِ لهذه العجائب التي شاهدوها"

الوداع يا ابي العزيز . في رسالتي الآتية انقل اليك ولا ريب بشرى نصرة الرب الاله وغلبتهِ على فرعون وآلهتهِ وانقاذ العبرانيين من العبودية

ابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة الحادية عشرة

من رعمسيس دمشق الى سيسوستريس

من بادية العرب . عند البحر

ابي العزيز

ان الامور التي حدثت بعد ما كتبت اليك رسالتي الاخيرة تضيق مسافة ذرعي عن تمثيلها . ويثبو براعي دون وصفها وتفصيلها

وها انا امام بحر ادوم في وسط البادية اتخذ الصخر لوحًا لي لارقم حوادث السنة الايام الماضية . ما دامت ذاكرتي حافظة لها واعية

هوذا ملايين اسرائيل قد خرجوا من مصر واصبح بحر صوبهم فاصلاً بينهم وبين ارض العبودية والاسر فلتهلل كل الارض

ان الرب اله العبرانيين هو الله . وليس اله آخر سواه

فبعد ما خرج موسى وهرون من لدن فرعون ثوتمسيس قاصدين حنيقة انهما لا يعودان بريان وجهة ايضًا أمرهما الرب ان يكلما كل جماعة اسرائيل ويخبراهم بأن يأخذ كل واحد شاةً صحيحة ذكرًا ابن سنة من الخرفان او من المواعز ويحفظوهُ من اليوم العاشر الى اليوم الرابع عشر من الشهر ويذبحوهُ في العشيَّة ويغمسوا باقة زوفا بدمهِ وينضحوا بهِ العتبة العليا والقائمتين ويشووا لحمهُ ويأكلوهُ ليلاً ولا يبقوا منهُ شيئًا الى الصباح وقال لهم الرب

"تأكلونهُ بعجلة أحقاؤكم مشدودة واحذيتكم في ارجلكم وعصيكم في ايديكم هو فصح للرب الذي يجتاز هذه الليلة في ارض مصر ويضرب كل بكر في ارض مصر من الناس والبهائم واصنع أحكامًا بكل آلهة المصريين انا الرب ويكون لكم هذا اليوم تذكارًا الى الابد"

ففعل موسى كما امره الرب ثم اخبر شيوخ اسرائيل

"هكذا يقول الرب لايخرج أحدٌ منكم من باب بيتهِ حتى الصباح لان الرب يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم على العتبة والقائمتين يعبر الرب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب"

ثم اخبرهم بفرائض أُخَر من جهة خبز الفطير الذي يأكلونهُ سبعة ايام في "عيد الفطير"

فخرَّ الشعب وسجدوا لله قائلين انهم يفعلون كما امر الرب موسى وهرون

وبعد ذلك أخذ ثلاثة ملايين من الشعب يستعدون لكسر عبودية مصر والخروج من تحت صولجان فرعون القاسي الى الابد . وكانت عجائب موسى القديرة اخمدت على التوالي تذمُّرات الشيوخ وشكوكهم وقوَّت ثقتهم بموسى الذي لم يجدوا له مباريًا بين سحرة مصر وعرَّافيها وانتظروا على يدهِ خلاصهم . وعند حدوث العجيبة السادسة انقطعوا عن العمل ولم يجسر قط احد من المصريين ان يقول لهم " اذهبوا الى عملكم " لانهم رأوا ان الله كان معهم . وهكذا اتوا من كل جهات مصر مسرعين الى جاسان حتى غصَّت بجماهيرهم وضاقت بهم على رحبها ولم تعد تسعهم البيوت والاكواخ فباتوا الوفًا في الحقول وعلى جوانب الطرق ولما رأوا ان ضربات الظلام والجراد والبَرَد لم تصبهم تشجع الخائفون بينهم ورفعوا الى اله آبائهم اصوات الحمد والثناء واستحكمت في قلوبهم اسباب الامل والرجاء . وبعد ضربة الظلام الهائلة هتف الوف من جهلاء العبرانيين مؤلهين موسى وبهيأ المصريون من كل الرتب للاعتراف بانهُ اوسيرس او ثوث وبعد زوال ضربة الظلام بيوم بخَّر الكهنة في بعض الهياكل لاوسيرس باسم موسوسيرس او موسى اوسيرس ولا ارتياب في انهُ سوف يبقى مذكورًا في ارض مصر باكرام الحيّ الى اجيال

عديدة ومع ذلك ترى هذا الرجل العظيم القدير يجول بين الشعب كأدنى رجل خبير بلقي اوامر اعظم مشير شاهدته الارض – خروج امة عظيمة في يوم واحد من ضيق الرق الى رحب العتق

وقد جلتُ بينهم داخلاً خارجاً فرأيت الابتهاج بادياً على جميع الوجوه والجباه. وآيات الامل والرجاء ملء كل الالسنة والشفاه. فالشيوخ خالدون الى الدعة والامن والاطمئنان. والفتيان ناطقون بعبارات الامل بافصح لسان. والفتيات يطفرنَ فرحاً وسروراً. والامهات يبسمنَ عن ثغور ملأى ابتهاجاً وحبوراً. وهنَّ يضممنَ اطفالهنَّ الى صدورهنَّ مستبشرات بانهم يربون بكلاءة رب الخلاص والعون. آمنين غوائل عبودية فرعون. وكانت الابصار متجهة نحو موسى وهرون عند ما كانا يسيران بين الشعب جيئةً وذهاباً وكثيرون كانوا يخرّون امامهما سجوداً. وآخرون يهتفون رافعين لهما من الاجلال والاكرام اعلاماً وبنوداً

وكم كان قلب خادم الله طافحاً بالحمد والشكر عند ما شاهد الذين حوله ممتلين براح المسرّة والبشر وكم شعر بعظم المسؤولية التي عليه حين تأمل في ان رجاء الثلاثة ملايين من الشعب المجتمعين في جاسان على وعد الانقاذ من عبودية فرعون موقوف على ذراعهِ الوحيدة. التي هي في الحقيقة ذراع الله الممدودة

وبابة خشبية وتوقّع استعدَّ كل واحد من بني اسرائيل في باب بيتهِ لذبح الخروف المعيَّن ورشّ دمهِ على القائمتين والعتبة العليا وقد كان مساء ذلك اليوم شائقًا جميلاً فان الشمس ملأَت السماء عند مغيبها باشعة ذهبية وازدان الشفق بالوان النور الفائقة البهاء وفي الساعة المعينة أُعدَّت مئات الوف من سكاكين الذبح بايدي كل رجال الامة الذين صاروا في تلك الساعة أمة كهنة لله ونُحِرَت بها الذبائح فسالت دماؤُها في ارض جاسان وجعلتها مذبحًا لاله العبرانيين الذي اقتبل منها لاول مرَّة عبادة عامة من شعبهِ اعترافًا بانهم له وهو الههم

ثم اخذ كل واحد باقة زوفا وغمسها في طست الدم ونضح قائمتَي بيتهِ والعتبة العليا عن كل الذين في بيتهِ وكل اخ غريب أتى من بعض جهات مصر ولم يستطع لسبب الازدحام ان يدخل بيتًا في ارض جاسان فهو معدود مع سكان احد البيوت . فان بيت حمي هرون مثلاً لم يسع اكثر من ثلاثين نفسًا ولكن المعدودين له كانوا ثلاث مئة وسبعين — كلهم اخوة غرباء من مقاطعات أُخر في مصر. هذا فضلاً عن الوف من بيوت المصريين الذين ازدحموا على تخوم جاسان واختلط بعضهم بالعبرانيين هربًا من احكام الرب في مصر والتماسًا للنجاة بقرب العبرانيين وتحت جناح الههم. وكثيرون منهم جاءوا بكل ما لهم بذهبهم وحليهم وفضتهم — آملين انهم يترضون بها اولئك الذين اذلوهم

واستعبدوهم من قبل والآن خشوهم وخافوا جانبهم

وليت شعري باي قلم او بأي لسان . اصف لك يا والدي العزيز حوادث تلك الليلة عقيب ذبح الضياه من الماعز والخرفان فبعد ما غابت الشمس وتوارت في الحجاب . آوى العبرانيون بيوتهم واغلقوا الابواب . حتى ان كثيرين من المصريين التعاسى الذين سمعوا بما امر الله العبرانيين اخذوا شاةً وذبحوها— بايدٍ مرتجفة وقلوب يتنازعها الخوف والرجاء— ونضحوا بالدم قوائم ابوابهم او الاماكن الحقيرة التي التجأوا اليها لعلّ اله العبرانيين عند ما يجتاز في ليل انتقامه من فرعون يرى الدم ويعبر ويعفو عن ابكارهم

اخيرًا ساد على ارض جاسان سكوت أشبه بالسكوت السائد الى الابد على داخل الاهرام ولم يغمض جفنٌ لواحد من كل اسرائيل مدةً ساعات الانتظار الرهيب لاستماع اول صوت يعلن نزول الله على مصر . وبقيت انا مستيقظًا في بيت ايناداب الجليل حمي هرون وكانت زوجة هرون مطوقة بذراعيها ابنها البكر ناداب وهو شاب جميل الطلعة وكان هرون وموسى منفردين وحدهما في غرفة يتحادثان سرًّا او يصليان ولم يكن يسمع غير صوت هذا الرجل العجيب كانهُ يكلم الله وجهًا لوجه

وعند نصف الليل اشرق بغتةً نورٌ من السماء فوق المنزل وانبثق منهُ مجدٌ ملأ ارض جاسان بهاء . وكنت اذ ذاك واقفًا

في صحن الدار فسقطت على وجهي الى الارض لاني علمت انه دليل على حضور الله . اخيرًا تقدم موسى اليّ ولمسني قائلاً "لا تخف انهض وانظر مجد الله حتى متى رجعت وجلست على عرشك تعلّم شعبك ان اله العبرانيين هو اله السماء والارض وهذه العجائب والاحكام صُنعت لاجلك ولاجل اسرائيل وفرعون والمصريين وجميع الامم الذين يسمعون بها حتى يعلم فرعون وجميع الملوك وكل الارض من هو الرب واياهُ وحدهُ يعبدون"

فنهضت وشاهدت في السماء عمود نار رأسهُ في أعلى السحاب واسفلهُ فوق سطح البيت وهو على هيئة عكاز عبراني وعند اعلاهُ قضيب نور معترضًا وعليهِ اكليل مجد تنبثق منهُ اشعة النور والبهاء. وفي هذا العمود تراءى شبه انسان بنور فائق اللمعان فغطيت وجهي وسجدت ولما نظرت ثانيةً رأيت العمود يتقدم نحو مصر الى مدينة اون وقد انار بضيائهِ كل الارض ولما صار فوق مدينة الشمس اذا بسيف سُلّ بيد الواقف في عمود النار وأُشرع فوق قصر فرعون وضُرِب بهِ . ثم أُجيز بسرعة البرق الخاطف فوق كل بقعة من ارض مصر حتى لم اعد اقوى على النظر اليهِ فانحنيت مغطيًا وجهي وسجدت

ثم سمعنا في جاسان صراخًا من قلب مصر كأن كل امٍّ في مدينتي اون وممفيس وباقي المدن والقرى الكثيرة رفعت صوتها

بأعلى الصياح واشدّ البكاء والنواح

ولم اعلم ما هذا الصراخ فارتعتُ جدًا وخررت ساجدًا امام الله طالبًا رحمتهُ

ثم رُدّ السيف بيد الانسان في عمود السحاب ورجع العمود المنير ووقف فوق البيت حيث يسكن موسى وهرون ساطعًا بنور جميل ولم يعد فيهِ شيءٌ من بهاء الرجز الذي بدأ فيهِ قبلاً

وبعد نحو ساعتين جاء فارسان يسابقان الرياح ودخلا جاسان وانطرحا على الارض عند اقدام موسى وهرون وكانا رسولين من عند فرعون

ثم نهض واحدٌ منهما وصرخ بصوت تقطعهُ انفاس الخوف والارتعاد والعجلة

قد ارسلنا الملك اليكما قائلاً "انهض يا موسى وهرون واخرجا من بين شعبي ومن مصر انتما وبنو اسرائيل واذهبوا اعبدوا الرب الهكم كما قلتم . خذوا غنمكم وبقركم وكل ما لكم واذهبوا وصليا الى الرب الهكما لاجلي لكي يباركني لانهُ قتل ابني"

وفيما هو يتكلم جاءت جماعة من سادة مصر وكبار مأموريها وعظمائها الذين قتل الرب ابكارهم (لانهُ لم يبقَ بيت في مصر لم يمت فيهِ واحدٌ من بكر فرعون الجالس على كرسيهِ الى بكر الاسير الذي في السجن) واخذوا يلحون على موسى وهرون وكل جماعة اسرائيل متوسلين اليهم بدموع وطلبات ان يسرعوا

بالذهاب من الارض بكل ما لهم

ولما صار النهار نادى موسى في كل اسرائيل ان يتأهبوا للخروج من مصر في ذلك اليوم وامر الشعب ان يأخذوا كل الحلى والذهب والفضة والامتعة التي عرضها عليهم المصريون والحّوا بقبولها والتعجيل في الذهاب قائلاً لهم "لان هذه كلها لكم كما امر الرب ان تسلبوا المصريين الذين علموا لهم بدون اجرة . انها عطية الرب من الذين يسلبهم اياها فداء استبقائهم احياء"

واخذ بنو اسرائيل يجتمعون مئات واصطفت المئاتُ الوفًا وانتظمت الالوف جيوش اسباط كبيرة حتى كان عند الظهر اثنا عشر جيشًا لله في كمال الاستعداد للمسير عند سماع صوت موسى . وكان كل سهل جاسان على قدر امتداد النظر من برج يعقوب غاصًا باولئك الصفوف وكان كل سبط جاعلاً نساءهُ واولادهُ وغنمهُ وبقرهُ داخل صفوفهِ . وجميعهم وقفوا يتوقعون علامة المسير واحقاؤهم مشدودة واحذيتهم في ارجلهم وعصيهم في ايديهم وعجينهم غير مختمر في معاجنهم وهم محملون حلى وعطايا من المصريين اعطوهم اياها اما لكي لا يعودوا يرون وجوههم او من الخوف او على رجاء انهم يباركون من الرب الههم . لانهُ هكذا أمال الرب الاله (الذي لهُ فضة الارض وذهبها) قلوبهم نحو العبرانيين

وعند ما أشرفت الشمس على المغيب اعطى موسى علامة المسير

لذلك الجيش القدير فساروا بدون ابواق وبلا انتظام حربي وبلا رايات واسلحة وتقدموا صفوفًا من عند برج يعقوب حيث وقف موسى وهرون بجانبهِ وعصا المعجزات في يدهِ ولما بلغت طليعة جيش يهوه البرج تقدمها عمود السحاب الابيض الحالّ فيهِ يهوه (الذي وقف طول النهار في الجوّ كسحابة بيضاء كالثلج غير متحركة) كأنهُ محمول على منكب النسيم اللطيف واقبل الليل قبلما اجتاز نصف الجيش موقف موسى وبعد ما غابت الشمس التي لم تعد قط تشرق على اسرائيل في مصر استحال عمود السحاب الى عمود نار. وارسل على صفوف اسرائيل بهاء كبهاء شمس النهار

وانتصف الليل قبل ان اجتازت الساقة او مؤخر الجيش موقف موسى ووجهها نحو البادية. فنزل موسى وهرون من على البرج وحينئذٍ جثوت امامها طالبًا منها ان يسمحا لي بالخروج من مصر مع شعب الرب لكي ابقى مشاهدًا لقوة الله فاجابني موسى متلطفًا واعدًا اياي بان يكون لي كأب فاشاهد آيات يهوه واعلن في فينيقية مجدهُ وقوتهُ.

وفيما هو يكلمني اذا بجمع غفير من المصريين والنوبيين والعبيد واسرى مصر وكل اولئك الذين علّلوا نفوسهم بان يباركوا ويصيبوا خيرًا مع اسرائيل جثوا امام موسى وتوسلوا اليهِ ان يسمح لهم بالصعود الى الارض الجديدة الذاهب هو اليها.

فأجاب موسى مبتسماً

وقد علمت ان اولئك الذين اطاعوا من المصريين وصية موسى ورشوا ابوابهم بالدم نجوا كالاسرائيليين لان ملاك الرب اعتبر فقط الدم المرشوش علامة الطاعة وان كثيرين من الاسرائيليين فقدوا أبكارهم لاستخفافهم بوصية موسى او لارتيابهم بقصد الله او لظنهم ان مجرّد كونهم اسرائيليين يخلّصهم

والآن دعني أُطلعك يا والدي العزيز عمّا استفدته من هرون بشأن اشارة علامة الدم لان الله اذ أعلن له انه "سيكون رئيس كهنة لشعبه أعلن له ايضاً ان ذبح الخروف رمزٌ الى اقنوم الهي بري، سوف يُرسَل من الله ويُذبح يوماً ما"

"والارض التي كانت مصر رمزاً اليها ستكون مذبح هذه الذبيحة المستقبلة العجيبة وكما ان اسرائيل أُنقِذَ من مصر بواسطة دم حمل وموت بكر هكذا بواسطة دم الحمل بكر الله ينقذ اخيراً كل الجنس البشري (الذي ينظر الى دم هذا الحمل) من هذه الارض ومن فرعونها الشيطان ويُقاد بالله الى سماء فوق الجلَد الى ارض ذات سعادة وسلام خالدين ليسكن هناك الى الابد"

أ فليس هذا تعليماً سامياً . أوَلا يكون الله صانعاً مع اسرائيل رسم ما هو مزمع ان يصنعه لكل اهل الارض . ألا ننجو اخيراً من مصر هذا العالم ونُقاد بقائد الهيّ وبواسطة دم حمل الله السريّ العجيب الى عالم آخر

اني يا ابي العزيز اعلم بعض العلم عن هذا الامر لكنهُ كافٍ
ليبعثني على مزيد الفرح والابتهاج لانهُ بموجب هذا التعليم السامي
تكون انت وانا وكل سكان الارض — الذين ينظرون الى اله
اسرائيل ويؤمنون من بعيدٍ برش دم ذلك الحمل على عتبة
قلوبهم — يكونون ايضاً من اسرائيل والهم الهنا والسماء الموعود
بها لهم موعودٌ بها لنا ايضاً آه من يستطيع ادراك عمق حكمة الله
وجودتهِ ومحبتهِ وقدرتهِ فلاسمهِ المجد والجلال والسلطان
والعبادة من كل الامم وامامهُ ليسجد كل الملوك والرؤساء ولهُ
لتجثُ كل ركبة من كل الشعوب والامم والقبائل والالسنة لانهُ
رب السماء والارض وليس غيرهُ اله

ثم ان موسى الذي شفتاهُ على الدوام تقطران حكمة سماوية
سرَّ بان يعلن لي قبل موت الابكار بليلة وهو يتمشَّى في دار
اينادآب القصد الالهي في ارسال هذه العجائب على مصر
فاصغيتُ اليهِ بمزيد الخشية والورع معجباً بحكمة الله وعدلهِ وبما
قالهُ لي

"ان المصريين اعتقدوا في كل حين بان اعمال السحر
والشعوذة التي يأتيها سحرتهم وكهنة اسرارهم هي عجائب حقيقيةٌ
تدل على قوة آلهتهم ومشاركتها لكهنتهم في تمكينهم من اجتراح هذه
المعجزات ولذلك عدَّ هذا من عمل أصنامهم وبناءٍ عليهِ اقتضى
ان يُعلن الرب اله العبرانيين ذاتهُ وقوتهُ بالعجائب ايضاً وليس

ذلك فقط بل بان تكون معجزاته تعالى ممتازة عن شعوذة السحرة والعرافين ومقنعة للمصريين بانها من اله كليّ القداسة والسلطة على اوثانهم ومظهرة للاسرائيليين انفسهم الذين أوشكوا ان ينسوا الله ان صانع هذه الآيات والمعجزات التي شاهدوها يجب ان يكون الاله الحي الحقيقي ورب الارض والسماء وهكذا يا عزيزي رعمسيس اذا انعمت نظرك قليلاً في كلماتي ترى شدَّة مناسبة هذه العجائب العشر التي صنعها الله امام فرعون ومصر واسرائيل واقتدارها على استئصال ايمانهم بآلهة مصر واعلان الاله الحقيقي الهاً حقه ان يتَّقى ويُعبَد من كل الناس

"وفي بادئ الامر سمح بقصد الهي لقوة السحرة ان تجاري قوتي انا خادم الله لاني من تلقاء ذاتي لم اعمل شيئًا ولولا ذلك لكان المصريون والاسرائيليون المرتابون يقولون اني مستمدٌ قوتي من آلهتهم (لانهم لم ينسوا اني ربيت مصريًا وعرفت اسرارهم) ولم يُنسَب شيءٌ من المجد والاكرام الى الله . ولكن حينما بدأ ساحرا الملك باسم آلهة مصر أُعلن اله السماء ليس فقط أسمى من سحرتهم في آياته ومعجزاته بل كما ترى عدوًّا لعبادتهم الوثنية . وأُعطي للذين شاهدوا عجائب الله وشعوذة الساحرين ليس فقط ان يميزوا بين قوة الله وشعبذة عرّافي مصر بل ان ينقادوا الينا كما ترى من عشرات الالوف الذين يطلبون ان يتبعونا من ارض جاسان — اذ قد انتزع ايمانهم بصيانة وقوة آلهتهم . والآن

لاحظ يا عزيزي الامير القصد المعنيّ بهِ في هذه العجائب من الاولى الى الاخيرة

" فالعجيبة الاولى صدَّقتْ سلطتي المعطاة لي من الله وختمت على اعلان ارساليتي الى فرعون واوقعت بالحيَّات وهذا كان اوّل ايقاع من القادر على كل شيء بآلهة مصر وحيواناتها المقدسة ولا تجهل هيكل اورابوس المقدس حيث تُعبَد الحيَّة بابتلاع ثعبان عصا الله لثعابين المصريين أرى فرعون ان آلهتهُ لم يستطيعوا ان يجيبوا او ينقذوا ذواتهم في حضرة خادم الاله الحقيقي "

" والنيل كما لا يخفى عليك معدودٌ مقدَّساً ومعبودٌ عند المصريين وكل ما فيهِ من السمك محسوبٌ مقدَّساً ومياههُ تُودّ مصر بما يجرعونهُ باحترام وسرور معتقدين بان قوة الشفاء مذخورةٌ في اعماقهِ وبين امواجهِ فتحويلهُ الى دم واماتة أسماكهِ بعثهم على النظر الى الههم هذا بعين الكراهة والاشمئزاز ومغادرة ضفافهِ هاربين بخوف ورعدة "

" والعجيبة الثانية — الضفادع — صُنِعت ضد احد آلهة المصريين وعبادة هذه الحيوانات النجسة فتحوَّل هذا الاله لعنة لهم واذ لم يجسروا على قتل الضفادع لانها عندهم مقدسة صارت لهم عند حلول هذه الضربة هولاً ورعباً لا يمكن ان يوصفا

والعجيبة الثالثة وُجّهت نحو كهنتهم وهياكلهم لانهُ حسب شريعة كتبهم (الاثنين واربعين كتاباً) لا يقدر احد ان يدنو

من المذابح وعليه لطخة من هذه الحشرات النجسة وكان الكهنة لاجل اتقاء هذه الارجاس يلبسون كتانًا ابيض نقيًا ويحلقون رؤوسهم واجسادهم كل يوم . فانظر اذًا شدَّة هول هذه الضربة عليهم حتى ارغم السحرة على التصريح امامي قائلين

"هذا اصبع الله"

والعجيبة الخامسة قُصِد بها اعدام المصريين الثقة بالههم بعلزبوب اله الذبان فان هذا الاله مشهور عندهم بوقاية مصر من اسراب الذباب التي تدهم مصر في بعض الفصول . وعدم اقتدار السحرة على ازالة هذه الضربة برهنت على ان الرب الاله يفوق اله الذبان في القوة والاقتدار . وجعلت المصريين ينظرون الى هذا الوثن بعين الارتياب والاحتقار

"وضربة المواشي صُوِّبت نحو ابيس ومنفيس وامون اله ثيبة ذي الرأس الكبشيّ ونحو طريقة عبادتهم المطلقة للحيوانات وبهذه الآية القديرة زاد الرب بهوه عن حرمة كرامته واعدمهم ايمانهم بوثنهم المصنوع بايدي الناس وافقدهم الثقة بوجود الههم"

"وحينما أخذت بأمر الله رمادًا من مذبح الذبائح البشرية وذريته نحو السماء (كما كان يفعل كهنتهم لاتقاء الشر) وجاءهم الشر على هيئة دمامل علمهم الله انه قادرٌ تعالى على تحويل ما اتكلوا عليه ليكون ضدَّهم وجعل نفس طقوسهم الوثنية لعنةً عليهم وعلى كل ارض مصر"

" والعجيبة الثامنة صُوِّبت نحو عبادة ايس واتخاذهِ ضابطًا للفصول وحركات الهواء وجميع الظواهر الجوية وحين أُصيبت الارض بالبرد والمطر والبرق والرعد وكل صلواتهم الى ايس لكي يوقف عاصفة غضب الله المخيفة لم تُغنِ فتيلاً ولم يروا بها الى النجاة من هذه الآفة سبيلاً . أيقنوا بفساد اتكالهم على الاوثان التي لا تستطيع وقايتهم من قوة اله العبرانيين"

" والعجيبة التاسعة قُصِد بها هدم اساس عبادة سيرابيس الذي اتضح لجميع المصريين بطلان زعمهم واعتمادهم عليهِ في حماية الارض من آفة الجراد اذ رأوا ان ازالة الجراد من ارضهم انما حصلت بقوة الله حين صلّى فرعون اليهِ"

" والاخيرة صُوِّبت نحو عبادة اوسيرس او الشمس وقُصِد بها تعليم المصريين وفرعونهم واسرائيل ايضًا ان اله العبرانيين اسمى من "سيد او رب الشمس" وانهُ عليهم ان يعبدوا الذي خلق الشمس والقمر والكواكب — يهوه اسمهُ"

ولما فرغ رجل الله من كلامهِ بقيت صامتًا مأخوذًا بالخشية والتأمل في ما سمعتهُ ثم مجدت وسبّحتُ الله الذي حكمتهُ وقوتهُ واحكامهُ كلها ظاهرة في جميع اعمالهِ والذي لا يعطي مجدهُ لآخر ولا يترك نفسهُ بلا شاهد على وجودهِ في الارض

وهكذا ترى يا ابي العزيز ان هذه المعجزات لم تكن مجرّد ظواهر قوة بل مثائل الهية سامية ممزوجة باحكام جليلة وبها

حامى بهوه عن عبادتهِ واوضح عدم قدرة الآلهة الكاذبة باعلانهِ قوتهُ وجلالهُ وانهُ وحدهُ — اله الآلهة وملك الملوك والسائد على الكل المبارك الى الابد

والآن اختم هذه الرسالة الطويلة واعطيك يا والدي العزيز فرصة للتأمل في عجائب الله وآيات حكمتهِ وقدرتهِ . وعمّا قليل تنتهي رسائلي اليك لاني في سفري في البادية لا اتفرّغ لمكاتبتك وسأجتاز الى فينيقية على طريق القافلة في بضعة ايام وارجع الى دمشق على طريق فلسطين ووادي الاردن ومنها ابادر حين تمكنني الفرصة الى مشاهدتك في قصرك في صور

ابنك المحب

رعمسيس دمشق

الرسالة الثانية عشرة

من رعمسيس دمشق الى الملك سيسوستريس

حوريب . في البرية

ابي العزيز

اعود الآن الى تتمة ما بدأت بهِ في آخر الرسالة السابقة عن انطلاق العبرانيين من ارض مصر

فحين اجتازت الساقة او القسم الاخير منهم برج يعقوب بعد نصف الليل تبعهم موسى وهرون وساروا كل الليل وهذان الاخوان يخاطبان قوّاد الاسباط والجماعات وفرق الالوف والمئات بحثّهم على ملازمة المسير واتباع عمود النار

وهذا المجد الالهي الذي شاهدهُ كل شعب اسرائيل وجميع المصريين الذين تبعوهم كان كقمر او شمس يتقدّمهم فوق خط

المسير او صفّ المشاة . ولما جئت مع موسى الى مقدمة هذا الجيش العظيم أبصرت ناووساً على عجلات يجرُّها اثنا عشر ثوراً في المقدمة فعلمت ان في هذا الناووس جسد الامير يوسف المحنَّط الذي حصل عليهِ بنو اسرائيل واخوهُ من وجه دولة الفراعنة الحاضرة منتظرين وقت الخلاص لان يوسف عند موته استحلف اخوتهُ بني اسرائيل انهم يخرجون عظامهُ من مصر حين يفتقدهم الله بمنقذ يخرجهم

وهكذا برَّ هذا الشعب العجيب بقسم آبائهِ ليوسف بعد مرور اكثر من مئتي سنة . وهكذا ترى خروجهم الآن اشبه بموكب جنازة وعلى جانب الناووس مشى موسى وهرون يتقدمان هذا الموكب العظيم في طريق البادية . وفي ذلك الليل ارتحلوا من سهل رعمسيس واتوا الى مضيق في وادٍ صخريّ ولما اشرقت الشمس استحال عمود النار الى عمود سحاب وظلَّ يتقدمنا باسلوب عجيب فائق رهيب . ولما اشتدَّ حرُّ النهار نزل عمود السحاب وحلَّ فوق مكانٍ يدعى سكّوت وهنا امر موسى الشعب ان يحلّوا ويخبزوا العجين الذي اخرجوهُ معهم في معاجنهم من مصر فطيراً . وفي الليلة التالية ارتحلوا قليلاً في الوادي الى مكان يُدعى ايثام وبعد ما استراحوا هنا رجعوا قليلاً ونزلوا امام بئر تدعى فم الحيروث بين مجدل والبحر امام بعل صفون حيث كانت اشجار نخل كثيرة وهنا تعجبت من اقامتهم بين تلال على جانبيهم

وقلت في نفسي لماذا لم يدعهم الله يجتازون الى البرية في ايثام ولماذا اتى بهم الى هذا المضيق على شاطئ البحر وكيف يمكنهم الاجتياز عند الارتحال والجبال من عن يمينهم ويسارهم منطبقة عليهم الى الشاطئ وتوقعتُ انهم في اليوم التالي سوف يعودون راجعين على الأثر ويأتون البادية على طريق ايثام حيث نزلوا اولاً ومن هناك يدورون شمالاً فشرقًا لكنني لم أُعلِن فكري هذا لاحد لان موسى كان باديًا في هدوء وجلال واطمئنان لم اجد عندهُ سبيلاً لمحادثتهِ في هذا الشأن وكانت ثقتهُ بالله مطبوعة على اسارير جبهتهِ ولسان حالهِ يقول انهُ تعالى اذا مسَّت الحاجة ودعت الضرورة يجعل في البحر طريقًا لشعبهِ الذي اجرى لاجل انقاذهِ كل هذه العجائب والمعجزات ولهذا سكتُّ منتظرًا ارادة الله لارى ماذا يجري بحكمتهِ

فكم كنت بعيدًا عن ادراك قصد الله في هذا الامر وكيف كنت الى التمام جاهلاً انهُ تعالى بمجيئهِ بهم الى هذا المضيق الذي لا منفذ لهم منهُ ان لم يرجعوا من حيث اتوا كان عازمًا على اظهار مجدهِ واعلان المظهر الاخير للعالم من مظاهر قوتهِ واحكامهِ على فرعون والمصريين وكأن موسى ادرك افكاري بهذا الشأن حين رجعت الى خيمتي فقال لي

" ان هذا يا ابني قد حدث تجربة لفرعون لانهُ حينما يسمع اننا في وادي فم الحيروث امام مجدل يقول انهم مرتبكون في

الارض – قد استغلق عليهم القفر. وقد قال لي الرب انهُ حينئذٍ يندم فرعون على اطلاقكم ويسعى وراءكم فاتمجد بفرعون وبجميع جيشهِ ويعرف المصريون اني انا الرب فالله سينتقم لنفسهِ من هذا الملك الشرير ويجازيهِ على شرهِ الذي ارتكبهُ ضدهُ تعالى وضد شعبهِ اسرائيل فاصبر وانظر قوة الله"

ولكن يا ابي العزيز لا تقدر ان تتصور بأي انتظار وثقة بالله توقعت النتيجة فما اعجب الله وابعد طرقهُ عن الاستقصاء . وقد قال لي هرون "انها اربع مئة وثلاثون سنة من يوم خروجهم من ارض مصر الى يوم خروج ابيهم ابرام من ارض الكلدانيين ومجيئهِ الى ارض كنعان وان هذا هو تمام الوقت الذي تُنبئ عنهُ في كتبهم لانقاذهم . ومدة اقامتهم في مصر من يوم نزول يعقوب الى ارض جاسان الى يوم خروجهم مئتان وخمس عشرة سنة . وبداءة عبوديتهم كانت من وفاة يوسف الذي مات قبل ولادة موسى بخمس وستين سنة (لا سبعين سنة كما افتكرتَ) وخادم الله الآن ابن ثمانين ولذا تكون مدة استعبادهم مئة وخمساً واربعين سنة مدة خمسة اجيال . وهكذا كان ابرهيم ونسلهُ متغربين بدون وطن مخصوص بهم اربع مئة وثلاثين سنة حسب كلمة الله لابرهيم . نعم انهم لم يكونوا كل هذا الوقت في العبودية ولكنهم كانوا تحت ملوك غرباء والآن تراهم راجعين أُمة قديرة ليطلبوا من الكنعانيين والفلسطينيين الارض الموعود بها من زمان طويل

لابيهم ابرام . فالله غير ناسٍ لوعدهِ كما يُعلِن هذا الجمع الغفير للعالم لكنهُ يتأنى حتى يأتي الوقت المعين وعندهُ تعالى اليوم كالف سنة والالف سنة كيوم

والآن انظر يا ابي العزيز اعلانًا جديدًا ومظهرًا آخر مجيدًا لقوتهِ تعالى وجلال احكام هذا الاله الذي لايستطيع انسان ان يقف امامهُ ويحيا فاذ كان اليوم التالي اليوم السابع الذي يفرض احد تقاليدهم الالهية الراحة فيهِ ولم يمكنهم في عهد العبودية حفظهُ امرهم موسى وهرون ان يستريحوا وبهذه الواسطة تمكن فرعون ليس فقط من استماع خبر استغلاق القفر عليهم — بواسطة بعض المصريين الذين رجعوا خوفًا من القفر — بل من التأهب للسعي وراءهم لاهلاكهم او لارغامهم على الخضوع لنيرهِ مرةً ثانية

وقد علمت من احد رجال بلاط فرعون (الذي خاف الله وفرَّ هاربًا من القصر واتى واخبر موسى) بان الملك لما بلغهُ نبأ استغلاق القفر عليهم وقد قضى قبل ذلك ثلاثة ايام آسفًا نادمًا على اطلاقهم وثب عن المائدة التي كان جالسًا حولها وصرخ مقسمًا بآلهتهِ

لقد ارتبكوا في الارض بين فم الحيروث والبحر . واستغلق عليهم القفر وقد خدعوني بقولهم انهم ذاهبون الى البرية ليذبحوا وقد اتاهم الههم في وادي الصخور بجانب البحر فالآن وحياة

اوسيرس لانهضنّ واسعينّ وراءهم"

وعلى الفور دعا عظماءهُ وقوادهُ وامرهم بارسال سعاة الى الجيش المجتمع في بوباستس على اهبة الخروج على ملك ادوم الذي يهدّد مصر من وقت طويل لكي يسرع في المسير الى سهل اون ثم ارسل الى المدينة حيث مركباته الحربية المنتقبة البالغة ست مئة مركبة أمرًا بسرعة اعدادها وملاقاتهِ بها في اليوم التالي امام مدينة رعمسيس . وأُرسلت من لدنهِ سعاةٌ الى كل الحصون ولجمع كل المركبات من المدن الأُخر ومن مدن المخازن واعدادها بفرسانهـا واحضارها اربعة آلاف مركبة الى السهل الذي غادرهُ الاسرائيليون منذ اربعة ايام . وارسل السبعة واربعون حصنًا في المقاطعات حَفَظتها ثلاث مئة او اربع مئة من كلٍ منها

كل هذه الانباء بلغت موسى على التوالي من رسول بعد آخر تارةً من مصري صديق للاسرائيليين وطورًا من اسرائيلي تخلف عن اخوتهِ في مصر ولم يخرج معهم ساعة انطلاقهم

فقال واحدٌ منهم ان فرعون غادر قصرهُ في كامل عدّتهِ الحربية وسار في مقدمة حرّاسهِ الست مئة مركبة من ذهب وعاج الى سهل رعمسيس وقال آخر ان جيش الملك العظيم برح بوباستس وبلوزيوم واجتاز اون مؤلفًا من سبعين الف رجل وعشرة آلاف فارس والفي مركبة من حديد وأخبر ثالث

ان اربعة آلاف مركبة تجمعت ايضًا من مصر السفلى وخفّت الى الانضام الى الملك للسعي وراء العبرانيين واعمال السيف في رقابهم . وبعد قليل جاء رابع وهو عبرانيٌّ وقال ان الملك زاحفٌ في مئة الف راجل وعشرين الف فارس وتسعة آلاف مركبة من حديد عدا الستّ مئة مركبة المنتخبة المؤلف منها جيش حرسه وهو يجدّ المسير في اثر الاسرائيليين على طريق سكوت

فملأَت هذه الانباء قلوب العبرانيين خوفًا ورعبًا لانهم لم يكونوا قادرين ان يصنعوا حربًا اذ لم يكن فيهم من يعرف استعمال الاسلحة سوى واحد وهو موسى الذي كان والهة على جانبه جيشًا بنفسه

وسار جيش المصريين كل الليل بدون توقُّف وقبل شروق الشمس أُنذر الاسرائيليون بقدومهم باصوات دويّ مركباتهم وخيولهم من بعيد . أخيرًا لما تحوّل عمود النار الى سحاب وارسلت الشمس اشعتهـــا على بادية العرب ظهرت طليعة المصريين متقدمة في الوادي . فلما شاهدها الاسرائيليون وسمعوا اصوات ابواق الحرب ودرداب الطبول نكصوا مذعورين واسرع شيوخهم بمزيد الخوف والغيظ الى موسى وصرخوا

" هل لانه ليست قبورٌ في مصر أخذتنا لنموت في البريّة . ماذا صنعت بنا حتى اخرجتنا من مصر أ ليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين لانه

خيرٌ لنا ان نخدم المصريين من ان نموت في البرية"

فاجابهم موسى بدون استياء ظاهر على وجهه الذي كان أشبه بوجه اله

"لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعهُ لكم اليوم فانهُ كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم الى الابد الرب يقاتل عنكم وانتم تصمتون . قفوا وانظروا ما يصنعهُ لكم"

ثم دخل موسى خيمتهُ مضطرب الوجه وقد سمعهُ الذين كانوا قريبين منهُ يدعو الى الله . فاجابهُ الرب من السحاب الذي فوق الخيمة

"مالك تصرخ اليَّ قل لبني اسرائيل ان يرحلوا وارفع انت عصاك ومدَّ يدك على البحر وشقهُ فيدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة وها انا اشدّد قلب فرعون (الذي لم امنعهُ عن عمل كل ما ارادهُ قلبهُ القاسي تاركًا اياهُ ليحصد ما زرع) وقلوب المصريين حتى يدخلوا وراءكم في البحر فاتمجد بفرعون وكل جيشهِ بمركباتهِ وفرسانهِ فيعرف المصريون اني انا الرب"

فخرج موسى من الخيمة حيث كلمهُ الرب وسمع الصوت جميع القريبين والبعيدين ولما اخذت جيوش اسرائيل في التقدم نحو البحر اذا بملاك الرب انتقل في عمود السحاب من المتقدمة الى المؤخَّرة ووقف وراءهم في عمود السحاب ودخل بين عسكر

اسرائيل وعسكر المصريين حتى انه حين اقبل الليل كان الاسرائيليون معسكرين على الشاطئ ناعمين بنور بهي وعسكر المصريون تحت ظلام دامس مطبق عليهم غير متجاسرين ان يقتربوا من ذلك النور غير الطبيعي الذي انبثق من فوق معسكر الاسرائيليين باهرًا انظارهم . وهكذا حلَّ الجيشان كل الليل غير مبدين حراكًا وعمود النار وعمود السحاب بينهما وهنا نهارٌ ساطع وهنالك ليلٌ دامس

ومدَّ موسى يدهُ على البحر بامر الله فهبت ريحٌ شديدة من الجنوب والشرق على البحر طول الليل فارتفع عجيجهُ وهياجهُ. وتلاطمت امواجهُ وذابت قلوب الاسرائيليين من الخوف والارتعاد وقبل ان عجيج الامواج بلغ أُذني فرعون فظنهُ صوت مسير كل جيوش الاسرائيليين متقدمين مع المهم لمحاربته في الظلام فدعا رجالهُ وحاول التقدم للقتال ولكن بسبب ظلّ السحاب الفاصل بينهُ وبين العبرانيين لم يكن ممكنًا لاحد من رجالهِ ان ينتقل من مكانهِ او ان ينظر رفيقهُ

اخيرًا طلع الصباح ولكن ليس على المصريين الذين ظل الظلام مخيمًا عليهم ولكن اي منظر مدهش عجيب شاهدناهُ حينئذٍ فاننا شاهدنا في البحر امامنا طريقًا رحبًا يسع مئتي رجل في صفٍّ واحد عرضًا والماء قائمٌ سورًا من هنا ومن هناك على جانبيهِ واذ ذاك رفع جنود العبرانيين هتاف الفرح والابتهاج

لانهم رأوا هذا الطريق العجيب ممتدًّا في عرض البحر الى مسافة بعيدة جدًّا . فرفع موسى صوتهُ وامر بني اسرائيل ان يصطفّوا صفوفًا صفوفًا مئة وثمانين في الصف الواحد على عرض هذا الطريق الذي فتحهُ لهم الله ويدخلوهُ . فدخل اولاً هرون والاثنا عشر شيخًا الذين انتُخبوا من الاسباط الاثني عشر لحراسة جسد الامير يوسف وعلى اثرهم الناووس يجرّهُ اثنا عشر ثورًا على عدد الاسباط ثم تقدّم مئة لاوي حاملون الاشياء المقدّسة التي ذخرها العبرانيون في احمالهم . ثم جاء موسى في مقدّمة الشعب ومشيتُ انا بجانبهِ

ولما هبطنا الشاطئ ودخلنا هذا الطريق العجيب دُهشتُ . لكنني لم أخف — من رؤية الماء قائمًا سورًا عاليًا عن يميننا ويسارنا . وقضى الاسرائيليون كل ذلك النهار في المسير داخل البحر على اليابسة ولما اقبل الليل كان اكثر من نصفهم باقيًا على الشاطئ . وفي كل هذه المدّة كان عمود السحاب واقفًا في المؤخرة على المضيق بين الاسرائيليين والمصريين . وفي الهزيع او المحرس الاول من الليل انتقل الى مقدمة الاسرائيليين مُرسِلاً اشعتهُ علينا لاجل انارة سبيلنا وبانتقالهِ من المؤخرة زال الظلام الخارق الذي كان مكتنفًا المصريين ولما رأى فرعون على ضياء الكواكب ان الاسرائيليين في حركة سار في مقدمة جيشهِ يتبعهم . وقد تمكن من رؤية انهزامهم ونجاتهم لكنَّ هذا الضياء الذي

قدرهُ على رؤيتهم هاربين ناجين لم يمكنهُ من رؤية كيفية نجاتهم . لكنهُ لا ريب ظنّ انهم خائضون على الشاطئ محاولين ان يدوروا حول الجبال لان الرياح الشرقية كثيرًا ما حسرت المياه على ذلك الشاطئ او قرّبت غورها وجعلتها مخاض يسهل خوضها الى ما حول الهضبة الشمالية الى طرف البادية . فلا بدّ ان فرعون تحقق اخيرًا ان ما سمعهُ قبلاً (وظنهُ صوت سير جيوش) كان هبوب ريح شرقية مكّنتهم من خوض المخاض الناشئة عنها مسافة ميل او ميلين الى الجانب الشمالي والوصول الى البادية على طريق ايثام وبغير هذا لا يمكن تعليل مجاسرة فرعون على السعي وراءهم في طريق خطّتهُ قدرة الله الاّ اذا كان أُصيب بجنون جزاء تقسية قلبهِ واصرارهِ على مقاومة ارادتهِ تعالى ولا ريب في ان هذه احدى الطرق التي بها يقاصّ الله الناس بجعلهِ خطيتهم ذاتها آلة هلاكهم

فسعى فرعون بمركباتهِ وفرسانهِ وكل جيشهِ واقترب من حامية ساقة اسرائيل وشدّد عليها بهتاف القتال وقد سكر فرعون وجنودهُ براح الاندفاع على فريستهم فعموا عن رؤية الماء القائم سورًا على جانبيهم حين اجتازوا فيهِ وراء الاسرائيليين ولما صاروا في وسط البحر اقبل عليهم الرب في عمود السحاب وحوّل نورهُ الباهر نحوهم وعلى بهاء نورهِ الساطع كنور الشمس أبصر فرعون وقوادهُ الخطر العظيم المحدق بهم ورأوا في اي

طريق هم سائرون وقد روى الاسرائيليون الذين كانوا في المؤخرة ان الماء القائم على جانبي المصريين تحرّك وامتدّ وارتفع فوقهم بطغيان مياهٍ جمّة كانت ممسكة بكلمة الله وقد بهر النور ابصارهم واعمى عيونهم وحيّر خيولهم وشوّش نظامهم فتمثّل كل هذا الهول امام عيني فرعون وصرخ باصوات الانذعار مصدرًا اوامرهُ بالتقهقر والرجوع قائلاً

"لنهرب من وجه اسرائيل لان الرب الههم يقاتل عنهم"

واذ ذاك حدث ما كان غاية في الهول والرعب فان ملاك الرب اشرف عليهم في عمود النار فازعجهم وولّوا الادبار ونشبت عجلات مركباتهم في الطين على اثر مرور عجلات العبرانيين فانخلعت فوثب الملك من مركبتهِ وامتطى جوادًا كان مع حامل سلاحهِ وحاول النجاة بنفسهِ واذا بصوت الرب يدعو موسى الذي كان الان واقفًا على شاطئ البحر من جهة العربية قائلاً

"مدّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم"

فمدّ موسى يدهُ على البحر في المضيق الذي اشتقّهُ الله طريقًا لشعبهِ وكان المصريون المركبيون والفرسان والمشاة يخبطون بعضهم ببعض محاولين الرجوع الى شاطئ مصر في ازدحام والتطام . واصطدام واقتحام . مجتهدًا كلٌّ منهم في التقدم والانفلات

والهرب والنجاة وكانوا منتشرين في وسط البحر مسافة عدّة اميال . ممثلين فيها مشهد هول ورعب وويل وشقاء . لم يكن قط مثلهُ في ساحة حرب او قتال . منذ تكونت الارض وأُبدعت السماء. حتى ان صراخ المصريين بلغ مسامعنا الى الشاطئ عابرًا البحر بكل صراحة وجلاء

ولما مدَّ موسى يدهُ على البحر فوق الطريق الذي اجتازهُ الاسرائيليون ولم يبقَ منهم واحدٌ فيهِ اذا بالامواج التي اندفقت بيد الله وقامت سورًا على جانبي صفوف العبرانيين أخذت في الامتداد والطموّ وانطبقت بغتةً كشلالين عظيمين عاجّة متلاطمة طامية على كل جيش فرعون – قوادهِ ومركباتهِ وفرسانهِ – الذين تحوّلوا بوجوههم نحو مصر محاولين النجاة من الشرك الذي نصبهُ لهم انتقام الله العادل وقد غمرتهم كلهم المياه الراجعة امام عيوننا وفيما نحن ناظرون عجَّ البحر بامواجهِ المتلاطمة بتيارات الموت ثم عاد الى الهدوء والسكون وفرعون الذي كان شارعًا من سنين عديدة في بناء هرم عظيم مدفنًا لجسدهِ المحنط دُفن بقضاء الله الذي احتقرهُ وازدراهُ . تحت المركبات والخيول التي علَّل نفسهُ بالغلبة بها على بني الله

وهذا المشهد الناطق بعظمة قوة الله وقدرة أحكامهِ افعم قلوب الاسرائيليين خوفًا وخشيةً حتى ان الذين تذمَّروا على موسى اتوا اليهِ . وجثوا عند قدميهِ معترفين بخطاياهم وملتمسين منهُ

ان يصلي الى الله ليغفر لهم واعدين بانهم من الآن وصاعداً يسمعون لصوتهِ كما لصوت الله

ونزل الاسرائيليون ذلك اليوم على الشاطئ الذي قذفت اليهِ الامواج ما لا يحصى من جثث جيش فرعون ومركباتهِ وذخائرهم ومعدّاتهم من جعب سهام وحراب وسيوف ورماح حتى تسلح مئة الف مختار من كل سبط من اسباط اسرائيل ما عدا سبط هرون باسلحة موتى جيش المصريين . أفلم يكن هذا ايضاً يا ابي باصبع الله فآمن الاسرائيليون بهِ تعالى وخافوهُ واعلنوا استعدادهم لاطاعة صوتهِ

حينئذٍ رنَّم موسى وبنو اسرائيل تسبيحة حمد للرب واخذت مريم اخت هرون نبية الله دفّاً بيدها وخرجت وراءها فتيات اسرائيل بدفوف ورقص مرنمات لاله النصر . ترانيم حمدٍ وشكر

ثم ارتحل موسى ببني اسرائيل من بحر سوف ثلاثة ايام ولم يجدوا في طريقهم سوى ماء مرّ فتذمَّروا على موسى فحوَّلهُ لهم عذباً بآية قديرة . ثم جاءوا الى ايليم حيث كانت اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة فنزلنا هناك اياماً . وجئنا اخيراً الى البرية بعد شهر من خروجنا من مصر وفي كل هذا الوقت كان عمود السحاب يسير امامنا نهاراً وعمود النار يضيء لنا ليلاً . وهنا في برية سين اذ فرغ زاد الشعب تذمَّروا على موسى اذ لم يكن لهم ما يأكلون ولاموهُ على اخراجهِ اياهم من مصر حيث قدور

اللحم والخبز ليموتوا جوعًا في البرية . والله عوضًا عن ان يمطر
عليهم نارًا أمطرهم من رحمتهِ ونعمتهِ خبزًا من السماء للشبع مقابلاً
قلّة ايمانهم بهِ بالمحبة والصفح ولم يرسل لهم فقط خبزًا من السماء —
استمرّ ساقطًا كل صباح — بل ارسل لهم سلوى فصعدت وغطت
المحلّة . وكان طعم هذا الخبز السماوي كرقاق بعسل وهو ابيض
وقد دعوهُ منًّا وكان مقدارهُ كافيًا لهم جميعهم

ثم ارتحلوا ونزلوا في وادي حوريب حيث شاهدت موسى
لاول مرّة واقفًا بجانب قطيعهِ واذ لم يكن ماء للشعب ليشربوا
خاصموا موسى وتذمّروا عليهِ لاخراجهم من مصر الى هذا القفر
المعطش ناسين خلاصهم في بحر سوف وغير ذاكرين آية المنّ
والسلوى . فصرخ موسى الى الرب قائلاً

"ماذا افعل بهذا الشعب بعد قليل يرجمونني"

فامرهُ الرب ان يأخذ عصاهُ ويضرب الصخرة التي في
حوريب ففعل موسى هكذا فانفجر منها ماء غزير باردٌ صافٍ
وجرى كنهر في المحلّة

وهوذا نحن الآن نازلون امام حوريب . ومن هذا الجبل
اعطى الله في رعود وبروق وزلازل شريعة لشعبهِ ليسلكوا
بموجبها وهي عشر وصايا اربعٌ منها تتعلق بواجباتهم نحو الله
والستُّ الباقية بواجباتهم بعضهم نحو بعض ومن المستحيل يا ابي
العزيز اني اقوى على وصف منظر حوريب الرهيب حين نزل

الله عليه محجوبًا عن عين اسرائيل في سحاب كثيف برعود وبروق وصوت بوق شديد جدًّا حتى ارتعد كل الشعب الذي في المحلة ولا يمكنني ان أُمثّل لك منظر جبل الله الذي صعد منهُ دخان كدخان اتون مدة سبعة ايام وسبع ليالٍ وصوت البوق يزداد اشتدادًا جدًّا داعيًا موسى ليصعد الى الجبل ويأخذ الشرائع والاحكام ونور مجد الرب يتقد كنار آكلة

فترك موسى الشعب في السهل وصعد الى الجبل امتثالاً لصوت الله الرهيب . واما هرون والشيوخ الآخرون فرافقوا موسى الى حيث رأوا اله اسرائيل وتحت رجليهِ شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة (خر ٢٤ : ١٠)

ودخل موسى في وسط السحاب وصعد الى الجبل وبقي فيهِ اربعين نهارًا واربعين ليلة

ولما مضى عشرون يومًا ولم يرهُ الشعب ولا علموا ماذا اصابهُ اجتمعوا كلهم على هرون متذمرين مضطربين زاعمين انهم لن يعودوا يرونهُ وعزموا على الرجوع الى مصر اذا وجدوا لهم قائدًا فأبى هرون الرجوع معهم لكنهم اضطروهُ اخيرًا ان ينقاد اليهم اذا لم يرجع موسى بعد سبعة ايام ولما انقضت المدة المعيَّنة دعوا هرون وصرخوا

" قم انتخب لنا قائدًا يرجعنا الى مصر "

فاجابهم هرون بانهُ لا يصغي اليهم وامرهم ان ينتظروا رجوع

موسى . ثم جاء الف رجل متسلحين وقالوا له

" قم اصنع لنا آلهة تسير امامنا لان هذا موسى لا نعلم ماذا اصابهُ "

واذ لم يعد في استطاعة هرون ان يقاومهم قال لهم

" اي اله تريدون ان يقودكم "

" ايس اله فرعون والمصريين الذي عبدناهُ نحن وآباؤنا في مصر "

ثم اخذ منهم هرون اقراط الذهب التي اخذوها من المصريين وصهرها وجعلها تمثال العجل سيرابيس وقال بحزن وغيظ

" هذا ومثل هذا الملك يا اسرائيل الذي اخرجك من مصر "

وهكذا بخّر الاسرائيليون الذين لم يُفطَموا بعد من وثنيّة مصر امام هذا التمثال وذبحوا وعيّدوا بغناء ورقص كعادة المصريين

اخيرًا ظهر موسى مُرسَلاً من الجبل من عند الهِ اشتعل غضبًا على رجوعهم الغريب الى الوثنية فلما شاهد ما حدث وبّخ هرون بغيظٍ فاعتذر هذا محتجًّا بانهُ أُكرِهَ على هذا العمل الذي اجراهُ ليُري الشعب حماقة اتكالهم على وثن كهذا بعد ما اعترفوا بالاله الحقيقي فأخذ موسى العجل الذي صنع وجعل هرون

بحرقة وبطحنه وسقى بني اسرائيل عابدي الوثن ماءهُ المرّ الكريه ثم عاد ووبخ هرون ودعا اليه من هم للرب فاجتمع حوله مئات من الفتيان . فأمرهم ان يبطشوا بكل من جثا او رقص امام العجل وفي طرفة عين قُتِل من الشعب ثلاثة آلاف رجل كفّارة عن خطيئتهم التي ارتكبوها ضدّ الله

ويقول لي موسى ان الله قصاصاً للاسرائيليين على خطيئتهم سوف يُتيههم في البرية سنين عديدة قبلما يأتي بهم الى ارض الموعد وبناء عليهِ ساصحب غداً القافلة الذاهبة الى فينيقية . ولا ريب في انك سمعت من السفن المصرية ببعض العجائب التي اصابت ارضهم ومدنهم وقبل وصول هذه الرسالة اليك تسمع بخبر هلاك فرعون وكل جيشهِ في بحر سوف

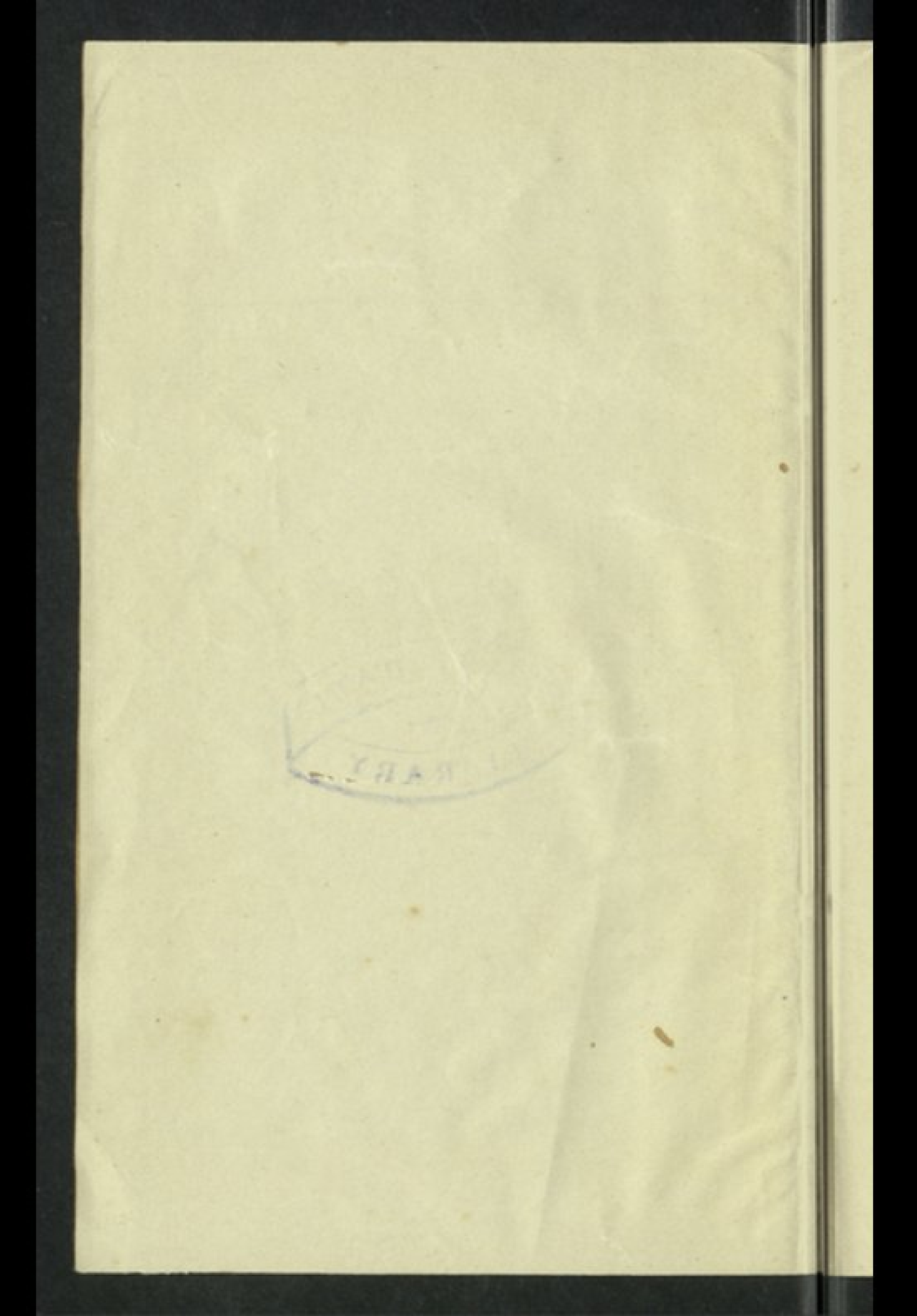
واني ارجو بعد اسابيع قليلة ان أعانقك وحينئذٍ نتكلم معاً عن جلال اله اسرائيل وقوتهِ ومجدهِ . متذكرين قضاءهُ على فرعون وعلى شعبهِ اسرائيل حين نسوهُ وانهُ كما عامل الامم هكذا يعامِل الافراد فالسبيل الوحيد الى سلام وسعادة الملوك والرعايا هو الطاعة والخضوع والمحبة لهذا الاله القدّوس العظيم ربنا وخالقنا وبهذه الواسطة فقط يمكن الدخول اخيراً الى سماء المجد المعدّة حسب قول موسى للذين يؤمنون بهِ تعالى ويتقونهُ في هذه الحياة . والذين يعصونهُ كفرعون فنصيبهم اخيراً الهلاك الابدي

فليكن عمود السحاب وعمود النار قائدًا لنا في برية هذا العالم لنسير في خوف على هدًى . ونرث اخيرًا منهُ تعالى سعادةً خالدة ومجدًا موّبدًا

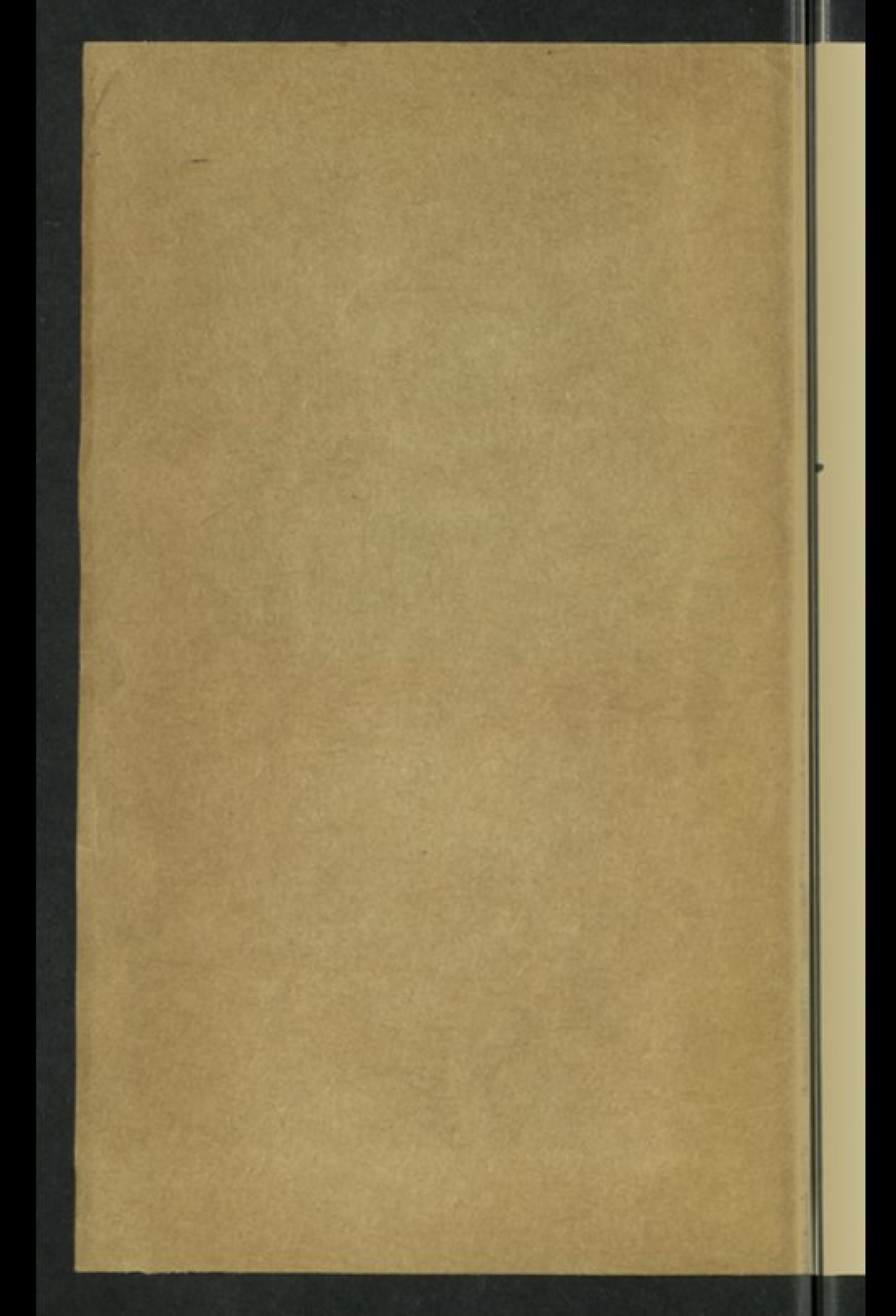
ابنك المطيع

رعمبس دمشق

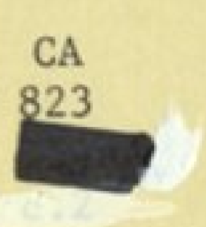
انتهى







هذه هي القصة الوحيدة التي استثارت
شعور فؤادي وابتغتني لغزا تشربته بكل
ما أوتيت ومكدر قلبي وغلبني الأسى
على هذا الحب الجميل الذي طالما صحت لربه




AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

